وقفة على بعض الأسرار
في اخبار الطينة.

بقلم
عبد الكريم صالح اللامي

{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} [السجدة : ٧]

المقدمة

الحمد لله الذى لبس العز والكبرياء ، واختارهما لنفسه دون خلقه ، وجعلهما حمى وحرما على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده . ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ؛ ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين ، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب (انى خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فجسد الملائكة كلهم اجمعون * الا ابليس) اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه ، وتعصب عليه لاصله ، فعدو الله امام المتعصبين ، وسلف المستكبرين ؛ الذى وضع اساس العصبية ، ونازع الله رداء الجبرية ، وادرع لباس التعزز ، وخلع قناع التذلل .١ وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين ، ارسله بالضياء وقدمه في الاصطفاء فرتق به المفاتق وساور به المغالب وذلل به الصعوبة وسهل به الحزونة حتى سرح الضلال عن يمين وشمال ٢ ، وعلى آله الذين هم عيش العلم ، وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حكم منطقهم . لا يخالفون الحق ، ولا يختلفون فيه ، وهم دعائم الاسلام ، وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق الى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ، ورعاته قليل٣.

بات من البديهي في عصر العلم ان جهل الانسان باسرار الكون والعالم المادي لا يقاس بعلمه فنسبة ما يعلمه الى ما لا يعلمه تكاد تكون معدومة ، وكلما تعمق الانسان بأسرار الكون تكشف له كم ان علمه ضئيل وكم اصبح عدد المجاهيل عنده من بعد ما كان يعتقد ان مجهولاته محصورة عددا فيضع لها سلما في درجة الاولوية والاهمية فيشرع في البحث عن اكتشاف ذلك المجهول وما ان يضع قدمه في اول الطريق حتى تبدء لعبة المتوالية الهندسية بالكشف عن وجهها ، وتبدأ عدد المجهولات بالتضاعف متواليا كلما تقدم خطوة ، فلا يحيط الانسان علما بما يقع تحت يده من المحسوسات فكيف بما هو بعيد عنه ، ام كيف يدرك ما وراء هذا الوجود المادي وقوانينه !

كل ما يبدو لنا انه ظاهر هو في الحقيقة يظهر لنا بوجه من وجوه لا حصر لها ، وانما ظهر بذلك الوجه لاسباب غائبة عنا لانراها ولا نشعر بها وانما نعلم به من خلال آثاره وتأثيراته ، ولا يمكن الاحاطة بكنه اصغر موجود من موجودات هذا العالم فضلا عن عوالم اخر ، فان كل موجود مرتبط بشبكة من الروابط بعدد موجودات جميع العوالم ماديها ومعنويها شاهدها وغائبها ، ونحن حينما نريد ان نعرفه فان ذلك يكون من خلال احد تلك الروابط التي يرتبط بها معنا ولا نعرف شيء من روابطه الاخرى مع باقي الموجودات والحال ان كل تلك الروابط تؤثر فيه وتتأثر منه وهو بدوره يؤثر فينا ويتأقر بنا ، فلا يزال الانسان جاهلا مهما بلغ من المعرفه

١-نهج البلاغة ج٢ ص٩٣ ٢-نفس المصدر ج٢ ص١٩٤ ٣- نفس المصدر ج٢ ص٢٣٢

وارتقى في سلمها ، ويبقى هذا النداء يصم اسماعه { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلً} [الإسراء : ٨٥] ، نعم قد يكتشف الانسان كثير من اسرار الطبيعة ويسخرها في خدمته في حياته الدنيوية ولكن حياته على الارض هي اول مراحل الحياة ووراءه مسير لا نهاية له فكيف يستطيع ان يكتشف قوانين عوالم هو لم يدخلها بعد ، اساسا هو لم يتصورها حتى يبحث عن اسرارها ، ومن خلال ذلك تتضح لنا حاجة الانسان في الارتباط بخالق هذا الوجود وصانعه حتى يرسم لنا خارطة طريق توصلنا الى بر الامان وتوصلنا الى ساحل الاطمئنان ، فانه هو الموجد لكل شيء وهو الذي يعلم بقوانينها وارتباطاتها {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك : ١٤]
ولا تنفع الانسان عنجهيته واستكباره واستعلائه على خالقه فانه بذلك يصرع نفسه ، وتسحقه عوالم الوجود المرتبطة به ، لانه جاهل بقوانينها وغير عارف بمورده ومصدره ، كما نرى ان علوم الطبيعة كلما تقدمت وظن اهلها انهم قادرون عليها ظهرت لهم كوارث ليس هي بحسبان احد وكلما اكشفوا قانونا وسخروه في خدمتهم صرعهم قانون لا يهتدون اليه سبيلا واطاح بصروحهم وجعل افهامهم حيرى ، فانظر الى اكتشافات طاقات الذرة ونواتها ماذا تقدم للانسان من خدمة في شتى مجالات الحياة وانظر بعين اخرى الى امراض الاشعاعات الى أي مدى نالت من افراد البشر وكم بلغ عدد الذين يموتون في كل ساعة بسببها ، والحال ان الانسان كان يعيش في أمن من هذه الامراض قبل ان يعرف هذه القوانين ، والامثلة على ذلك كثير .
فما اجمل ان يتواضع الانسان لربه ويسلم له وجهه ويتبع سفرائه وامنائه فيحصل على ما يريد من الحياة الخالدة والنعيم المقيم الذي لا اضمحلال له ولا زوال ، وهم صلوات الله وسلامه عليهم بينوا كل ما ينفع الناس وما يضرهم في دنياهم واخراهم بامر من الله ، فاتباع امنائه فيه نجاتهم وسعادتهم ومعاداتهم ومعانداتهم لا يجني منه الانسان غير الخيبة والخسران والشقاء الخالد ، فانهم الهداة الادلاء المامونون من الزلل ، وهم مصابيح الليل الداجي بهم يستضاء في كوالح ظلم المسير ، ولا يستغني عن هداهم الاعمى والبصير ، فصلوات الله تترى عليهم لا سيما على خاتمهم واوصيائه الذين اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا على ما كابدوه من عناء جهل الجاهلين وشنئان المعاندين والناصبين لهم العداوة والبغضاء لاجل اطفاء نور الحق وطمس معالم الرشاد { وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون} [التوبة : ٣٢]
ونحن اذ نقف على بعض آثار اولئك الهداة نريد ان نتعرف على سر من اسرار الكون بل هو اعظمها وهو كيفية خلق بني البشر ، ولا اقصد الخلقة المادية البدنية فان اكتشاف هذا الجانب موكول الى علوم الطبيعة وهي وان كانت تعنى بكشف هذه الاسرار الا انها تتناول جزءا ضئيلا جدا من تلك الاسرار كما قلنا لان ما يكتشفوه هو ما يحتاجون اليه فقط ولا يعرفوا ارتباط هذا الجانب بشبكة روابطه الاخرى ، وانما نريد ان نتعرف على اسرار خلقة النفس البشرية والنواميس التي تحكم تلك الخلقة ، وهذا الامر لا يمكن لاحد الا من له ارتباط بالخالق جلت عظمته فأنه هو الذي يكشف اسرار صنعه لاوليائه لغرض الهداية لهم ولطالبين الحق .

وهم بدورهم يبينون ما يمكن بيانه ويكشفون من الاسرار لمحتملي علمهم فأن الحق ليس شرعة لكل وارد ، لذا ورد عنهم ان امرنا صعب مستصعب لا يحتمله الا ملك مقرب او نبي مرسل او عبد امتحن الله قلبه ، وفي اخبار الطينة وكيفية الخلق من الاسرار التي تحتاج بمقدار ما هو ممكن استجلاء معالمها واستيضاح معانيها ، من اجل ردم الهوة بين ما هو مقبول عقلا وما يظهر في بادئ النظر انه غير مقبول ، فليس كل الاحكام يذعن لها العقل ويأخذها بالقبول والتسليم لانها ليس بدرجة واحدة من الوضوح والانسجام مع منظومته ، ولو كانت الاسرار تحتمل من قبل الكل لما كانت اسرار ويختص بها اهلها ، فكون امرا ما سر فمعنى ذلك انه لا يحتمل اظهاره كل احد ، ومنفعته تكمن بكونه سرا فيستفيد منه من يحتمله ويتضرر منه الذي هو ليس من اهله لذا ورد عن مسعدة بن صدقه عن جعفر عن أبيه قال : ذكرت التقية يوما عند علي بن الحسين عليه السلام فقال : والله لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله ولقد أخا رسول الله صلى الله عليه وآله بينهما فما ظنكم بساير الخلق ان علم العالم صعب مستصعب لا يحتمله الا نبي مرسل أو ملك مقرب أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للايمان قال وإنما صار سلمان من العلماء لأنه امرؤ منا أهل البيت عليهم السلام فلذلك نسبه إلينا .

بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار – ص٤٥

وورد عن زين العابدين عليه السلام في كتب الفريقين مقولته المشهورة كما عن تفسير الالوسي قال مولانا زين العابدين :

ورب جوهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل أناس مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا

تفسير الآلوسي - الآلوسي - ج ٣ - ص ١٧٤

فهناك معارف لا يحتملها كثير ، ومن يجد ان بعض المعارف تذكرها الاخبار عن النبي (ص) وهل بيته عليهم السلام ولا يتقبلها عقله لا لاكونها مستحيلة بل لاستبعادها فقط لا يتسرع بانكارها والتهريج على من يقول بها فيكون بذلك راد على الله كما وارد عنهم عليهم السلام .

فعن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول اما والله ان أحب أصحابي إلى أورعهم وأفقههم وأكتمهم بحديثنا وان اسؤاهم عندي حالا و أمقتهم إلى الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنا فلم يعقله ولم يقبله قلبه اشمأز منه وجحده وكفر بمن دان به وهو لا يدرى لعل الحديث من عندنا خرج والينا سند فيكون بذلك خارجا من ولايتنا .

وعن سفيان بن السيط قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك ان الرجل ليأتينا من قبلك فيخبرنا عنك بالعظيم من الامر فيضيق بذلك صدورنا حتى نكذبه قال فقال أبو عبد الله عليه السلام أليس عنى يحدثكم قال قلت بلى قال فيقول لليل انه نهار وللنهار انه ليل قال فقلت له لا قال فقال رده إلينا فإنك ان كذبت فإنما تكذبنا .

علي السناني عن أبي الحسن عليه السلام انه كتب إليه في رسالة ولا تقل لما بلغك عنا أو نسب إلينا هذا باطل وان كنت تعرفه خلافه فإنك لا تدري لم قلنا وعلى أي وجه وصفة .

وعن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام أو عن أبي عبد الله عليه السلام قال لا تكذبوا بحديث اتاكم أحد فإنكم لا تدرون لعله من الحق فتكذبوا الله فوق عرشه .
بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص ٥٥٧ - ٥٥٨

فأخبار الطينة فيها الكثير من المعارف الالهية التي تحتاج الى اذن واعية وقلب ممتحن لاجل ادراك بعض ما فيها ، وهذا الكتاب هو محاولة للوقوف على بعض تلك المعارف الواردة وبيان اصولها واسسها من طريق العقل والنقل ، وانا لم اقف على ما جاء في كل تلك الاخبار من المعارف بكل تفاصيلها ولم اتعرض لعلاج الاختلاف الذي يظهر من بعض تفاصيلها في بادئ النظر لانها كثيرة جدا ، فنقلت بعضا منها وصنفتها تحت بعض العناوين وان كانت كل واحدة منها يمكن ان تقع تحت اكثر من عنوان ولكن غرضي من ذلك ان اسلسل المواضيع ، ثم تعرضت الى اطول رواية في هذه الاخبار واجمعها لما ورد في متفرقات اخواتها من معارف وهي رواية الليثي عن الباقر عليه السلام ، فنكون بذلك وقفنا على مهمات مسائل اخبار الطينة ، نسأل الله ان يكون ذلك خالصا لوجهه الكريم وان ينفع به طالبي الحق ، ويرزقنا به رضاه وقربه ويزيدنا به حبا له ولاوليائه عليهم السلام ٨\ صفر\ ١٤٣٢

تمهيد

لما كانت اخبار الطينة تتضمن كثيرا من المسائل الاعتقادية كان من المهم التعرض للبحث عن المسلك المتبع في اثبات مفردات العقيدة اجمالا وتفصيلا ، وبيان الاختلاف في تلك الطرق والمسالك وماهو الملزم باتباع مسلك دون اخر ، وهل من اللازم اتباع مسلك واحد في جميع المسائل او يمكن التلفيق فيما بينها ؟ فان بعض المسالك يفيد اليقين وبعضها يفيد الجزم وبعضها يفيد الاطمئنان او الظن ، فان الدليل الذي يلزمنا ويوجب علينا طلب المعرفة والاعتقاد هو الذي يحدد لنا أي مسلك نحتاج اليه في انتاج المعرفة ، ونظير ذلك ما يقال في علم الاصول وهو ان الدليل الذي اثبت لنا حجية خبر الواحد هو الذي يحدد لنا دائرة تلك الحجية ، وبما انه هو السيرة العقلائية فالقدر المتيقن منها هو حجية خبر الثقة وغيره مشكوك فيتمسك بالقدر المتيقن ، ومسألتنا من هذا القبيل ، فنقول ما هو الموجب والملزم لنا بالاعتقاد والمعرفة ؟ هناك بحث في معرفة الله عز وجل هل هي مسألة ضرورية او نظرية ؟ واذا كانت نظرية هل يجب البحث عن المعرفة ومقدماتها او لايجب ذلك ؟

معنى وجوب النظر والمعرفة والدليل عليهما :

من هنا قيل بوجوب النظر والمعرفة وحتى يتضح لنا ماهو المراد من هذه الجملة التي هي الاساس في الانطلاق الى فضاء العقيدة لابد من الوقوف على معاني مفرداتها .

قال الراغب الاصفهاني في مادة وجب :

الوجوب: الثبوت. والواجب يقال على أوجه:

الأول: في مقابلة الممكن، وهو الحاصل الذي إذا قدر كونه مرتفعا حصل منه محال.
نحو: وجود الواحد مع وجود الاثنين؛ فإنه محال أن يرتفع الواحد مع حصول الاثنين.
الثاني: يقال في الذي إذا لم يفعل يستحق به اللوم، وذلك ضربان:
واجب من جهة العقل، كوجوب معرفة الوحدانية، ومعرفة النبوة.
وواجب من جهة الشرع كوجوب العبادات الموظفة.
وقال في مادة نظر :
النظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الروية. يقال: نظرت فلم تنظر. أي: لم تتأمل ولم تترو، وقوله تعالى: ﴿قل انظرو ماذا في السموات﴾ [يونس/١٠١] أي: تأملوا.
واستعمال النظر في البصر أكثر عند العامة، وفي البصيرة أكثر عند الخاصة،
وقال في مادة عرف :
المعرفة والعرفان: إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، وهو أخص من العلم، ويضاده الإنكار، ويقال: فلان يعرف الله ولا يقال: يعلم الله متعديا إلى مفعول واحد، لما كان معرفة البشر لله هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته، ويقال: الله يعلم كذا، ولا يقال: يعرف كذا، لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل به بتفكر، وأصله من: عرفت. أي: أصبت عرفه. أي: رائحته، أو من أصبت عرفه. أي: خده، يقال عرفت كذا. قال تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ [البقرة/٨٩]، ﴿فعرفهم وهم له منكرون﴾ [يوسف/٥٨]، ﴿فلعرفتهم بسيماهم﴾ [محمد/٣٠]، ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ [البقرة/١٤٦].
ويضاد المعرفة الإنكار، والعلم الجهل. قال: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ [النحل/٨٣]، والعارف في تعارف قوم: هو المختص بمعرفة الله، ومعرفة ملكوته، وحسن معاملته تعالى.
وبعد هذا نقول المراد من الوجوب هو الالزام، والمراد من النظر هو التأمل والفحص، والمراد من العرفة هو ادراك الشيء الحاصل من خلال التفكر والتدبر لاثره .
والالزم ينشأ من سببين اما سبب فطري واما سبب عقلي ، والسبب الفطري هو المركوز في فطرة كل انسان يحركه لدفع الضرر المحقق او المحتمل ، والسبب العقلي هو ان العقل يحكم بلزوم شكر المنعم ، وعلى هذا الاساس قرر دليلان لاثبات وجوب النظر كما يذكر في كلمات المتكلمين وهما :
الدليل الاول :
فهو إن النظر دافع للخوف، وكل دافع للخوف فهو واجب، لتكون النتيجة أن النظر واجب. وجه الدليل أن القياس المنطقي هنا فيه صغرى وكبرى، أما الصغرى فهي: أن المكلف إذا نشأ بين العقلاء وسمع اختلافهم في إثبات الصانع ونفيه وأحوال المعاد وأمور القيامة حصل له خوف، إذ كل واحد من أقوال المختلفين يجوز أن يكون هو الواقع بما فيه قول المثبتين، فيجوز أن يؤاخذ على عدم اعتقاده بما في ذلك من الآثار

الكبيرة المترتبة على ذلك الاعتقاد لو ثبت كونه هو الواقع، ولا مزيل لهذا الخوف إلا النظر. أما الكبرى وهي لزوم دفع الخوف وهذا أمر ضروري.
(إشراق اللاهوت في نقد شرح الياقوت ص١٥)

الدليل الثاني : قرره ابن ميثم البحراني بالشكل التالي:
"إن العاقل إذا فكر في خلقه وجد آثار النعمة عليه ظاهرة، وقد تقرر في عقله وجوب شكر المنعم، ولكن شكر هذا المنعم يتوقف على معرفته إذ لا يمكن شكر المنعم قبل معرفته لأن الشكر مشروط ومتوقف على المعرفة، ولو وجب الشكر من دون المعرفة فهذا يعني وجوب الشروط من دون تحقق الشرط وهذا محال لأنه تكليف بما لا يطاق وهذا قبيح عقلا". (قواعد المرام في علم الكلام ص٢٩)
والدليل الاول ليس دليلا عقليا وانما هو دليل فطري بخلاف الدليل الثاني الذي هو دليل عقلي يبتني على القول بالحسن والقبح العقليين ، والمهم في اثبات الالزام هو الدليل الفطري لانه لايبتني على مباني مسبقة ولا يسع لاحد ان ينكر الفطرة المركوزة في وجوده التي تدعوه لدفع كل ضرر يحتمله ، فاذا عرفنا ان مهم الدليل في لزوم النظر هو هذا لابد ان نرى ما هو الذي يسكت لنا نداء الفطرة ويقنعها بالمؤمَن من الخطر ، هل هو اليقين ام الجزم ام الاطمئنان ام الظن ؟

معنى اليقين والجزم والاطمئنان والظن :
ولكي يكون الجواب واضحا لابد من توضيح ما هو المراد من هذه الامور الاربعة ؟
اما اليقين فالمقصود منه هو الجزم المضاعف كالجزم بان الف هو باء والجزم بانه يستحيل ان لايكون كذلك أي الجزم بالثبوت والجزم بعدم الانفكاك مثاله ان نجزم بان الاربعة زوج ونجزم بعدم انفكاك الزوجية عنها .
واما المقصود من الجزم فهو القطع بالثبوت او بعدم الثبوت وهو بلقة الارقام يساوي ١٠٠% كما اذا قطعت ان زيدا قائما لانك تراه وهو قائم ، فهنا لايوجد جزم اخر بعدم الانفكاك بل عندنا جزم بالثبوت فقط لذا قد يجلس زيد بعد ذلك فينفك القيام عنه .
واما الاطمئنان فهو درجة دون الجزم بقليل يعني لاتصل ١٠٠ ولكن تسكن النفس لها وتطمئن .
واما الظن فهو درجة من العلم لم تبلغ الجزم ولم تبلغ الاطمئنان فاذا كان الجزم ١٠٠ والاطمئنان من ٩٩ الى ٩٥ فيكون الظن من ٩٤ الى ٥٠ % ومادون الخمسين يسمى وهما .
بعد اتضاح المقصود من هذه المصطلاحات تقول اذا حصل احتمال الخطر عند الانسان فاي درجة من درجات العلم يمكن الركون اليها في دفع ذلك الخطر ؟
كما لو كان امامك كاس فيه شراب واردت ان تشرب منه لانك عطشان، واحتملت ان في هذا الشراب سم احتمالا معتدا به، فمتى تقدم على الشرب هل اذا تيقنت بعدم وجود السم ام اذا جزمت ام اذا اطمئننت ام اذا ظننت ؟
اقول ان درجة الضرر هي التي تحدد لنا درجة العلم، والمقصود من درجة الضرر ليس هو درجة الاحتمال، فانا نفرض ان درجة الاحتمال هي واحدة في الجميع، وانما

المراد من الضرر هو درجة المحتمل، فتارة المحتمل هو سم واخرى هو دواء مضر بالصحة لمن لم يكن مريضا أي الدواء ليس بقاتل ، فاذا كان المحتمل هو ان هذا الشراب سم فلا اقدم على شربه الا ان يحصل لي اليقين، او لا اقل الجزم بكونه ليس سما ، واما اذا كان المحتمل هو كونه شراب مضر وليس سما قد اقدم على الشراب حتى في حالة الاطمئنان او الظن بكونه ليس مضر .
فمسائل الاعتقاد حيث انها تختلف من حيث الاهمية الى اصول وفروع فأي منها يسبب الاعتقاد بها السعادة الابدية وعدم الاعتقاد الشقاء الابدي فهذه تكون اصولا ويكفي فيها حصول اليقين او الجزم للالتزام او عدم الالتزام بها ، وفي بعض الاحيان قد لايكفي الجزم لوحده بسبب كون الشخص ممن يشتغل بالعلم وتحصل له كثير من الشبهات فلا بد من حصول اليقين عنده .
واما الفروع ولا نقصد من الفروع هو المسائل الفقهية التي تتعلق بالعمل وانما نقصد الفروع الاعتقادية من قبيل كم يوم يكون الحساب وماذا يأكل الناس هناك واي الناس يحاسب اولا وغير ذلك من التفاصيل فهذه كلها فروع، وهذه قد يكفي فيها الاطمئنان او الظن المعتبر الذي قام الدليل على اعتباره ، لان عدم الاعتقاد بها لا يستلزم ضررا كبيرا يستدعي ان يكون مستندا الى يقين او جزم .
وحينما نقول لابد من حصول اليقين او الجزم بمسألة من المسائل ليس بالضرورة ان يكون حصول ذلك من طريق معين كما يقال انه لابد في المسائل الاعتقادية من الاجتهاد وحصول اليقين ، فانا نقول ليس الامر كذلك فان المراد من الاجتهاد ليس هو الاجتهاد المصطلح عليه في علم الاصول لان المراد منه استنباط الاحكام الشرعية من ادلتها التفصيلية ، وهنا ليس عندنا حكم من الاحكام الفقيهة وانما كلامنا في الاعتقاديات ، ثم انه ليس دائما الاجتهاد موصل لليقين حتى ينحصر الطريق به ، فنقول أي طريق حصل منه الجزم او اليقين فيكون حجة سواء كان ذلك عن طريق الاجتهاد او التقليد فان القطع حجيته ذاتية كما ذكر ذلك في علم الاصول، والقطع حجة سواء كان ذاتيا او موضوعيا أي له مبررات منطقية او ليس له مبررات .
والان نرجع الى السؤال الذي طرح في اول البحث وهو ان النظر والمعرفة واجبان ام لا ؟ نقول اذا لم يحصل للشخص جزم او يقين في مسائل الاعتقاد فيجب عليه النظر واما اذا حصل عنده الجزم او اليقين فلا يحتاج الى وجوب النظر وقد لا يوصله النظر الى الجزم اصلا وانما يزيد من حيرته وشكه .
فالمعتمد هو حصول الجزم وهو القدر الازم في مسائل الاعتقاد فبأي طرق حصل سواء كان من خلال المنهج العقلي او الكلامي او النقلي فهو المعول عليه ، نعم قد لا يكفي الجزم لمن يشتغل في هذه المسائل وحصلت له شبهات كثيرة فلا بد له من تحصيل اليقين .
ثم ان التفريق بين القين والجزم لا يعرفه عامة الناس حتى يقال لهم لا يكفي في اعتقادك الجزم ، وانما التفرقة موجودة عند الباحثين والمشتغلين في هذه المسائل فقط، والحال ان دفع الضرر المحتمل واجب عند الجميع لا فرق بين العامة والخاصة.

هذا هو ما توصل اليه قاعدة دفع الضرر وهو قريب من الوجدان ومن راجع نفسه في حياته اليومية عندما يتعرض فيها لضرر محتمل وكيف يتعامل معه يقف على ما قلناه وهذا القول يقول به كثير من علماء الخاصة والعامة ولا داعي للاطالة بنقل اقولهم في ذلك .

يبقى الكلام في مضامين اخبار الطينة هل تدخل في الاصول الاعتقادية ام في الفروع ، حتى نستطيع ان نحدد المطلوب فيها هل هو الجزم او الاطمئنان او الظن المعتبر ؟
نقول بعض فقراتها تتضمن اصولا وبعضا اخر يتضمن فروعا وتفاصيلا لاصل خلقة الانسان وتفاصيلا للحساب وغير ذلك ، فما كان اصلا لابد فيه من الجزم ولا يكفي غيره ، واما الفروع والتفاصيل لا يشترط فيها ذلك .
ان قلت ان كان بعض التفاصيل ليس فيها جزم ولا اطمئنان ولا ظن معتبر فما هو الموقف من تلك التفاصيل هل هو الرفض او القبول ؟
والجواب هو التوقف في تلك التفاصيل ولا يحق لاحد ان يردها فأنه كما ان القبول لابد ان يكون عن دليل فالرد لابد ان يكون كذلك ، لذا ورد في الخبر الصحيح عن أبي عبيدة الحذاء قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : والله إن أحب أصحابي إلى أورعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا ، وإن أسوأهم عندي حالا وأمقتهم الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنا فلم يقبله ، اشمأز منه وجحده وكفر من دان به وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج ، وإلينا أسند ، فيكون بذلك خارجا من ولايتنا .
وسائل الشيعة - الحر العاملي - ج ١٨ - ص ٦١ - ٦٢

تصنيف اخبار الطينة

الاخبار في الطينة كثيرة جدا بالغة حد الاستفاضة ولعلك لا تجد كتاب من كتب الحديث ومصادره يخلو عن شيء من هذه الروايات، ونحن لا نريد ان نتعرض للبحث في سند الروايات فانها مما يجزم بصدور مضامينها عنهم عليهم السلام لانها ان لم تكن متواترة معنى كما يقوله السيد عبد الله شبر في مصابيح الانوار ، لا اقل انها مستفيضة كما يقول الطباطبائي قدس الله روحه : الاخبار مستفيضة في أن الله تعالى خلق السعداء من طينة عليين وخلق الاشقياء من طينة سجين - من النار - وكل يرجع الى حكم طينته من السعادة والشقاء . - بحار الأنوار - العلامة المجلسي ج ٦٤ ص ٨٠ هامش رقم ٢

وهي على كثرتها واختلافها تشترك في بعض المعاني وتختلف في بعض التفاصيل ، فان جميع الروايات تشترك في ان الله سبحانه وتعالى خلق انبيائه ورسله واتباعهم من عنصر واحد وهذا العنصر تارة تعبر عنه الروايات بانه ماءا عذبا واخرى طينة وثالثة شيء اخر ، وخلق اعدائهم من غير ذلك العنصر كماء اجاج او طينة اخرى وتشترك ايضا بكون طينة اولياء الله واتباعهم من الجنة او من عليين او من اعلى عليين او من طينة العرش ، وطينة اعداء الله من حمأ مسنون او من النار او من سجين على اختلاف الرويات وهي كما قلت كثيرة جدا تحتاج الى كتاب مستقل لجمعها ، ونحن نعرض بعضا منها ثم نقف على مهمات مضامينها وهي :

عن الصفار في بصائر الدرجات بسند صحيح قال : حدثني احمد بن محمد عن محمد بن خالد عن فضاله عن على بن ابى حمزة عن ابى بصير عن ابي جعفر عليه السلام قال انا وشيعتنا خلقنا من طينة واحدة وخلق عدونا من طينة خبال من حماء مسنون .

بصائر الدرجات –محمد بن الحسن الصفار - ص٣٥

الكليني في الكافي : محمد بن يحيى ، عن محمد بن الحسين ، عن محمد بن إسماعيل ، عن صالح بن عقبة ، عن عبد الله بن محمد الجعفي وعقبة جميعا ، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : إن الله عز وجل خلق الخلق فخلق من أحب مما أحب وكان ما أحب أن خلقه من طينة الجنة وخلق من أبغض مما أبغض وكان ما أبغض أن خلقه من طينة النار ، ثم بعثهم في الظلال فقلت : وأي شئ الظلال ؟ فقال : ألم تر إلى ظلك في الشمس شيئا وليس بشئ ، ثم بعث منهم النبيين فدعوهم إلى الاقرار بالله عز وجل وهو قوله عز وجل : " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله " ثم دعوهم إلى الاقرار بالنبيين فأقر بعضهم وأنكر بعض ، ثم دعوهم إلى ولايتنا فأقر بها والله من أحب وأنكرها من أبغض وهو قوله : " ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل " ثم قال أبو جعفر (عليه السلام) : كان التكذيب ثم . الكافي – محمد بن يقعوب الكليني – ج٢ ص١٠

الصفار في البصائر وهي صحيحة السند : حدثنى العباس بن معروف عن حماد بن عيسى عن ربعى عن على بن الحسين عليه السلام قال ان الله تعالى خلق النبيين من

طينة عليين قلوبهم وابدانهم وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة وخلق ابدان المؤمنين من دون ذلك وخلق الكفار من طينة سجيين قلوبهم وابدانهم فخلط بين الطينتين فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن و من هيهنا يصيب المؤمن السيئة ومن هيهنا يصيب الكافر الحسنة فقلوب المؤمنين تحن إلى ما خلقوا منه وقلوب الكافرين تحن إلى ما خلقوا منه . بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص ٣٥

وعنه عن عمران بن موسى عن ابراهيم مهزيار عن علي بن الحسين عن الحسين بن سعيد عن الحسين بن ميمون عمن اخبره عن ابى عبد الله عليه الصلاة والسلام قال ان الله عزوجل خلقنا من عليين وخلق محبينا من دون ما خلقنا منه وخلق عدونا من سجين وخلق محبيهم مما خلقهم منه فلذلك يهوى كل إلى كل .

. بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار – ص٣٦

حدثنا محمد بن عيسى عن ابى الحاج قال قال لى أبو جعفر عليه السلام يا ابا الحجاج ان الله خلق محمدا وآل محمد من طينة عليين وخلق قلوبهم من طينة فوق ذلك وخلق شيعتنا من طينة دون عليين وخلق قلوبهم من طينة عليين فقلوب شيعتنا من ابدان آل محمد وان الله خلق عدو آل محمد من طين سجين وخلق قلوبهم من طين اخبث من ذلك وخلق شيعتهم من طين دون طين سجين وخلق قلوبهم من طين سجين فقلوبهم من ابدان اولئك وكل قلب يحن إلى بدنه . بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار – ص٣٤

وحدثني احمد بن محمد عن محمد بن خالد عن ابى نشهل قال حدثنى محمد بن اسمعيل عن ابي حمزة الثمالى قال سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول ان الله خلقنا من اعلى عليين وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا منه وخلق ابدانهم ممن دون ذلك فقلوبهم تهوى إلينا لأنها خلقت مما خلقنا ثم تلا هذه الاية كلا ان كتاب الأبرار لفى عليين وما ادريك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون وخلق عدونا من سجين وخلق شيعتهم مما خلقهم منه وابدانهم من دون ذلك فقلوبهم تهوى إليهم لأنها خلقت مما خلقوا منه ثم تلا هذه الاية كلا ان كتاب الفجار لفى سجين وما ادريك ماسجين كتاب مرقوم . بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار – ص٣٥

ومنها طائفة تذكر ان الذي يخلق من طينة الانبياء والاولياء لا يتحول عنها وان الذي يخلق من طينة الاشقياء لا يتحول عنها نذكر بعضا منها :

البرقي في المحاسن : عن أبيه ، عن القاسم بن محمد ، عن علي بن أبي حمزة ، عن أبي بصير ، عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : لا تخاصموا الناس ، فان الناس لو استطاعوا أن يحبونا لاحبونا ، ان الله أخذ ميثاق الناس ، فلا يزيد فيهم أحد أبدا ولا ينقض منهم أحد أبدا .

عنه ، عن يحيى بن ابراهيم بن أبي البلاد ، عن أبيه ، عن جده ، عن عمران ، عن رجل من أصحابه يقال له عمران ، أنه خرج في عمرة زمن الحجاج فقلت له : هل لقيت أبا جعفر عليه السلام ؟ - قال : نعم ، قلت : فما قال لك ؟ - قال : قال لي : يا عمران ما خبر الناس ؟ - فقلت : تركت الحجاج يشتم أباك على المنابر (أعنى علي بن أبي طالب عليه السلام ،) فقال : أعداء الله يبدهون بسبنا ، أما انهم لو استطاعوا أن يكونوا من شيعتنا لكانوا ولكنهم لا يستطيعون ، ان الله أخذ ميثاقنا وميثاق شيعتنا

ونحن وهم أظلة ، فلو جهد الناس أن يزيدوا فيهم رجلا أو ينقصوا منهم رجلا ما قدروا عليه .
الصفار في بصائر الدرجات : حدثنا احمد بن موسى عن الحسن بن موسى عن على بن حسان عن عبد الرحمن بن كثير عن ابى عبد الله عليه السلام قال ان الله عزوجل خلق محمدا صلى الله عليه وآله وعترته من طينة العرش فلا ينقص منهم واحد ولا يزيد منهم واحد .
وعنه حدثنا محمد بن حماد عن اخيه احمد بن حماد عن ابراهيم بن عبد الحميد عن ابيه عن ابى الحسن الأول ع قال سمعته يقول خلق الله الأنبياء والأوصياء يوم الجمعة و هو اليوم الذى اخذ الله فيه ميثاقهم وقال خلقنا نحن وشيعتنا من طينة مخزونة لا يشذ منها شاذا إلى يوم القيمة .
وعنه حدثنا عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن محمد عن مسعود بن يوسف بن كليب عن الحسن بن حماد عن فضيل بن الزبير عن ابى جعفر عليه السلام قال يا فضيل اما علمت ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال انا اهل بيت خلقنا من عليين وخلق قلوبنا من الذى خلقنا منه وخلق شيعتنا من اسفل من ذلك وخلق قلوب شيعتنا منه وان عدونا خلقوا من سجين وخلق قلوبهم من الذى خلقوا منه وخلق شيعتهم من اسفل من ذلك وخلق قلوب شيعتهم مما خلقوا منه فهل يستطيع احد من اهل عليين ان يكون من اهل سجين وهل يستطيع اهل سجين ان يكونوا من اهل علين .
وعن الكافي بسند صحيح ايضا : عن زرارة ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : لو علم الناس كيف ابتدأ الخق ما اختلف اثنان : إن الله عزوجل قبل أن يخلق الخلق ، قال : كن ماء عذبا أخلق منك جنتي وأهل طاعتي ، وكن ملحا اجاجا أخلق منك ناري وأهل معصيتي ، ثم أمرهما فامتزجا فمن ذلك صار يلد المؤمن الكافر والكافر المؤمن ، ثم أخذ طينة من أديم الارض فعركه عركا شديدا فإذا هم كالذر يدبون ، فقال لاصحاب اليمين : إلى الجنة بسلام وقال لاصحاب الشمال : إلى النار ولا ابالي . ثم أمر نارا فاسعرت ، فقال لاصحاب الشمال : ادخلوها فهابوها ، وقال لاصحاب اليمين : ادخلوها فدخلوها ، فقال : كوني بردا وسلاما فكانت وسلاما . فقال أصحاب الشمال : يا رب أقلنا قال : قد أقلتكم فادخلوها فذهبوا فهابوها فثم ثبتت الطاعة والمعصية ، ولا يستطيع هؤلاء أن يكونوا من هؤلاء ، ولا هؤلاء من هؤلاء .
بحار الأنوار - العلامة المجلسي ج ٦٤ ص
وعنه عن محمد بن يحيى ، عن محمد بن الحسن ، عن النضر بن شعيب ، عن عبد الغفار الجازي ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : إن الله عز وجل خلق المؤمن من طينة الجنة وخلق الكافر من طينة النار ، وقال : إذا أراد الله عز وجل بعبد خيرا طيب روحه وجسده فلا يسمع شيئا من الخير إلا عرفه ولا يسمع شيئا من المنكر إلا أنكره ، قال وسمعته يقول : الطينات ثلاث : طينة الانبياء والمؤمن من تلك الطينة إلا أن الانبياء هم من صفوتها ، هم الاصل ولهم فضلهم والمؤمنون الفرع من طين لازب ، كذلك لا يفرق الله عز وجل بينهم وبين شيعتهم ، وقال : طينة الناصب من حمإ مسنون وأما المستضعفون فمن تراب ، لا يتحول مؤمن عن إيمانه ولا ناصب عن نصبه ولله المشيئة فيهم .

ومنها عن البحار نقلا عن الكافي بسند صحيح : عن محمد الحلبي ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله عزوجل لما أراد أن يخلق آدم عليه السلام أرسل الماء على الطين ، ثم قبض قبضة فعركها ثم فرقها فرقتين بيده ، ثم ذراهم فإذا هم يدبون . ثم رفع لهم نارا ، فأمر أهل الشمال أن يدخلوها فذهبوا إليها فهابوها ، ولم يدخلوها ، ثم أمر أهل اليمين أن يدخلوها ، فذهبوا فدخلوها ، فأمر الله عزوجل النار ، فكانت عليهم بردا وسلاما . فلما رأى ذلك أهل الشمال ، قالوا : ربنا أقلنا ، فأقالهم ، ثم قال لهم : ادخلوها فذهبوا فقاموا عليها ولم يدخلوها ، فأعادهم طينا وخلق منها آدم عليه السلام . وقال أبو عبد الله عليه السلام : فلن يستطيع هؤلاء أن يكونوا من هؤلاء ، ولا هؤلاء أن يكونوا من هؤلاء ، قال : فيرون أن رسول الله صلى الله عليه وآله أول من دخل تلك النار ، فلذلك قوله عزوجل " قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين " . - بحار الأنوار - العلامة المجلسي ج ٦٤ ص ٩٧

وقد يشكل على هذه الطائفة من الروايات بانها تثبت الجبر فان اهل الولاية لا يتحولون عن ولايتهم واهل العداء لا يتحولون عن عداوتهم وهذا يلزم منه لغوية بعث الانبياء والرسل والشرائع السماوية ويلزم الظلم على الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .
اقول سيأتي التعرض لهذا الاشكال وحله في موضعه المناسب ان شاء الله تعالى .

وهناك طائفة اخرى تذكر ان من يخلق من طينة يحن الى تلك الطينة سواء طينة عليين او طينة سجين ، اذكر بعض منها وهي :
عن الصفار في البصائر : حدثنى احمد بن محمد عن ابى يحيى الواسطي عن بعض اصحابنا قال قال أبو عبد الله عليه السلام خلقنا من عليين وخلق ارواحنا من فوق ذلك وخلق ارواح شيعتنا من عليين وخلق اجسادهم من دون ذلك فمن اجل تلك القرابة بيننا وبينهم قلوبهم تحن الينا .
وعنه حدثنا عمران بن موسى عن ابراهيم بن مهزيار عن اخيه عن على عن محمد بن سنان عن اسمعيل بن جابر وكرام عن محمد بن مضارب عن ابي عبد الله عليه السلام قال ان الله جعلنا من عليين وجعل ارواح شيعتنا مما جعلنا منه ومن ثم تحن ارواحهم الينا وخلق ابدانهم من دون ذلك وخلق عدونا من سجين وخلق ارواح شيعتهم مما خلقهم منه وخلق ابدانهم من دون ذلك ومن ثم تهوى ارواحهم إليهم .
وعن الكليني في الكافي : محمد بن يحيى وغيره ، عن أحمد بن محمد وغيره ، عن محمد بن خلف ، عن أبي نهشل قال : حدثني محمد بن إسماعيل ، عن أبي حمزة الثمالي قال : سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول : إن الله عز وجل خلقنا من أعلى عليين وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا منه وخلق أبدانهم من دون ذلك ، وقلوبهم تهوي إلينا لانها خلقت مما خلقنا منه ، ثم تلا هذه الآية " كلا إن كتاب الابرار لفي عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم يشهده المقربون " وخلق عدونا من سجين وخلق قلوب شيعتهم مما خلقهم منه وأبدانهم من دون ذلك ، فقلوبهم تهوي إليهم ، لانها خلقت مما خلقوا منه ، ثم تلا هذه الآية : " كلا إن كتاب الفجار لفى سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين " .

وهناك طائفة من اخبار الطينة تذكر اختلاط طينة المؤمنين مع طينة المعاندين ولاجل ذلك يلد الكافر المؤمن والمؤمن الكافر ويعمل المؤمن سيئات ويعمل الكافر حسنات ، ولولا اختلاطهما لما حصل شيء من ذلك واليك بعض اخبار هذه الطائفة :
الصفار في البصائر حدثني العباس بن معروف عن حماد بن عيسى عن ربعي عن علي بن الحسين عليه السلام قال ان الله تعالى خلق النبيين من طينة عليين قلوبهم وابدانهم وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة وخلق ابدان المؤمنين من دون ذلك وخلق الكفار من طينة سجيين قلوبهم وابدانهم فخلط بين الطينتين فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن و من هيهنا يصيب المؤمن السيئة ومن هيهنا يصيب الكافر الحسنة فقلوب المؤمنين تحن إلى ما خلقوا منه وقلوب الكافرين تحن إلى ما خلقوا منه

وعنه حدثني عمران بن موسى عن موسى بن جعفر عن علي بن معبد عن ابراهيم بن اسحق عن الحسين بن يزيد عن جعفر بن محمد عن ابيه عن جده عليهم السلام قال قال علي بن الحسين عليه السلام ان الله بعث جبرئيل إلى الجنة فاتاه بطينة من طينتها وبعث ملك الموت إلى الأرض فجائه بطينة من طينتها فجمع الطينتين ثم قسمها نصفين فجعلنا من خير القسمين وجعل شيعتنا من طينتنا فما كان من شيعتنا مما يرغب بهم عنه من الاعمال القبيحة فذاك مما خالطهم من الطينة الخبيثة ومصيرها إلى الجنة وما كان في عدونا من بر وصلوة وصوم ومن الاعمال الحسنة فذاك لما خالطهم من طينتنا الطيبة ومصيرهم إلى النار .
الكليني في الكافي : عدة من أصحابنا ، عن سهل بن زياد وغير واحد ، عن الحسين بن الحسن جميعا ، عن محمد بن اورمة ، عن محمد بن علي ، عن إسماعيل بن يسار ، عن عثمان بن يوسف قال : أخبرني عبد الله بن كيسان ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قلت له : جعلت فداك أنا مولاك ، عبد الله بن كيسان ، قال : أما النسب فأعرفه وأما أنت ، فلست أعرفك ، قال : قلت له : إني ولدت بالجبل ونشأت في أرض فارس وإنني اخالط الناس في التجارات وغير ذلك ، فاخالط الرجل ، فأرى له حسن السمت وحسن الخلق و كثرة أمانة ، ثم افتشه فأتبينه عن عداوتكم واخالط الرجل فأرى منه سوء الخلق وقلة أمانة وزعارة ثم افتشه فأتبينه عن ولا يتكم ، فكيف يكون ذلك ؟ فقال لي : أما علمت يا ابن كيسان أن الله عز وجل أخذ طينة من الجنة وطينة من النار ، فخلطهما جميعا ، ثم نزع هذه من هذه ، وهذه من هذه فما رأيت من اولئك من الامانة وحسن الخلق وحسن السمت فمما مستهم من طينة الجنة وهم يعودون إلى ما خلقوا منه ، وما رأيت من هؤلاء من قلة الامانة وسوء الخلق والزعارة ، فمما مستهم من طينة النار وهم يعودن إلى ما خلقوا منه .

البرقي في المحاسن : عن أبيه رحمه الله ، عن عبد الله بن القاسم الحضرمي ، عمن حدثه قال : قلت لابي عبد الله عليه السلام : أرى الرجل من أصحابنا ممن يقول بقولنا خبيث اللسان ، خبيث الخلطة ، قليل الوفاء بالميعاد ، فيغمني غما شديدا ، وأرى الرجل من المخالفين علينا حسن السمت ، حسن الهدى ، وفيا بالميعاد ، فأغتم لذلك

غما شديداً ، فقال : أو تدرى لم ذاك ؟ - قلت : لا ، قال : ان الله تبارك وتعالى خلط الطينتين فعركهما ، وقال بيده هكذا راحتيه جميعا واحدة على الاخرى ، ثم فلقهما ، فقال : هذه إلى الجنة ، وهذه إلى النار ، ولا أبالى ، فالذي رأيت من خبث اللسان والبذاء وسوء الخلطة وقلة الوفاء بالميعاد من الرجل الذي هو من أصحابكم يقول بقولكم فبما التطخ بهذه من الطينة الخبيثة وهو عائد إلى طينته ، و الذى رأيت من حسن الهدى وحسن السمت وحسن الخلطة والوفاء بالميعاد من الرجال من المخالفين فبما التطخ به من الطينة الطيبة ، فقلت : جعلت فداك فرجت عنى فرج الله عنك .

وهناك طائفة من اخبار الطينة تضيف على ما سبق من المعاني امرا وهو بغاية الاهمية وهو ما سنقف على بيانه ومبانيه واسسه ، وهذا المعنى هو ان كل فعل يرجع الى اصله وسنخه فالصالحات ترجع الى الصالحين والسيئات ترجع الى الكافرين ، وفيما يلي بعض هذه الروايات :

من هذه الطائفة الرواية المتقدمة عن المحاسن فان الامام عليه السلام يقول فيها : فالذي رأيت من خبث اللسان والبذاء وسوء الخلطة وقلة الوفاء بالميعاد من الرجل الذي هو من أصحابكم يقول بقولكم فبما التطخ بهذه من الطينة الخبيثة وهو عائد إلى طينته .

الصفار في بصائر الدرجات : حدثنى عمران بن موسى عن موسى بن جعفر عن على بن معبد عن ابراهيم بن اسحق عن الحسين بن يزيد عن جعفر بن محمد عن ابيه عن جده عليهم السلام قال قال على بن الحسين عليه السلام ان الله بعث جبرئيل إلى الجنة فاتاه بطينة من طينتها وبعث ملك الموت إلى الأرض فجائه بطينة من طينتها فجمع الطينتين ثم قسمها نصفين فجعلنا من خير القسمين وجعل شيعتنا من طينتنا فما كان من شيعتنا مما يرغب بهم عنه من الاعمال القبيحة فذاك مما خالطهم من الطينة الخبيثة ومصيرها إلى الجنة وما كان في عدونا من بر وصلوة وصوم ومن الاعمال الحسنة فذاك لما خالطهم من طينتنا الطيبة ومصيرهم إلى النار .

علل الشرائع - الشيخ الصدوق ج ١ ص ٩٣ :

حدثنا أبى رضى الله عنه قال : حدثنا محمد بن يحيى العطار قال : حدثنا جعفر بن محمد بن مالك قال : حدثنا أحمد بن مدين من ولد مالك بن الحارث الاشتر ، عن محمد بن عمار ، عن أبيه ، عن أبى بصير ، قال : دخلت على أبي عبد الله عليه السلام ومعي رجل من أصحابنا ، فقلت له جعلت فداك يابن رسول الله انى لاغتم واحزن من غير ان أعرف لذلك سببا ؟ فقال أبو عبد الله " ع " : ان ذلك الحزن والفرح يصل اليكم منا لانا إذا دخل علينا حزن أو سرور كان ذلك داخلا عليكم لانا وإياكم من نور الله عزوجل فجعلنا وطينتنا وطينتكم واحدة ولو تركت طينتكم كما أخذت لكنا وأنتم سواء ، ولكن مزجت طينتكم بطينة أعدائكم ، فلولا ذلك ما أذنبتم ذنبا أبدا ، قال : قلت جعلت فداك أفتعود طينتنا ونورنا كما بدا ؟ فقال : إى والله يا عبد الله ، اخبرني عن هذا الشعاع الزاهر من القرص إذا طلع أهو متصل به أو باين منه ؟ فقلت له جعلت فداك : بل هو باين منه فقال : أفليس إذا غابت الشمس وسقط القرص عاد إليه فاتصل به كما بدا منه ؟ فقلت له : نعم ، فقال كذلك والله شيعتنا من نور الله خلقوا واليه يعودون ، والله انكم لملحقون بنا يوم القيامة وإنا لنشفع فنشفع ، ووالله انكم

لتشفعون فتشفعون ، وما من رجل منكم إلا وسترفع له نار عن شماله وجنة عن يمينه ، فيدخل أحباؤه الجنة وأعداؤه النار .
الكليني في الكافي : عدة من أصحابنا ، عن سهل بن زياد وغير واحد ، عن الحسين بن الحسن جميعا ، عن محمد بن اورمة ، عن محمد بن علي ، عن إسماعيل بن يسار ، عن عثمان بن يوسف قال : أخبرني عبد الله بن كيسان ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قلت له : جعلت فداك أنا مولاك ، عبد الله بن كيسان ، قال : أما النسب فأعرفه وأما أنت ، فلست أعرفك ، قال : قلت له : إني ولدت بالجبل ونشأت في أرض فارس وإنني اخالط الناس في التجارات وغير ذلك ، فاخالط الرجل ، فأرى له حسن السمت وحسن الخلق و كثرة أمانة ، ثم افتشه فأتبينه عن عداوتكم واخالط الرجل فأرى منه سوء الخلق وقلة أمانة وزعارة ثم افتشه فأتبينه عن ولا يتكم ، فكيف يكون ذلك ؟ فقال لي : أما علمت يا ابن كيسان أن الله عز وجل أخذ طينة من الجنة وطينة من النار ، فخلطهما جميعا ، ثم نزع هذه من هذه ، وهذه من هذه فما رأيت من اولئك من الامانة وحسن الخلق وحسن السمت فمما مستهم من طينة الجنة وهم يعودون إلى ما خلقوا منه ، وما رأيت من هؤلاء من قلة الامانة وسوء الخلق والزعارة ، فمما مستهم من طينة النار وهم يعودن إلى ما خلقوا منه .
الصدوق في العلل :
حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل رضي الله عنه ، قال : حدثنا علي بن الحسين السعد آبادي عن أحمد بن أبي عبد الله عن أبيه قال : حدثنا عبد الله بن محمد الهمداني عن اسحاق القمي قال : دخلت على أبي جعفر الباقر عليه السلام فقلت له : جعلت فداك اخبرني عن المؤمن بزنى ، قال : لا ، قلت : فيلوط ، قال : لا ، قلت : فيشرب المسكر ، قال : لا ، قلت : فيذنب ، قال : نعم ، قلت : جعلت فداك لا يزنى ولا يلوط ولا يرتكب السيئات ، فأي شئ ذنبه ؟ فقال : يا اسحاق قال الله تبارك وتعالى (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم) وقد يلم المؤمن بالشئ الذي ليس فيه مراد ، قلت : جعلت فداك أخبرني عن الناصب لكم يطهر بشئ أبدا ، قال : لا ، قلت جعلت فداك قد أرى المؤمن الموحد الذي يقول بقولي ويدين بولايتكم وليس بيني وبينه خلاف ، يشرب المسكر ويزني ويلوط وآتيه في حاجة واحدة فاصيبه معبس الوجه كالح اللوان ثقيلا في حاجتي بطيئا فيها ، وقد أرى الناصب المخالف لما آتي عليه ويعرفني بذلك فآتيه في حاجة فاصيبه طلق الوجه حسن البشر متسرعا في حاجتى فرحا بها يجب قضاءها ، كثير الصلاة ، كثير الصوم كثير الصدقة يؤدي الزكاة ويستودع فيؤدي الامانة ، قال : يا اسحاق ليس تدرون من أين اوتيتم ؟ قلت : لا والله جعلت فداك إلا أن تخبرني ، فقال : اسحاق ان الله تعالى لما كان متفردا بالوحدانية ابتدأ الاشياء لا من شئ ، فاجرى الماء العذب على ارض طيبة طاهرة سبعة ايام بلياليها ، ثم نضب الماء عنها فقبض قبضة من صفوة ذلك الطين ، وهي طينة أهل البيت ، ثم قبض قبضة من أسفل ذلك الطين وهي طينة شيعتنا ، ثم أصطفانا لنفسه ، فلو ان طينة شيعتنا تركت كما تركت طينتنا لما زنى أحد منهم ولا سرق ولا لاط ولا شرب المسكر ولا اكتسب شيئا مما ذكرت ، ولكن الله تعالى أجرى الماء المالح على ارض ملعونة سبعة ايام ولياليها ، ثم نضب الماء عنها ، ثم قبض قبضة وهي طينة

ملعونة من حمأ مسنون ، وهي طينة خبال وهي طينة أعدائنا ، فلو ان الله عزوجل ترك طينتهم كما أخذها لم تروهم في خلق الآدميين ، ولم يقروا بالشهادتين ولم يصوموا ولم يصلوا ولم يزكوا ولم يحجوا البيت ولم تروا أحد منهم بحسن خلق ، ولكن الله تبارك وتعالى جميع الطينتين طينتكم وطينتهم فخلطها وعركها عرك الاديم ومزجها بالمائين ، فما رأيت من أخيك المؤمن من شر لفظ أو زنا أو شئ مما ذكرت من شرب مسكر أو غيره ، فليس من جوهريته ، ولا من ايمانه ، إنما هو بمسحة الناصب اجترح هذه السيئات التي ذكرت ، وما رأيت من الناصب من حسن وجه وحسن خلق ، أو صوم ، أو صلاة أو حج بيت أو صدقة ، أو معروف ، فليس من جوهريته ، انما تلك الافاعيل من مسحة الايمان ، اكتسبها وهو اكتساب مسحة الايمان . قلت : جعلت فداك فإذا كان يوم القيامة فمه ؟ قال لي : يا اسحاق أيجمع الله الخير والشر في موضع واحد ؟ إذا كان يوم القيامة نزع الله تعالى مسحة الايمان منهم فردها إلى شيعتنا ونزع مسحة الناصب بجميع ما اكتسبوا من السيئات فردها إلى أعدائنا وعاد كل شئ إلى عنصره الاول الذي منه ابتدأ ، أما رأيت الشمس إذا هي بدت ، ألا ترى لها شعاعا زاجرا متصلا بها أو باينا منها ، قلت : جعلت فداك الشمس إذا هي غربت بدأ إليها الشعاع كما بدأ منها ولو كان باينا منها لما بدأ إليها ، قال : نعم يا اسحاق كل شئ يعود إلى جوهره الذي منه بدأ ، قلت جعلت فداك تؤخذ حسناتهم فترد الينا وتؤخذ سيئاتنا فترد إليهم ؟ قال : أي والله الذي لا إله إلا هو . قلت : جعلت فداك أجدها في كتاب الله تعالى ؟ قال : نعم يا اسحاق ، قلت أي مكان ؟ قال لي : يا اسحاق أما تتلو هذه الآية (اولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) فلم يبدل الله سيئاتهم حسنات إلا لكم والله يبدل لكم .

علل الشرائع - الشيخ الصدوق ج ٢ ص ٤٨٩

الصدوق في العلل عن أبيه رحمه الله قال : حدثنا سعد بن عبد الله عن محمد بن أحمد عن أحمد ابن محمد السياري قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن مهران الكوفي قال : حدثني حنان بن سدير عن أبيه عن أبي اسحاق الليثي قال : قلت لابي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام يابن رسول الله اخبرني عن المؤمن المستبصر إذا بلغ في المعرفة وكمل هل يزنى ؟ قال : اللهم لا ، قلت : فيلوط ؟ قال : اللهم لا ، قلت : فيسرق ؟ قال : لا ، قلت : فيشرب الخمر ؟ قال : لا ، قلت : فيأتي بكبيرة من هذه الكبائر أو فاحشة من هذه الفواحش ؟ قال : لا قلت : فيذنب ذنبا ؟ قال : نعم هو مؤمن مذنب ملم ، قلت ما معنى ملم قال : الملم بالذنب لا يلزمه ولا يصير عليه قال : فقلت سبحان الله ما اعجب هذا لا يزنى ولا يلوط ولا يسرق ولا يشرب الخمر ولا يأتي بكبيرة من الكبائر ولا فاحشة ، فقال : لا عجب من امر الله ، ان الله تعالى يفعل ما يشاء ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فمم عجبت يا ابراهيم ؟ سل ولا تستنكف ولا تستحي فان هذا العلم لا يتعلمه مستكبر ولا مستحي ، قلت : يابن رسول الله اني أجد من شيعتكم من يشرب الخمر ويقطع الطريق ويخيف السبل ويزنى ويلوط ويأكل الربوا ويرتكب الفواحش ويتهاون بالصلاة والصيام والزكاة ويقطع الرحم ويأتي الكبائر ، فكيف هذا ولم ذاك ؟ فقال : يا ابراهيم هل يختلج في صدرك شئ غير هذا ، قلت : نعم يابن رسول الله اخرى اعظم من ذلك ! فقال : وهو ما يا أبا اسحاق ؟ قال : فقلت يابن رسول الله وأجد من اعدائكم ومنا صبيكم من يكثر من الصلاة ومن الصيام

ويخرج الزكاة ويتابع بين الحج والعمرة ويحرص على الجهاد ويأثر على البر وعلى صلة الارحام ويقضي حقوق اخوانه ويواسيهم من ماله ويتجنب شرب الخمر والزنا واللواط وسائر الفواحش فمم ذاك ؟ ولم ذاك ؟ فسره لي يابن رسول الله وبرهنه وبينه ، فقد والله كثر فكري وأسهر ليلي وضاق ذرعي ، قال : فتبسم الباقر صلوات الله عليه ، ثم قال : يا ابراهيم خذ اليك بيانا شافيا فيما سألت وعلما مكنونا من خزائن علم الله وسره اخبرني يا ابراهيم كيف تجد اعتقادهما قلت : يابن رسول الله اجد محبيكم وشيعتكم على ما هم فيه مما وصفته من افعالهم لو اعطي احدهما ما بين المشرق والمغرب ذهبا وفضة أن يزول عن ولايتكم ومحبتكم إلى موالاة غيركم وإلى محبتهم ما زال ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيكم ولو قتل فيكم ما ارتدع ولا رجع عن محبتكم وولايتكم ، ورأي الناصب على ما هو عليه مما وصفته من افعالهم لو اعطى احدكم ما بين المشرق والمغرب ذهبا وفضة أن يزول عن محبة الطواغيت وموالاتهم إلى موالاتكم ما فعل ولا زال ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيهم ولو قتل فيهم ما ارتدع ولا رجع وإذا سمع احدهم منقبة لكم وفضلا اشمأز من ذلك وتغير لونه ورأي كراهية ذلك في وجهه بغضا لكم وحبة لهم ، قال فتبسم الباقر عليه السلام ، ثم قال : يا ابراهيم هاهنا (هلكت العامة الناصبة تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية) ومن اجل ذلك قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ويحك يا ابراهيم ، اتدرى ما السبب والقصة في ذلك وما الذي قد خفي على الناس منه ، قلت : يابن رسول الله فبينه لي واشرحه وبرهنه ، قال : يا ابراهيم ان الله تبارك وتعالى لم يزل عالما قديما خلق الاشياء لا من شئ ومن زعم ان الله تعالى خلق الاشياء من شئ فقد كفر لانه لو كان ذلك الشئ الذي خلق منه الاشياء قديما معه في ازليته وهويته كان ذلك الشئ ازليا بل خلق الله تعالى الاشياء كلها لا من شئ ، فكان مما خلق الله تعالى ارضا طيبة ثم فجر منها ماء عذبا زلالا فعرض عليها ولايتنا أهل البيت فقبلتها فاجرى ذلك الماء عليها سبعة أيام طبقها وعمها ، ثم أنضب ذلك الماء عنها ، فاخذ من صفوة ذلك الطين طينا فجعله طين الائمة عليهم السلام ، ثم أخذ ثفل ذلك الطين فخلق منه شيعتنا ولو ترك طينتكم يا ابراهيم على حاله كما ترك طينتنا لكنتم ونحن شيئا واحدا ، قلت : يابن رسول الله فما فعل بطينتنا ؟ قال اخبرك يا ابراهيم خلق الله تعالى بعد ذلك ارضا سبخة خبيثة منتنة ، ثم فجر منها ماء اجاجا آسنا مالحا فعرض عليها ولايتنا أهل البيت فلم تقبلها فاجرى ذلك الماء عليها سبعة أيام حتى طبقها وعمها ، ثم نضب ذلك الماء عنها ، ثم أخذ من ذلك الطين فخلق منه الطغاة وأئمتهم ، ثم مزجه بثفل طينتكم ولو ترك طينتهم على حالها ولم يمزج بطينتكم لم يشهدوا الشهادتين ولا صلوا ولا صاموا ولا زكوا ولا حجوا ولا أدوا الامانة ولا اشبهوكم في الصور وليس شئ أكبر على المؤمن من ان يرى صورة عدوه مثل صورته ، قلت يابن رسول الله فما صنع بالطينتين ، قال : مزج بينهما بالماء الاول والماء الثاني ، ثم عركها عرك الاديم ، ثم أخذ من ذلك قبضة ، فقال : هذه إلى الجنة ولا ابالي ، وأخذ قبضة اخرى ، وقال : هذه إلى النار ولا ابالي ثم خلط بينهما ووقع من سنخ المؤمن وطينته على سنخ الكافر وطينته ووقع من سنخ الكافر وطينته على سنخ المؤمن وطينته ، فما رأيته من شيعتنا من زنا أو لواط أو ترك

صلاة أو صوم أو حج أو جهاد أو خيانة أو كبيرة من هذه الكبائر فهو من طينة الناصب وعنصره الذي قد مزج فيه لان من سنخ الناصب وعنصره وطينته اكتساب المآثم والفواحش والكبائر . وما رأيت من الناصب من مواظبته على الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وابواب البر فهو من طينة المؤمن وسنخه الذي قد مزج فيه لان من سنخ المؤمن وعنصره وطينته أكتساب الحسنات واستعمال الخير واجتناب المآثم فإذا عرضت هذه الاعمال كلها على الله تعالى قال : انا عدل لا أجور ومنصف لا أظلم وحكم لا احيف ولا اميل ولا اشطط الحقوا الاعمال السيئة التي اجترحها المؤمن بسنخ الناصب وطينته ، والحقوا الاعمال الحسنة التي اكتسبها الناصب بسنخ المؤمن وطينته ردوها كلها إلى أصلها ، فانى أنا الله لا إله إلا أن عالم السر واخفى ، وأنا المطلع على قلوب عبادي لا احيف ولا أظلم ولا الزم احدا إلا ما عرفته منه قبل ان اخلقه . ثم قال الباقر عليه السلام : أقرأ يا ابراهيم هذه الآية قلت : يابن رسول الله أية آية ، قال ، قوله تعالى (قال معاذ الله أن يأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون) هو في الظاهر ما تفهمونه هو والله في الباطن هذا بعينه يا ابراهيم ان للقرآن ظاهرا وباطنا ومحكما ومتشابها وناسخا ومنسوخا ، ثم قال : أخبرني يا ابراهيم عن الشمس إذا طلعت وبدا شعاعها في البلدان أهو باين من القرص ؟ قلت : في حال طلوعه باين ، قال : أليس إذا غابت الشمس اتصل ذلك الشعاع بالقرص حتى يعود إليه ؟ قلت : نعم ، قال : كذلك يعود كل شئ إلى سنخه وجوهره وأصله ، فإذا كان يوم القيامة نزع الله تعالى سنخ الناصب وطينته مع اثقاله وأوزاره من المؤمن فيلحقها كلها بالناصب وينزع سنخ المؤمن وطينته مع حسناته وأبواب بره واجتهاده من الناصب فيلحقها كلها بالمؤمن ، افترى هاهنا ظلما أو عدوانا ؟ قلت : لا يابن رسول الله ، قال : هذا والله القضاء الفاصل والحكم القاطع والعدل البين لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون هذا يا ابراهيم الحق من ربك فلا تكم من الممترين هذا من حكم الملكوت ، قلت : يابن رسول الله وما حكم الملكوت ؟ قال : حكم الله حكم أنبيائه ، وقصة الخضر وموسى عليهما السلام حين استصحبه ، فقال : (إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) افهم يا إبراهيم واعقل انكر موسى على الخضر واستفظع أفعاله ، حتى قال له الخضر يا موسى ما فعلته عن امرى إنما فعلته عن امر الله تعالى ، من هذا ويحك يا إبراهيم قرآن يتلى وأخبار تؤثر عن الله تعالى من رد منها حرفا فقد كفر واشرك ورد على الله تعالى . قال الليثي : فكأني لم أعقل الآيات وأنا أقرأها أربعين سنة إلا ذلك اليوم فقلت يابن رسول الله ما اعجب هذا تؤخذ حسنات أعدائكم فترد على شيعتكم ، وتؤخذ سيئات محبيكم فترد على مبغضيكم ؟ ! قال : أي الله الذي لا إله إلا هو فالق الحبة وبارئ النسمة وفاطر الارض والسماء ما اخبرتك إلا بالحق وما أنبئتك إلا الصدق وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد ، وان ما اخبرتك لموجود في القرآن كله ، قلت : هذا بعينه يوجد في القرآن ، قال : نعم يوجد في أكثر من ثلاثين موضعا في القرآن ، أتحب ان اقرأ ذلك عليك ؟ قلت بلى يابن رسول الله ، فقال : قال الله تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ انهم لكاذبون وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم) الآية ،

ازيدك يا ابراهيم قلت بلى يابن رسول الله قال (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) اتحب ان أزيدك ؟ قلت : بلى يابن رسول الله ، قال : (فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) يبدل الله سيئات شيعتنا حسنات ، ويبدل الله حسنات اعدائنا سيئات ، وجلال الله ان هذا لمن عدله وانصافه لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه وهو السميع العليم ، ألم أبين لك أمر المزاج والطينتين من القرآن ؟ قلت : بلى يابن رسول الله ، قال : إقرأ يا ابراهيم : (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم ان ربك واسع المغفرة هو اعلم بكم إذا أنشأكم من الارض) يعنى من الارض الطيبة والارض المنتنة (فلا تزكوا أنفسكم هو اعلم بمن اتقى) يقول لا يفتخر احدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه لان الله تعالى اعلم من اتقى منكم فان ذلك من قبل اللمم - وهو المزاج - ازيدك يا ابراهيم ، قلت : بلى يا رسول الله قال : (كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله) يعني أئمة الجور دون أئمة الحق (ويحسبون انهم مهتدون) خذها اليك يا ابا اسحاق فو الله انه لمن غرر أحاديثنا وباطن سرايرنا ومكنون خزائننا ، وانصرف ولا تطلع على سرنا احدا إلا مؤمنا مستبصرا فانك إن أذعت سرنا بليت في نفسك ومالك وأهلك وولدك .
- علل الشرائع - الشيخ الصدوق ج ٢ ص ٦٠٦ :

هذه بعض الروايات في الطينة وهي غيض من فيض ، ولم انقل كل الروايات او اكثرها لانها لوحدها تحتاج الى كتاب مستقل ، والمتفحص في مضامينها يجد ان ظاهرها يخالف بعض احكام العقل اوبعض ضرورات الدين فيكون بين امرين اما ان يرفع اليد عن تلك الاحكام او الضرورات ويأخذ بهذه الاخبار او يطرح هذه الاخبار لانها تخالف تلك الاحكام والضرورات ، ومن هنا اختلفت اقول علمائنا في علاج هذه المشكلة وسنعرض بعض الاقوال التي طرحت لحل هذه المشكلة العويصة .

اقول العلماء في اخبار الطينة

فقد ذكر العلاّمة السيد عبد الله شبر في كتابه (مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار ١: ١١) وجوهاً تسعة في بيان المراد من أحاديث الطينة، نوردها بتمامها عن كتابه :

الوجه الأول: أنها أخبار آحاد لا توجب علماً ولا عملاً فيجب ردّها وطرحها سيما وهي مخالفة للكتاب الكريم والسنّة القطعية وإجماع الإمامية والأدلة العقلية والبراهين القطعية

وفيه : أن هذه الأخبار وقد رواها العلماء الأعلام في جوامعهم العظام بأسانيد عديدة وطرق سديدة ولا يبعد أن تكون من المتواترات معنى فلا معنى لطرحها وردّها بل لابد من توجيهها وقد رواها ثقة الإسلام في الكافي بطرق شتى ومتون عديدة والشيخ في الأمالي والبرقي في المحاسن والصدوق في العلل وعلي بن إبراهيم والعياشي في

تفسيريهما والصفار في بصائر الدرجات وغيرهم في غيرها بأسانيد وافرة وطرق متكاثرة بل الأولى حينئذ أن يقال إن هذه الأخبار متشابهة يجب الوقوف عندها ورد أمرها وتسليمه إليهم عليهم السلام فأنّ كلامهم عليهم السلام كالقرآن ينقسم إلى محكم ومتشابه كما ورد عنهم (عليهم السلام) إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن ومحكماً كمحكمه فردوا متشابهها إلى محكمها ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا.

الوجه الثاني: أنها محمولة على التقية لموافقتها لروايات العامة ولما ذهب إليه الاشاعرة وهم جلّهم ولمخالفتها أخبار الاختيار والاستطاعة المعلومة من طريقتهم عليهم السلام وهذا مشارك لما قبله في الضعف فإن الظاهر من بعضها أنها من أسرار علومهم وكنوز أسرارهم. (في القول الثاني وهو الحمل على التقية مجال للتأمل وأي معنى للتقية في حديث يأمر الإمام فيه بالكتمان ويتوعد على إذاعته بالبلاء في النفس والمال والأهل والولد) .

الوجه الثالث: أنها كناية عما علمه الله تعالى وقدره من أختلاط المؤمن والكافر في الدنيا واستيلاء أئمة الجور وأتباعهم على أئمة الحق وعلى أنّ المؤمنين إنما يرتكبون الآثام لاستيلاء أهل الباطل عليهم وعدم تولي أئمة الحق لسياستهم فيعذرهم لذلك ويعفو عنهم ويعذب أئمة الجور وأتباعهم بتسببهم لجرائم من خالطهم مع ما يستحقون من جرائم أنفسهم.

الوجه الرابع: أنها كناية عن علمه تعالى بما هم إليه صائرون فأنه تعالى لما خلقهم مع علمه بأحوالهم فكأنه تعالى خلقهم من طينات مختلفة ولا يخفى ضعفه.

الوجه الخامس: أنها كناية عن اختلاف استعدادهم وتفاوت قابلياتهم وهذا أمر بين لا يمكن إنكاره إذ لا شبهة في إن النبي (صلى الله عليه وآله) وأبا جهل ليسا في درجة واحدة من الاستعداد والقابلية وهذا لا يستلزم سقوط التكليف فإنّ الله تعالى كلف النبي (صلى الله عليه وآله) حسبما أعطاه من الاستعداد لتحصيل الكمالات وكلف أبا جهل سبما أعطاه من ذلك ولم يكلفه ما ليس في وسعه ولم يجبره على شيء من الشر والفساد.

الوجه السادس: إن غاية ما يلزم من الخلق من الطينتين الميل والمحبة لما يقتضيه كل منهما من خير وشر بالاختيار وذلك لا يستلزم الجبر سيما بعد تصريحه (عليه السلام) بخلط الطينتين الموجب لتدافع الطبيعتين والوقوف على حد الاعتدال بحيث يصير المؤمن قادراً على السيئة والكافر قادراً على الحسنة ويؤيده قوله عليه السلام

في بعض أخبار هذا الباب فقلوب المؤمنين تحنّف إلى ما خلقوا منه وقلوب الكافرين تحن إلى ما خلقوا منه، وظاهره أنّ ذلك الخلط والمزج صار سببا لمجرد الميل لا أنه رفع القدرة والاختيار وصار علة للإجبار، ولعلّ الحكمة والمصلحة في مزج الطينتين إظهار قدرته تعالى في أخراج الكافر من المؤمن وبالعكس دفعاً لتوهم استنادهم إلى الطبايع أو رحمته تعالى في فساق المؤمنين بغفران ذنوبهم أو تعيّش المؤمنين في دولة الكافرين إذ لو لم تكن رابطة الاختلاط ولم يكن لهم رأفة وأخلاق حسنة كانوا كلهم بمنزلة الشياطين فلم يتخلص أحد من بطشهم أو لوقوع المؤمن بين الخوف والرجاء حيث لا يعلم أن الغالب فيه الخير أو الشر أو رفع العفجب عنه بفعل الطاعات أو الرجوع إليه تعالى في حفظ نفسه من المعاصي أو غير ذلك من الحكم والمصالح التي لم تدركها عقولنا القاصرة وإفهامنا الفاترة.

الوجه السابع: ما اعتمده أكثر الأصحاب وعولوا عليه في هذا الباب وهو أن ذلك منزّل على العلم الإلهي فأنه تعالى لما خلق الأرواح كلها قابلة للخير والشر وقادرة على فعلها وعلم أن بعضها يعود إلى الخير المحض وهو الإيمان وبعضها يعود إلى الشر المحض وهو الكفر باختيارها عاملها هذه المعاملة كالخلق من الطينة الطيبة أو الخبيثة فحيث علم الله من زيد أنه يختار الخير والإيمان البتة ولو لم يخلق من طينة طيبة خلقه منها ولما علم من عمرو أنه يختار الشر والكفر البتة خلقه من طينة خبيثة لطفاً بالأول وتسهيلاً عليه وإكراماً له لما علم من حسن نيته وعمله وبالعكس في الثاني وعلم الله ليس بعلة لصدور الأفعال وهذا معنى جيد تنطبق عليه أكثر أخبار الباب ويستنبط من أخبارهم (عليهم السلام) كما أشير إليه في الحديث المذكور بقوله (عليه السلام) حكاية عنه تعالى : أنا المطلع على قلوب عبادي لا أحيف ولا أظلم ولا ألزم أحداً إلا ما عرفته منه قبل أن أخلقه ويستفاد ذلك من أخبار أخر ذكرها يفضي إلى التطويل.

الوجه الثامن: إن الله سبحانه وتعالى لما خلق الأرواح قبل خلق الأبدان في عالم الذر وكلفها بتكليف حين تجردها أجج لها ناراً وأمرها بالدخول إليها والإقتحام فيها فامتثل بعضها وبادر إلى الإطاعة فكانت عليه برداً وسلاماً وأبى بعضها ولم يمتثل فندم وخسر ثم طلب الرجوع مرة أخرى فأبى ولم يمتثل أيضاً فقامت هناك الحجة وثبتت المحجة وتحقق الإيمان والكفر بالإطاعة والعصيان قبل استقرار الأرواح في الأبدان ووقع معلوم الله تعالى مطابقاً لعلمه فخلق تعالى للأرواح المطيعة مسكناً مناسباً لها وهو البدن من طينة عليين وخلق للأرواح العاصية مسكناً من طينة سجين كما خلق تعالى للمؤمن جنة وللكافر ناراً وذلك ليستقر كل واحد فيما يناسبه ويعود كل جزء إلى كله وكل فرع إلى أصله فظهر أن الخلق من الطينتين تابع للإيمان والكفر ومسبب عن العمل دون العكس فلا يلزم الجبر ولا ينافي الاختيار، ألا ترى أن الله

تعالى لما علم أن بين النبيين والمؤمنين اتصالا من وجه وانفصالا من وجه آخر لأن المؤمنين يوافقونهم في العقايد ويخالفونهم أحياناً في الأعمال لصدور المعصية منهم خلق قلوب المؤمنين من طينة النبيين وخلق أبدانهم من دون ذلك لانحطاط درجتهم وشرفهم فوضع كلاًّ في درجته وإنك إذا قررّت لعبدك المطيع بيتاً شريفاً ولعبدك العاصي بيتاً وضيعاً صح ذلك عقلاً وشرعاً ولا يصفك عاقل بالظلم والجور إذ الظلم وضع الشيء في غير موضعه وهو يلزم لو أنعكس الأمر أو وقع التساوي فبان أن الخلق من طينتين عليين وسجين تابع للطاعة والمعصية والإيمان والكفر دون العكس.

الوجه التاسع: ما صار إليه المحدّث المحقق الكاشاني في الوافي حيث قال بعد إيراد الخبر المذكور باختلاف يسير في ألفاظه ما نصه جملة القول في بيان السرّ فيه أنه قد تحقق وثبت أن كلا من العوالم الثلاثة له مدخل في خلق الإنسان وفي طينته ماودته من كل حظ ونصيب فلعل الارض الطيبة كناية عمّاله في جملة طينته من آثار عالم الملكوت الذي منه الأرواح المثالية والقوى الخيالية الفلكية المعبر عنها ((بالمدبرات أمراً)) والماء العذب عمّاله في طبيعته من أفاضات عالم الجبروت الذي منه الجواهر القدسية والأرواح العالية المجردة عن الصور المعبّر عنها ((بالسابقات سبقاً)) والأرض الخبيثة عمّاله في طينته من أجزاء عالم الملك الذي منه الأبدان العنصرية المسخرة تحت الحركات الفلكية المسخرة لما فوقها والماء الأجاج المالح الأسن عماله في طينته من تهييجات الأوهام الباطلة والأهواء المموهة الردية الحاصلة من تركيب الملك مع الملكوت مما لا أصل له ولا حقيقة ثم الصفوة من الطينة الطيبة عبارة عما غلب عليه إفاضة الجبروت من ذلك والثفل منه ما غلب عليه أثر الملكوت وكدورة الطين المنتن الخبيث عما غلب عليه طبايع عالم الملك وما يتبعه من الأهواء المضلة وإنما لم يذكر نصيب عالم الملك للأئمة (عليهم السلام) مع أنّ أبدانهم العنصرية منه لأنهم لم يتعلقوا بهذه الدنيا ولا بهذه الأجساد تعلق ركون وإخلاد فهم وإن كانوا في النشأة الفانية بأبدانهم العنصرية ولكنهم ليسوا من أهلها كما مضى بيانه، قال الصادق (عليه السلام) في حديث حفص بن غياث يا حفص ما أنزلت الدنيا من نفسي إلا بمنزلة الميتة إذا اضطررت إليها أكلت منها فلا جرم نفضوا أذيالهم منها بالكلية إذا ارتحلوا عنها ولم يبق معهم منها كدورة وإنما لم يذكر نصيب الناصب وأئمة الكفر من أفاضة عالم الجبروت مع إنّ لهم منه حظ الشعور والإدراك وغير ذلك لعدم تعلقهم به ولا ركونهم إليه ولذا تراهم تشمئز نفوسهم من سماع العلم والحكمة ويثقل عليهم فهم الأسرار والمعارف فليس لهم من ذلك العالم ((إلاَّ كَبَاسط كَفَّيه إلَى المَاء لِيَبلغَ فاه وَمَا هوَ ببَالغه وَمَا دعَاء الكَفارينَ إلاَّ في ضَلاَل)) (الرعد:١٤). ((نَسوا اللَّهَ فأَنسَاهم أَنفسَهم)) (الحشر:١٩).

فلا جرم ذهب عنهم نصيبهم من ذلك العالم حين أخلدوا إلى الأرض وأتبعوا أهواءهم فإذا جاء يوم الفصل وميّز الله الخبيث من الطيب ارتقى من غلب عليه أفاضات عالم الجبروت إلى الجبروت وأعلى الجنان والتحق بالمقربين ومن غلب عليه آثار الملكوت إلى الملكوت ومواصلة الحور والولدان والتحقق بأصحاب اليمين وبقي من غلب عليه الملك في الحسرة والثبور والهوان والتعذيب بالنيران إذ فرق الموت بينه وبين محبوباته ومشتهياته فالأشقياء وإن انتقلوا إلى نشأة من جنس نشأة الملكوت خلقت بتبعيتها بالعرض إلا أنهم يحملون معهم من الدنيا من صور أعمالهم وأخلاقهم وعقايدهم مما لا يمكن أنفكاكهم عنه مما يتأذون به ويعذبون بمجاورته من سموم وحميم وظل من يحموم ومن حيات وعقارب ذوات لدغ وسموم ومن ذهب وفضة كنزوها في دار الدنيا ولم ينفقوها في سبيل الله واشرب في قلوبهم محبتها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون (التوبة: ٣٦) ومن آلهة يعبدونها من دون الله من حجر أو خشب أو حيوان أو غيرها مما يعتقدون فيه أنه ينفعهم وهو يضرهم إذ يقول لهم: ((إنَّكم وَمَا تَعبدونَ من دون اللَّه حَصَب جَهَنَّمَ)) (الأنبياء:٩٨).

وبالجملة، المرء مع من أحب فمحبوب الأشقياء لما كان من متاع الدنيا الذي لا حقيقة له ولا أصل بل هو متاع الغرور فإذا كان يوم القيامة وبرزت حواقّ الأمر وكسد متاعهم وصار لا شيئاً محضاً فيتألمون بذلك ويتمنون الرجوع إلى الدنيا التي هي وطنهم المألوف لأنهم من أهلها ليسوا من أهل النشأة الباقية لأنهم رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فإذا فارقوها عذبوا بفراقها في نار جهنم بأعمالهم التي أحاطت بهم وجميع المعاصي والشهوات يرجع إلى متاع هذه النشأة الدنيوية ومحبتها فمن كان من أهلا عذّب بمفارقتها لا محالة ومن ليس من أهلها وإنما أبتلي بها وأرتكبها مع إيمان منه بقبحها أو خوف من الله سبحانه في إتيانها فلا جرم يندم على ارتكابها إذا رجع إلى عقله وأناب إلى ربه فتصير ندامته عليه والاعتراف بها وذل مقامه بين يدي ربه حياء منه تعالى سبباً لتنوير قلبه وهذا معنى تبديل سيئاتهم حسنات فالأشقياء إنما عذبوا بما لم يفعلوا لحنينهم إلى ذلك وشهوتهم له وعقد ضمائرهم على فعله دائماً إن تيسر لهم لانهم كانوا من أهله ومن جنسه ((وَلَو ردّوا لَعَادوا لمَا نهوا عَنه)) (الأنعام:٢٨)

والسعداء إنما لم يخلدوا في العذاب ولم يشتد عليهم العقاب بما فعلوا من القبائح لأنهم ارتكبوا على كره من عقولهم وخوف من ربهم لأنهم لم يكونوا من أهلها ولا من جنسها بل أثيبوا بما لم يفعلوا من الخيرات لحنينهم إليه وعزمهم عليه وعقد ضمائرهم على فعله دائماً إن تيسر لهم فإنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل أمريء ما نوى. وإنما ينوي كل ما يناسب طينته وتقتضيه جبلته كما قال

الله سبحانه: ((قل كلٌّ يَعمَل عَلَى شَاكلَته)) (الأسراء:٨٢). ولهذا ورد في الحديث إن كلاً من أهل الجنة والنار إنما يخلدون فيما يخلدون على نياتهم وإنما يعذب بعض السعداء حين خروجهم من الدنيا بسبب مفارقة ما مزج بطينتهم من طينة الأشقياء مما أنسوا به قليلاً وألفوه بسبب ابتلائهم به ما داموا في الدنيا.

وروي الصدوق(ره) في اعتقاداته مرسلاً أنه لا يصيب أحداً من أهل التوحيد ألم في النار إذا دخلوها وإنما تصيبهم الآلام عند الخروج منها فتكون تلك الآلام جزاءً بما كسبت أيديهم وما الله بظلام للعبيد.(انتهى كلامه رفع مقامه).

وينقل السيد الطيب الموسوي الجزائري في تعليقته على تفسير علي بن ابراهيم القمي بعض اخر من الاقوال وهي :

الأول : ما صار إليه علم الهدى السيد مرتضى (رح) فإنه قد استراح بالقول بأنها اخبار آحاد مخالفة للكتاب والاجماع فوجب ردها ، فلذلك طرحها كما هو مذهبه في اخبار الآحاد أينما وردت ، ذلك لان الكتاب والاجماع قد دلا على أن صدور الحسنة والسيئة إنما هو باختيار العبد وليس فيه مدخل للطينة بوجه من الوجوه .

والثاني : ما ذهب إليه ابن إدريس (رح) من أنها اخبار متشابهة يجب الوقوف عندها وتسليم أمرها إليهم عليهم السلام .

والثالث : ما صار إليه بعض المحدثين من حملها على المجاز والكناية كما يقال في العرف لمن أسدي عرفه إلى عباد الله وحسن خلقه هذا رجل قد عجنت طينته بفعل الخير وحب الكرم والتقوى .

والرابع : وهو المشهور في تأويل هذه الأخبار وما ضاهاها مما ظاهره الجبر ونفي الاختيار من أنه منزل على العلم الإلهي ، فإنه سبحانه قد علم في الأزل أحوال الخلق في الأبد وما يأتونه وما يذرونه بالاختيار منهم فلما علم منهم هذه الأحوال وانها تقع باختيارهم عاملهم بهذه المعاملة كالخلق من الطينة الخبيثة أو الطينة الطيبة وحينئذ كتبت الشقاوة والسعادة في الناس قبل ان يجيئوا في حيز الوجود ، وكما أن العلم بان زيدا اسود وبكرا البيض ليس علة للسواد والبياض الموجودين فيهما كذلك علم الله تعالى بكون زيد سعيدا أو شقيا لا يكون علة للسعادة والشقاوة فيه بل إنهما مستندتان إليه .

الخامس : وهو ألطف الوجوه ما قال غواص بحار الاخبار ، وطلاع جواهرها عن الأستار ، جدنا السيد الجزائري رحمه الله في أنواره من أن خلق الأرواح قد كان قبل خلق عالم الذر ، وقد أجج سبحانه نارا وكلف تلك الأرواح بالدخول ، كما سيأتي تفصيله عند تفسير الآية " وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم " في هذا الكتاب

فمنهم من بادر إلى الامتثال ومنهم من تأخر عنه ولم يأت به ، فمن هناك جاء الايمان والكفر ولكن بالاختيار ، فلما أراد سبحانه ان يخلق لتلك الأرواح أبدانا تتعلق لكل نوع من الأرواح نوعا مناسبا له من الأبدان فيكون ما صنع بها سبحانه جزاءا لذلك التكليف السابق ، نعم لما مزج الطينتين اثر ذلك المزج في قبول الاعمال الحسنة وضدها ، هذا ما قيل في هذه المسألة .

تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي - ج ١ - هامش ص ٢٢٦ – ٢٢٧

وبعد الاطلاع على هذه الاقوال لا اريد ان ادخل في مناقشتها وبيان النظر والخلل في اغلب تلك الاقوال، وانما اترك ذلك لما سيتضح بعد ذلك في مطاوي الكلام عما هو المختار منها وما هو الصحيح حسب نظرنا، والاخبار كما علمنا كثيرة جدا والتفاصيل التي واردة فيها اكثر وانا لا اريد ان اتعرض الى كل تلك الاخبار ولا الى كل التفاصيل الواردة فيها، وانما سأكتفي بالتعرض لخبر العلل وهو اخر خبر ، فانه جامع لاكثر مضامين الاخبار وفيه من اسرارهم عليهم السلام ما يحتاج الى ارجاعه الى اصوله وقواعده عقلا ونقلا ، وهو وان كان من حيث السند ضعيف لكن مضامينه تشهد على صحته ، وفقراته موافقة للكتاب العزيز والسنة الصحيحة فيطمأن بصدوره عنهم عليهم افضل الصلاة والسلام

ورد في صدر الرواية عن أبي اسحاق الليثي قال :
قلت لابي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام يابن رسول الله اخبرني عن المؤمن المستبصر إذا بلغ في المعرفة وكمل هل يزنى ؟ قال : اللهم لا ، قلت : فيلوط ؟ قال : اللهم لا ، قلت : فيسرق ؟ قال : لا ، قلت : فيشرب الخمر ؟ قال : لا ، قلت : فيأتي بكبيرة من هذه الكبائر أو فاحشة من هذه الفواحش ؟ قال : لا قلت : فيذنب ذنبا ؟ قال : نعم هو مؤمن مذنب ملم ، قلت ما معنى ملم قال : الملم بالذنب لا يلزمه ولا يصير عليه .

كلام في الايمان

ابتدأ ابو اسحاق سؤاله عن المؤمن اذا تحقق بالايمان وكمال المعرفة ما هي اثار ذلك الايمان هل يمنعه عن الوقوع في مخالفة المولى او الايمان شيء والمخالفة شيء اخر ؟ فلا بد من البحث في الايمان لانه مهم جدا وتترتب عليه نتائج مهمة ، وهذه النتائج تختلف باختلاف معنى الايمان ، لان هناك خلاف في تحديد معنى الايمان بين علماء المسلمين وحتى بين علمائنا ، فلا بد من عرض موجز لتلك الاقول حتى تتضح لنا النتائج .
الايمان لغة هو التصديق الذي يساوي عقد القلب ، وهذا لا خلاف فيه ولا يؤثر في ترتيب النتائج .

اما اصطلاحا فهو عام وخاص ، والعام هو التصديق القلبي بما جاء به النبي الاكرم (ص) فهل يكفي هذا في ان يكون المصدق قلبا بما جاء به النبي (ص) مؤمنا او لا يكفي ؟
هناك خلاف في تحديد هذا المعنى العام هل هو التصديق بالنبي (ص) فقط او التصديق مع الاقرار باللسان ، او هما باضافة العمل ؟
يقول ابن حزم في المحلى :
فنظرنا في ذلك فوجدنا الناس في تفسير لفظة الايمان قد افترقوا على اربعة أقوال فقال اهل الحق :
الايمان اسم واقع على ثلاثة معان أحدها العقد بالقلب ، والآخر النطق باللسان ، والثالث عمل بجميع الطاعات فرضها ونفلها واجتناب المحرمات .
وقالت طائفة : مخطئة ان الايمان اسم واقع على معنيين وهما العقد بالقلب والنطق باللسان فقط وأن أعمال الطاعات واجتناب المحرمات انما هي شرائع الايمان وليست ايمانا ، وهذه مقالة وان كانت فاسدة فصاحبها لا يكفر .
وقالت طائفتان قولين خرجا بهما إلى الكفر صراحا :
احدهما جهم بن صفوان السمرقندي ومن قلده وأتم به فانهم قالوا الايمان هو التصديق بالقلب فقط وان اعلن الكفر وجحد النبوة وصرح بالتثليث وعبد الصليب في دار الاسلام دون تقية .
والآخر محمد بن كرام السجستاني ومن اتبعه واقتدى به فانهم قالوا الايمان التصديق باللسان فقط وان اعتقد الكفر بقلبه .
فلزم الطائفة الاولى ان ابليس مؤمن ، وأن اليهود والنصارى الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمنون أولياء الله تعالى من أهل الجنة لان كل هؤلاء عرفوا الله تعالى بقلوبهم وعرفوا صحة نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم بقلوبهم وجدوه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل أو أن يكذب الله تعالى في أخباره بصحة علم ابليس بالله تعالى وبنبوة الانبياء عليهم السلام .
ولزم الطائفة الثانية ان المنافقين الذين شهد الله تعالى بانهم من أهل النار مؤمنون اولياء الله تعالى من أهل الجنة وهذا كفر مجرد ، وكلا القولين خرق للاجماع ومخالفة لاهل الاسلام . - المحلى - ابن حزم ج ١١ ص ١٢١
ويقول الشيخ الطوسي في الاقصاد :
وفي المرجئة من قال : الايمان هو التصديق باللسان خاصة وكذلك الكفر هو الجحود باللسان ، والفسق هو كل ما خرج به عن طاعة الله تعالى إلى معصيته ، سواء كان صغيرا أو كبيرا . وفيهم من ذهب إلى أن الايمان هو التصديق بالقلب واللسان معا ، والكفر هو الجحود بهما.
وقالت المعتزلة : الايمان اسم للطاعات ، ومنهم من جعل النوافل والفرائض من الايمان ، ومنهم من قال النوافل خارجة عن الايمان . والاسلام والدين عندهم شئ واحد ، والفسق عندهم عبارة عن كل معصية يستحق بها العقاب ، والصغائر التي تقع عندهم مكفرة لا تسمى فسقا . والكفر عندهم هو ما يستحق به عقاب عظيم ،

وأجريت على فاعله أحكام مخصوصة ، فمرتكب الكبيرة عندهم ليس بمؤمن ولا كافر بل هو فاسق .
وقالت الخوارج قريب من قول المعتزلة الا أنهم لا يسمون الكبائر كلها كفرا ، وفيهم من يسميها شركا ، والفضيلية منهم يسمي كل معصية كفرا صغيرة كانت أو كبيرة .
والزيدية من كان منهم على مذهب الناصر يسمون الكبائر كفر نعمة ، والباقون يذهبون مذهب المعتزلة . - الاقتصاد- الشيخ الطوسي ص ١٤٠
هذا هو المعنى العام لانه يطلق على الشيعة وغيرهم ، وهو وان دققنا النظر في انه لايشمل غير الشيعة - لان الايمان هو التصديق بما جاء به النبي (ص) بغض النظر عن الاقرار والعمل ومما جاء به النبي (ص) هو التولي لاهلي بيته والتبري من اعدائهم والاخذ عنهم وغير الشيعة لم يصدقوا النبي (ص) بهذا ، فهم خارجون عن الايمان - الا اننا نغض النظر عن ذلك .
اما المعنى الخاص فهو يطلق على الامامية من الشيعة خاصة يعني من يؤمنون بأمامة الائمة الاثنى عشر ، وغيرهم لايسمى مؤمنا بل مسلم ، وهذا المعنى مجمع عليه بين الامامية ، وعليه نصوص الروايات كما في زيارة امير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير وهي بسند معتبر عن الامام الهادي عليه السلام جاء فيها :
اَشْهَدُ يا اَميرَ الْمُؤْمِنينَ اَنَّ الشّآكَّ فيكَ ما آمَنَ بِالرَّسُولِ الأمينِ، وَاَنَّ الْعادِلَ بِكَ غَيْرَكَ عانِدٌ عَنِ الدّينِ الْقَويمِ الَّذِي ارْتَضاهُ لَنا رَبُّ الْعالَمينَ، وَاَكْمَلَهُ بِوِلايَتِكَ يَوْمَ الْغَديرِ . (مفاتيح الجنان ص٤٢٨)
ولكن وقع الخلاف بين علمائنا في ان الايمان هل هو التصديق والاعتقاد فقط ، او هو مع الاقرار والعمل ؟
ذهب شيخ الطائفة الطوسي قدس الله نفسه الى القول بان الايمان هو اعتقاد في القلب ، والعمل غير داخل فيه .
قال في الاقتصاد : الايمان هو التصديق بالقلب ، ولا اعتبار بما يجري على اللسان ، وكل من كان عارفا بالله وبنبيه وبكل ما أوجب الله عليه معرفته مقرا بذلك مصدقا به فهو مؤمن . والكفر نقيض ذلك ، وهو الجحود بالقلب دون اللسان مما أوجب الله تعالى عليه المعرفة به ، ويعلم بدليل شرعي أنه يستحق العقاب الدائم الكثير .
واستدل على هذا القول بهذا الدليل وهو:
والذي يدل على ما قلناه أولا هو أن الايمان في اللغة هو التصديق ، ولا يسمون أفعال الجوارح ايمانا ، ولا خلاف بينهم فيه . ويدل عليه أيضا قولهم " فلان يؤمن بكذا وكذا وفلان لا يؤمن بكذا " وقال تعالى " يؤمنون بالجبت والطاغوت " قال " وما أنت بمؤمن لنا " أي بمصدق ، وإذا كان فائدة هذه اللفظة في اللغة ما قلناه وجب اطلاق ذلك عليها الا أن يمنع مانع ، ومن ادعى الانتقال فعليه الدلالة - الى ان قال - فعلى موجب هذا يلزم من ادعى انتقال هذه اللفظة إلى أفعال الجوارح أن يدل عليه .
وليس لاحد أن يقول : ان العرف لا يعرف التصديق فيه الا بالقول ، فكيف حملتموه على ما يختص القلب ؟ قلنا : العرف يعرف بالتصديق باللسان والقلب ، لانهم يصفون الاخرس بأنه مؤمن ، وكذلك الساكت ، ويقولون " فلان يصدق بكذا وكذا وفلان لا يصدق " ويريدون ما يرجع إلى القلب ، فلم يخرج بما قلناه عن موجب

اللغة . وانما منعنا اطلاقه في المصدق باللسان أنه لو جاز ذلك لوجب تسميته بالايمان وان علم جحوده بالقلب ، والاجماع مانع من ذلك .

-الاقتصاد- الشيخ الطوسي ص ١٤٠

وتبعه على ذلك الشهيد الثاني في مسالك الافهام حيث قال :

والمشهور - وهو الاصح - عدم اعتباره - أي العمل - وإليه ذهب الشيخ - رحمه الله - في التبيان أيضا ، لما تحقق في الكلام من أن الايمان هو التصديق بالقلب والاقرار باللسان على الوجه السابق وأن العمل ليس بجزء منه ولا شرط .

- مسالك الأفهام - الشهيد الثاني ج ٥ ص ٣٣٧

وكذلك عن ايضاح الفوائد لابن العلامة قال :

والحق عندي أن الايمان هو التصديق بالقلب واللسان وأن العمل ليس بجزء ولا شرط فيه وهذا هو اختيار والدي المصنف وأكثر المتكلمين وشيخنا نجم الدين أبو القاسم بن سعيد واول كلام الشيخ بعدم دخول الفاسق في لفظ المؤمن عند الإطلاق في العرف . - إيضاح الفوائد - ابن العلامة ج ٢ ص ٣٨٦

وذهب صاحب الحدائق وجمع من المتقدمين على ان الايمان هو مركب من الامور الثلاثة واشكل على من ذهب انه اعتقاد مع اقرار باللسان حيث قال :

لا يخفى على من راجع الاخبار التي هي العمدة في الايراد و الاصدار أنها دائرة بين قسمين ، فقسم منها اشتمل على أن الايمان عبارة عن التصديق والاقرار ، وهذه الاخبار وردت في مقام الفرق بين الايمان والاسلام ، وأن الايمان أخص مطلقا " . وقسم منها ورد بأنه عبارة عما ذكر مع اشتماله على العمل ، وصرحت بأنه اقرار باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل الاركان ، ولهذه الاخبار مؤيدات من الاخبار أيضا ، مثل الاخبار الدالة على تقسيم الناس إلى ثلاث فرق ، الراجعة إلى ست فرق ، مثل حديث الطيار المروي في الكافي قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : الناس على ست فرق ، يؤولون كلهم إلى ثلاث فرق : الايمان والكفر والضلال : وهم أهل الوعدين الذين وعدهم الله تعالى الجنة والنار ، المؤمنون والكافرون ، والمستضعفون والمرجون لامر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، والمعترفون بذنوبهم خلطوا عملا " صالحا " وآخر سيئا ، وأهل الاعراف " ، ومرجع ذلك إلى اثبات منزلة بين الكفر والايمان ، وهو مبني على أخذ الافعال في الاعمال ، وهؤلاء بمقتضى النصوص من المسلمين ، لا بالمعنى المشهور الذي يدخل فيه المنافقون ، بل أخص منه .

إذا عرفت ذلك فاعلم أنه لا منافاة بين هذه الاخبار ، إذ غاية الاخبار الاول أنها مطلقة والثانية مقيدة ، وطريق الجمع حمل الاطلاق في تلك الاخبار على ما دلت عليه هذه من أخذ الاعمال ، وإلا فان اطراحها من غير موجب لا معنى له سيما مع ما عرفت من تأيدها بغيرها . وبذلك يظهر لك أن ما اختاروه في علم الكلام من أن الايمان عبارة عما ذكروه ، لا أعرف له وجها " وجيها " ، بل المفهوم من الاخبار بعد ضم بعضها إلى بعض هو ما ذكرناه ، من أنه مركب من الثلاثة المذكورة ،

ثم ان في كلامه اشارة ظاهرة إلى أن مذهب السلف أعني متقدمي الاصحاب هو القول بما اخترناه ، والترجيح لما رجحناه ، والعجب أنه مع اعترافه بذلك وأنه قد

ورد في كثير من الاخبار كيف خالفه ، وخرج عنه من غير حجة واضحة ، سوى ما أحاله على علم الكلام .
وفيه أن ما تحقق في علم الكلام ان كان مستفادا من الاخبار فقد عرفت أنه ليس كذلك لما ذكرناه ، وان كان من غيرها فلا عبرة به ، ولا عمل عليه ، والله العالم .
- الحدائق الناضرة - المحقق البحراني ج ٢٢ ص ٢٠٤
ولم يرتضي صاحب العروة الوثقى الجمع بين الطائفتين من الروايات بحمل الخاص على العام ، وانما ذهب الى ان الروايات التي تذكر دخل العمل في الايمان انها تريد الفرد الاكمل من الايمان ، لا انها تخصص الروايات التي تقول ان الايمان هو التصديق مع الاقرار ، فحملها على الفرد الاكمل اولى من التخصيص قال قدس الله ننفسه :
وفيه ، ان جملة اخرى تدل على انه عبارة - عن الاقرار باللسان والتصديق بالجنان - والجمع بحمل الاولى على الفرد الاكمل أولى من الجمع بتقييد الثانية بالا ولى ، فالاقوى ما عن المشهور ، وعلى أي حال لا ينبغي الاشكال في اعتبار الاعتقاد بالائمة الاثنى عشر فيه عندنا كما هو المستفاد من الاخبار . - تكملة العروة الوثقى - السيد اليزدي ج ١ ص ٢١٧
وكذلك صاحب الجواهر حيث قال :
لعدم الدليل عل اعتبار ذلك - أي العمل - في الايمان بل ظاهر الادلة خلافه بل استقر المذهب الآن على ذلك ، بل هو المحكي عن التبيان للشيخ قائلا أنه كذلك عندنا ، مشعرا بالاتفاق عليه ، و عن الحلبي والديلمي وكافة المتأخرين .
- جواهر الكلام - الشيخ الجواهري ج ٢٨ ص ٣٨
والنتيجة من ذلك كله ان المشهور عند الامامية ، بل ماستقر عليه المذهب كما عن الشيخ الجواهري هو ان الايمان اعتقاد بالقلب واقرار والعمل غير داخل فيه .

تمام الايمان وكماله
بعد ان تبين لنا معنى الايمان اعتقاد قلبي أي هو حالة او ملكة من احوال القلب وان العمل الجوارحي غير داخل في حقيقته ولكن هناك تفاعل بين الايمان وبين العمل بمعنى ان الايمان قد يزيد وينقص بسبب الاعمال وقد يؤثر الايمان بزيادة العمل ونقصانه كما يقول الله تعالى : وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ [التوبة :١٢٥-١٢٤]
فتارة يوصف الايمان بأنه تام واخرى يوصف بانه كامل ويقابل التمام والكمال النقص فما هو المراد من التمام والكمال وما هو الفرق بينهما؟
نحن نورد ماذكره العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان قال قدس الله نفسه :
الفرق بين التمام و الكمال حيث إن الأول انتهاء وجود ما لا يتألف من أجزاء ذوات آثار و الثاني انتهاء وجود ما لكل من أجزائه أثر مستقل وحده ...وتمام الشيء هو الجزء الذي بانضمامه إلى سائر أجزاء الشيء يكون الشيء هو هو، و يترتب عليه آثاره المطلوبة منه فالإتمام هو ضم

تمام الشيء إليه بعد الشروع في بعض أجزائه، و الكمال هو حال أو وصف أو أمر إذا وجده الشيء ترتب عليه من الأثر بعد تمامه ما لا يترتب عليه لو لا الكمال، فانضمام أجزاء الإنسان بعضها إلى بعض هو تمامه، و كونه إنسانا عالما أو شجاعا أو عفيفا كماله، و ربما يستعمل التمام مقام الكمال بالاستعارة بدعوى كون الوصف الزائد على الشيء داخلا فيه اهتماما بأمره و شأنه .
(تفسير الميزان ج٢ ص٤٨-٧٥)

وعلى هذا الاساس نقول ان الايمان ملكة نفسانية محلها القلب والملكات النفسانية بسيطة والايمان وان كان لمتعلقه اجزاء من قبيل الايمان بالله واليوم الاخر والنبيين ولكن هذه الاجزاء ليس لكل واحد منها اثر في تحقق الايمان مالم تجتمع فيكون اثرها وحداني وراء الاجزاء لذا نرى ان الايمان بالله وحده لاينفع ولا الايمان بالرسول لوحده بل لابد من الايمان بما لايتم الايمان الابه فكما ان من لم يؤمن بالنبي ص او احد الانبياء السابقين على النبي ص ليس بمؤمن فكذلك الحال في من لايؤمن بولاية امير المؤمنين عليه السلام و هذا المعنى قد يستفاد من قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [المائدة : ٦٧] فقد ربط الله جميع رسالة النبي ص بهذا الامر و هو ولاية امير المؤمنين عليه السلام فأذا كانت الرسالة لاغية اذا ما لم يتم تبليغ هذا الامر فكذلك حال الايمان يكون لاغيا بالنسبة الى كل ماجاء به النبي ص اذا لم يتم الايمان بولاية امير المؤمنين عليه السلام ، والنصوص في ذلك كثيرة من قبيل ما ورد في زيارة الامير عليه السلام في يوم الغدير و هي من حيث السند معتبرة اَشْهَدُ يا اَميرَ الْمُؤْمِنينَ اَنَّ الشّآكَّ فيكَ ما آمَنَ بِالرَّسُولِ الأمينِ، وَاَنَّ الْعادِلَ بِكَ غَيْرَكَ عانِدٌ عَنِ الدّينِ الْقَويمِ الَّذِي ارْتَضاهُ لَنا رَبُّ الْعالَمينَ، وَاَكْمَلَهُ بِوِلايَتِكَ يَوْمَ الْغَديرِ .
(مفاتيح الجنان ص٤٢٨) ونصوص غيرها كثيرة جدا ، لذا ترى ان الامامية لايطلقون لفظ المؤمن على غير الموالي لاهل البيت عليهم السلام .

وبعد ان يتم الايمان اما ان يكون كاملا او ناقصا أي يترتب عليه من الاثر ما لايترتب على تمامه اذا لم يكن كاملا ، فتمام الايمان له اثر وكمال الايمان له اثر وراء اثر التمام .

اذا اتضح هذا نقول ان الايمان بالولاية من تمام الايمان أي ان من لايؤمن بها هو غير مؤمن اصلا لان الايمان امر وحداني لايتبعض اما ان يتحقق بتمامه واما ان يزول بتمامه ، فاذا تحقق بتمامه اما يكون كاملا واما ناقصا وكمال الايمان هو الاتيان بالواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات ، فالعمل غير داخل في حقيقة الايمان كما بينا ذلك وانما هو من كمال الايمان ، فالمؤمن قد يلتزم بالعمل وقد لايلتزم واذا التزم قد يلتزم بألاتيان ببعض الواجبات وترك بعض المحرمات وقد يلتزم بجميعها فيكون ايمانه كامل او اكمل لان في الكمال تفاوت من حيث الالتزام .

اما معنى المؤمن المستبصر فهو كما عن الفروق اللغوية هو :
المستبصر هو العالم بالشئ بعد تطلب العلم كأنه طلب الابصار مثل المستفهم والمستخبر المتطلب للفهم والخبر ، ولهذا يقال إن الله بصير ولا يقال مستبصر ، ويجوز أن يقال إن الاستبصار هو أن يتضح له الامر حتى كأنه يبصره ولا يوصف الله تعالى به لان الاتضاح لا يكون إلا بعد الخفاء . –الفروق اللغوية- ابو هلال العسكري ص١٠٢
فالمراد من المؤمن المستبصر هو العالم بالعقيدة الحقة على وفق البينات ،هذا هو المراد في الرواية ، فهو وان كان يطلق على من لم يكن اماميا ثم اصبح اماميا الا انه ليس المراد هنا هذا المعنى اي المخالف الذي اتضح له الحق بخصوصه ، بل الاعم منه ومن كان على الحق من اول الامر .

وبناءا على ما ذكرنا من ان الايمان هو الاعتقاد والاقرار ، يتضح جواب الامام عليه السلام حينما اجاب بان المؤمن لا يزني ولا يلوط ولا يسرق ولا يشرب الخمر ولا يأتي بكبيرة من الكبائر ، فأن جوابه عليه السلام كان طبقا للسؤال ومحور السؤال كان عن المؤمن المستبصر اذا بلغ في المعرفة وكمل ، فمن كان بهذه الاوصاف الكبائر بعيدة عنه بعد المشرق عن المغرب .
نعم ممكن يرتكب صغائر او ما يسمى باللمم ، ومع ذلك لا يصر على هذه الصغائر كما بينه الامام عليه السلام للسائل .
وقبل الانتقال الى بيان سبب تعجب السائل ، اريد ان اذكر شاهدا على هذا المقطع من الروايات ، فاني ذكرت ان هذه الرواية وان كانت ضعيفة السند ولكنها عالية المضمون ويطمئن بصدورها عن المعصوم ، وانا احاول في كثرمن فقرة من فقراتها ان اذكر شاهد صدق على الفقرة المذكورة ، والشاهد على هذه الفقرة هو ماذكره ابن حزم في المحلى قال :
ومن طريق أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هرون عن محمد بن اسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن ابيه قال : كنا عند عائشة فمر جلبة على بابها فسمعت الصوت فقالت : ماهذا ؟ فقالوا : رجل ضرب في الخمر فقالت : سبحان الله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب - يعني الخمر - حين يشرب وهو مؤمن فاياكم واياكم "
قال أبو محمد رحمه الله : هذا أثر صحيح ثابت لا مغمز فيه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم عائشة أم المؤمنين . وابن عباس . وأبو هريرة بالاسانيد التامة التي ذكرنا ، ورواه عن أبي هريرة سعيد بن المسيب . وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام . وأبو سلمة . وحميد ابنا عبد الرحمن بن عوف . وعطاء بن يسار أخو سليمان بن يسار . وعطاء بن أبي رباح . وهمام بن منبه ، ورواه عن ابن عباس عكرمة ، وعن أم المؤمنين عباد بن عبد الله ، ورواه عن هؤلاء الناس فهو نقل تواتر يوجب صحة العلم ، وذكر فيه كما أوردنا القتل . والزنا . والخمر . والسرقة . والنهبة . والغلول . - المحلى - ابن حزم ج ١١ ص ١٢٠

قال : فقلت سبحان الله ما اعجب هذا لا يزنى ولا يلوط ولا يسرق ولا يشرب الخمر ولا يأتي بكبيرة من الكبائر ولا فاحشة ، فقال : لا عجب من امر الله ، ان الله تعالى يفعل ما يشاء ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .
ليس اعتباطا ان يأتي الامام عليه السلام بهذه الاية المباركة فأن فهمها بصورة صحيحة يلقي الضوء على الجواب الذي يريد ان يقدمه الامام عليه السلام للسائل ، وهذه الاية وقع الكلام فيها بين فرق المسلمين كل ذهب في فهمها الى مذهب ، وخير بيان وجدته في تفسير الاية والوقوف على حقيقتها هو ماذكره العلامة الطباطبائي في تفسيره القيم الميزان تحت هذا العنوان :

كلام في معنى حقيقة فعله وحكمه تعالى
فعله وحكمه تعالى نفس الحق لا مطابق للحق موافق له ، بيان ذلك أن الشئ انما يكون حقا إذا كان ثابتا في الخارج واقعا في الأعيان من غير أن يختلقه وهم أو يصنعه ذهن كالانسان الذي هو أحد الموجودات الخارجية والأرض التي يعيش عليها والنبات والحيوانات التي يغتذى ، بها والخبر انما يكون حقا إذا طابق الواقع الثابت في نفسه مستقلا عن ادراكنا والحكم والقضاء انما يكون حقا إذا وافق السنة الجارية في الكون فإذا أمر الامر بشئ أو قضى القاضي بشئ فإنما يكون حكم هذا وقضاء ذاك حقا مطلقا إذا وأفق المصلحة المطلقة المأخوذة من السنة الجارية في الكون ، ويكون حقا نسبيا إذا وأفق المصلحة النسبية المأخوذة من سنة الكون بالنسبة إلى بعض أجزائه من غير نظر إلى النظام العام العالمي .
فإذا أمرنا آمر بالتزام العدل أو اجتناب الظلم فإنما يعد ذلك حقا لان نظام الكون يهدى الأشياء إلى سعادتها وخيرها ، وقد قضى على الانسان ان يعيش اجتماعيا ، وقضى على كل مجتمع مركب من اجزاء ان يتلائم اجزاؤه ولا يزاحم بعضها بعضا ، ولا يفسد طرف منه طرفا ، حتى ينال ما قسم له من سعادة الوجود ، ويتوزع ذلك بين اجزائه المجتمعين ، فمصلحة هذا النوع المطلقة هي سعادته في الحياة ، ويطابقها الامر بالعدل والنهى عن الظلم فكل منهما حكم حق ، ولا يطابقها الامر بالظلم والنهى عن العدل فهما من الباطل ، والتوحيد حق لأنه يهدى إلى سعادة الانسان في حياته الحقيقية ، والشرك باطل لأنه يجر الانسان إلى شقاء مهلك وعذاب خالد .
وكذلك القضاء بين متخاصمين انما يكون حقا إذا وافق الحكم المشروع المراعى فيه المصلحة الانسانية المطلقة أو مصلحة قوم خاص أو أمة خاصة ، والمصلحة الحقيقية - كما - عرفت - مأخوذه من السنة الجارية في الكون مطلقا أو نسبيا .
فقد تبين ان الحق ايا ما كان انما هو مأخوذ من الكون الخارجي والنظام المنبسط عليه والسنة الجارية فيه ، ولا ريب ان الكون والوجود مع ما له من النظام والسنن والنواميس فعله سبحانه منه يبتدئ وبه يقوم ، واليه ينتهى ، فالحق ايا ما كان والمصلحة كيفما فرضت يتبعان فعله ويقتفيان اثره ، ويثبتان بالاستناد إليه لا انه تعالى يتبع الحق في فعله ويقفو اثره فهو تعالى حق بذاته وكل ما سواه حق به .
ونحن معاشر الآدميين لما كنا نطلب بأفعالنا الاختيارية تتميم نواقص وجودنا ورفع حوائج حياتنا ، وكانت أفعالنا ربما طابقت سعادتنا المطلوبة لنا وربما خالفت

اضطررنا في ذلك إلى رعاية جانب المصلحة التي نذعن بأنها مصلحة أي فيها صلاح حالنا وسعادة جدنا وأدى ذلك إلى الاذعان بقوانين جارية وأحكام عامة ، واعتبار شرائع وسنن اجتماعية لازمة المراعاة واجبة الاتباع لموافاتها المصلحة الانسانية وموافقتها السعادة المطلوبة .

وأدى ذلك إلى الاذعان بأن للمصالح والمفاسد ثبوتا واقعيا وظروفا من التحقق منحازا عن العالمين : - الذهن والخارج - منعزلا عن الدارين : - العلم والعين - وهى تؤثر أثرها في خارج الكون بالموافقة والمخالفة فإذا طابقت أفعالنا أو أحكامنا المصالح الواقعية الثابتة في نفس الامر ظهرت فيها المصلحة وانتهت إلى السعادة ، وإذا خالفتها وطابقت المفاسد الواقعية الحقيقية ساقتنا إلى كل ضر وشر ، وهذا النحو من الثبوت ثبوت واقعى غير قابل للزوال والتغير فللمصالح والمفاسد الواقعية وكذا لما معها من الصفات الداعية إلى الفعل والترك كالحسن والقبح وكذا للأحكام المنبعثة منها كوجوب الفعل والترك مثلا لكل ذلك ثبوت واقعى يتأبى عن الفناء والبطلان ، ويمتنع عن التغير والتبدل وهى حاكمة فينا باعثة لنا إلى أفعال كذا أو صارفة ، والعقل ينال هذه الأمور النفس الامرية كما ينال سائر الأمور الكونية .

ثم لما وجدوا ان الاحكام والشرائع الإلهية لا تفارق الاحكام والقوانين الانسانية المجعولة في المجتمعات من جهة معنى الحكم ، وكذا أفعاله تعالى لا تختلف مع أفعالنا من جهة معنى الفعل حكموا بأن الأحكام الإلهية والافعال المنسوبة إلى الله سبحانه كأفعالنا في الانطباق على المصالح الواقعية والاتصاف بصفة الحسن ، فالمصالح الواقعية تأثير في أفعاله تعالى وحكومة على احكامه وخاصة من حيث إنه تعالى عالم بحقائق الأمور بصير بمصالح عباده .

وهذا كله من إفراط الرأي ، وقد عرفت مما تقدم ان هذه احكام وعلوم اعتبارية غير حقيقية اضطرنا إلى اعتبارها وجعلها الحوائج الطبيعية وضرورة الحياة الاجتماعية لا خبر عنها في الخارج عن ظرف الاجتماع ، ولا قيمة لها إلا أنها أمور متقررة في ظرف الوضع والاعتبار يميز بها الانسان ما ينفعه من الأعمال مما يضره ، وما يصلح شأنه مما يفسده ، وما يسعده مما يشقيه .

وقد ساقت العصبية المذهبية الطائفتين الباحثتين عن المعارف الدينية في صدر الاسلام إلى تقابل عجيب بالافراط والتفريط في هذا المقام فطائفة - وهم المفوضة - أثبتوا مصالح ومفاسد نفس أمرية وحسنا وقبحا واقعيين هي ثابتة ثبوتا أزليا أبديا غير متغير ولا متبدل وهى حاكمة على الله سبحانه بالايجاب والتحريم ، مؤثرة في أفعاله تكوينا وتشريعا بالحظر والترخيص فأخرجوه تعالى عن سلطانه ، وأبطلوا اطلاق ملكه .

وطائفة - وهم المجبرة - نفت ذلك كله ، وأصرت على أن الحسن في الشئ إنما هو تعلق الامر به ، والقبح تعلق النهى به ، ولا غرض ولا غاية في تكوين ولا تشريع ، وأن الانسان لا يملك من فعله شيئا ولا قدرة قبل الفعل عليه كما أن الطائفة الأولى ذهبت إلى أن الفعل مخلوق للانسان وأن الله سبحانه لا يملك من فعل الانسان شيئا ولا تتعلق به قدرته .

والقولان - كما ترى - إفراط وتفريط فلا هذا ولا ذاك بل حقيقة الامر أن هذه ونظائرها أمور اعتبارية وضعية لها أصل حقيقي وهوان الانسان - ونظيره سائر الحيوانات الاجتماعية كل على قدره في مسيره الحيوي الذي لا يريد به إلا ابقاء الحياة ونيل السعادة ناقص محتاج يرفع جهات نقصه وحاجته بأعماله الاجتماعية الصادرة عن الشعور والإرادة فاضطره ذلك إلى أن يصف أعماله والأمور التي تتعلق بها أعماله في طريق الوصول إلى غاية سعادته والتجنب عن شقائه بأوصاف الأمور الخارجية من حسن وقبح ووجوب وحرمة وجواز وملك وحق وغير ذلك ، ويجرى فيها نواميس الأسباب والمسببات فيضع في إثر ذلك قوانين عامة وخاصة ، ويعتقد لذلك نوعا من الثبوت الذي يعتقده للأمور الحقيقية حتى يتم له بذلك أمر حياته الاجتماعية .

فترانا نعتقد أن العدل حسن كما أن الورد حسن جميل ، والظلم قبيح شأنه كما أن الميتة المنتنة كذلك ، وان المال لنا كما أن أعضاءنا لنا ، والعمل الكذائي واجب كما أن الآثار واجبة لعللها التامة ، وعلى هذا القياس ، ولذلك ترى أن هذه الآراء تختلف بين الأقوام إذا اختلفت مقاصد مجتمعاتهم فترى هؤلاء يحسنون ما يقبحه آخرون وتجد طائفة تلغى من الاحكام ما تعتبره أخرى ، وتلفى أمة تنكر ما تعرفه أمة أو تعجبها ما يستشنعه غيرها ، وربما تترك سنة مأخوذة ثم تؤخذ ثم تترك في أمه واحدة على نسق الدوران بحسب مراحل السير الاجتماعي ومساسه بلوازم الحياة ، هذا في المقاصد التي تختلف في المجتمعات ، وأما المقاصد العامة التي لا يختلف فيه اثنان كاصل الاجتماع والعدل والظلم ونحو ذلك فما لها من وصف الحسن والقبح والوجوب والحرمة وغيرها لا تختلف البتة ولا يختلف فيه ، هذا فيما يرجع إلينا .

والله سبحانه لما قلب دينه في قالب السنن العامة الاجتماعية اعتبر في بيانه المعارف الحقيقية المسبوكة في قالب السنن الاجتماعية ما نعتبره نحن في مسير حياتنا فأراد منا أن نفكر فيما يرجع إلى معارفه ، ونتلقى ما يلقيه إلينا من الحقائق كما نفكر ونتلقى ما عندنا من سنن الحياة فعد نفسه ربا معبودا ، وعدنا عبادا مربوبين ، وذكرنا أن له دينا مؤلفا من عقائد أصلية وقوانين عملية تستعقب ثوابا وعقابا وأن في اتباعه صلاح حالنا ، وحسن عاقبتنا ، وسعادة جدنا على نحو المسلك الذي نسلكه في آرائنا الاجتماعية .

فهناك عقائد أصليه يجب علينا أن نعتقد بها ونلزمها ، وهناك وظائف عملية وقوانين إلهية في العبادات والمعاملات والسياسات يجب علينا أن نعمل بها ونراعيها كما أن الامر في جميع المجتمعات الانسانية على ذلك . وهذا هو الذي يسوغ لنا أن نبحث عن المعارف الدينية اعتقادية أو عملية كما نبحث عن المعارف الاجتماعية اعتقادية أو عملية ، وأن نستند في المعارف الدينية من الآراء العقلية ، والقضايا العملية بعين ما نستند إليه في المعارف الاجتماعية فالله سبحانه لا يختار لعباده من الوظائف والتكاليف إلا ما فيه المصلحة التي تصلح شأنهم في دنياهم وآخرتهم ، ولا يأمر إلا بالحسن الجميل ، ولا ينهى إلا عن القبيح الشائه الذي فيه فساد دين أو دنيا ، ولا يفعل إلا ما يؤثره العقل ، ولا يترك إلا ما ينبغي أن يترك . إلا أنه تعالى ذكرنا مع ذلك بأمرين :

أحدهما : أن الأمر في نفسه أعظم من ذلك وأعظم فإن ذلك كله معارف مأخوذة من مواد الآراء الاجتماعية وهى في الحقيقة لا تتعدى طور الاجتماع ، ولا ترقى إلى عالم السماء كما قال : (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) (الزخرف : ٤) وقال في مثل ضربه : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل) الآية (الرعد : ١٧) وقال صلى الله عليه وآله : إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم ، إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة . وليس معنى هذا البحث نفى الحسن والمصلحة مثلا عن أفعاله تعالى بمعنى اثبات ما يقابله حتى يستتبع ذلك اثبات القبح والمفسدة أو سقوط أفعاله عن الاعتبار العقلائي كأفعال الصبيان تعالى عن ذلك كما أن نفى البصر بمعنى الجارحة عن العقل لا يوجب اثبات العمى له أو سقوطه عن مرتبة الادراك بل تنزيه عن النقص .

وثانيها: ان جهات الحسن ومزايا المصالح وان كانت تعلل بها أفعاله تعالى وشرائع أحكامه وتبين بها وظائف العبودية كما تعلل بها ما عندنا من الاحكام والأعمال العقلائية إلا أن بين البابين فرقا وهو أنها في جانبنا حاكمة على الإرادة مؤثره في الاختيار فنحن بما أنا عقلاء إذا وجدنا فعلا ذا صفة حسن مقارنا لمصلحة غير مزاحمة بعثنا ذلك إلى اقتراف العمل وإذا وجدنا حكما على هذا النعت لم نتردد في تقنينه وحكمنا به وأجريناه في مجتمعنا مثلا . وليست هذه الوجوه والعلل أعني جهات الحسن والمصلحة إلا معاني أخذناها من سنة التكوين والوجود الخارجي الذي هو منفصل من أذهاننا مستقل دوننا فأردنا في اختيار الأعمال الحسنة ذوات المصلحة أن لا نخبط في مسيرنا وتنطبق أعمالنا على سنة التكوين وتقع في صراط الحقيقة ، فهذه الجهات والمصالح معان منتزعة من خارج الأعيان متفرعة عليه ، وأعمالنا متفرعة على هذه الجهات محكومة لها متأثرة عنها ، والكلام في أحكامنا المجعولة لنا نظير الكلام في أعمالنا . وأما فعله تعالى فهو نفس الكون الخارجي والوجود العيني الذي كنا ننتزع منه وجوه الحسن والمصلحة وكانت تتفرع عليه بما أنها انتزعت منه فكيف يمكن أن يعد فعله تعالى متفرعا عليها محكوما لها متأثرا عنها ، وكذلك أحكامه تعالى المشرعة تستتبع الواقع لا أنها تتبع الواقع فأفهم ذلك .

فقد تبين : أن جهات الحسن والمصلحة وما يناظرها في عين أنها موجودة في أفعاله تعالى وأحكامه ، وفي أفعالنا وأحكامنا بما نحن عقلاء تختلف في أنها بالنسبة إلى أعمالنا وأحكامنا حاكمة مؤثرة ، وإن شئت قلت دواع وعلل غائية ، وبالنسبة إلى أفعاله وأحكامه تعالى لازمة غير منفكة وإن شئت قلت : فوائد مطردة ، فنحن بما أنا عقلاء نفعل ما نفعل ونحكم ما نحكم لأنا نريد به تحصيل الخير والسعادة وتملك ما لا نملكه بعد ، وهو تعالى يفعل ما يفعل ويحكم ما يحكم لأنه الله ، ويترتب على فعله ما يترتب على فعلنا من الحسن والمصلحة ، وأفعالنا مسؤول عنها معللة بغاياتها ومصالحها ، وأفعاله غير مسؤول عنها ولا معللة بغاية لا يملكها بل مكشوفة بلوازمها ونعوتها اللازمة ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون فافهم ذلك . وهذا هو الذي يهدى إليه كلامه عز اسمه كقوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) (الأنبياء

: ٢٣) وقوله : (له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم) (القصص : ٧٠) وقوله : (ويفعل الله ما يشاء) إبراهيم : ٢٧) وقوله : (والله يحكم لا معقب لحكمه) (الرعد : ٤١) . ولو كان فعله تعالى كأفعالنا العقلائية لكان لحكمه معقب إلا أن يعتضد بمصلحة محسنة ولم يكن له ليفعل ما يشاء بل ما تشير إليه المصلحة المقارنة ، وقوله : (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) (الأعراف : ٢٨) وقوله : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) (الأنفال : ٢٤) وغير ذلك من الآيات التي تعلل الاحكام بوجوه الحسن والمصلحة .
تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٧ - ص ١١٨ - ١٢٢
وسيأتي ان شاء الله تعالى في بحث لاحق تتمة لهذا البحث .

قال عليه السلام: فمم عجبت يا ابراهيم ؟ سل ولا تستنكف ولا تستحي فان هذا العلم لا يتعلمه مستكبر ولا مستحي .
لما يرى الانسان نفسه ناقصة ومحتاجة فانه يسعى لرفع نقصها وحاجتها ويلبي نداء الفطرة في طلب الكمال فيسير على نهج الناموس الالهي ، ولكن حينما لايرى الشخص نقصه وفقره في أي جانب من جوانبه او يرى انه غير محتاج وليس فاقدا ما يحتاج اليه عندئذ تقف به عجلة الطلب ويرى انه ليس بحاجة الى الحركة والسعي فان الحركة مقدمة للحصول على كمال مفقود فان لم يكن هناك فقدان فلا حاجة للحركة اصلا ، فيقنع الانسان بما عنده ويرى نفسه مستغني عن غيره وهذا هو ما يفعله الكبر بصاحبه يمنعه عن طلب كل كمال لانه يرى انه غير محتاج اليه وهو الذي يوصل صاحبه الى الكفر والجحود فان المتكبر يرى انه غير محتاج حتى الى الله ولسان حاله يقول انما اوتيته على علم عندي .
المستكبر لا يحصل على فضيلة العلم ولا يشم رائحته لانه يترفع عن طلبه ويستعلي على استحصاله كالسيل يغمر السهول ولا تناله التلال والمرتفعات فتبقى جرداء قاحلة بخلاف السهول تكسوها اللوان العشب الزاهية لذا يقول الشاعر :
العلم حرب للفتى المتعالي ..... كالسيل حرب للمكان العالي
فالعلم لاينالله مستكبر ، وكذا الحال بالنسبة الى من يفرط في الحياء لا يحصل على العلم فان الحياء هو انقباض النفس عن القبيح وتركه ، وليس العلم فيه قبح حتى تنقبض النفس منه وتتركه فالحياء فيه حياء في غير مورده .

قلت : يابن رسول الله اني أجد من شيعتكم من يشرب الخمر ويقطع الطريق ويخيف السبل ويزني ويلوط ويأكل الربوا ويرتكب الفواحش ويتهاون بالصلاة والصيام والزكاة ويقطع الرحم ويأتي الكبائر ، فكيف هذا ولم ذاك ؟ فقال : يا ابراهيم هل يختلج في صدرك شئ غير هذا ، قلت : نعم يابن رسول الله اخرى اعظم من ذلك ! فقال : وهو ما يا أبا اسحاق ؟ قال : فقلت يابن رسول الله وأجد من اعدائكم ومنا صبيكم من يكثر من الصلاة ومن الصيام ويخرج الزكاة ويتابع بين الحج والعمرة ويحرص على الجهاد ويأثر على البر وعلى صلة الارحام ويقضي حقوق اخوانه ويواسيهم من ماله ويتجنب شرب الخمر والزنا واللواط وسائر الفواحش فمم ذاك ؟

ولم ذاك ؟ فسره لي يابن رسول الله وبرهنه وبينه ، فقد والله كثر فكري وأسهر ليلي وضاق ذرعي .
في هذا المقطع نرى ان ابراهيم الليثي يتعجب من كلام الامام عليه السلام ومن حقه ذلك فانه كان يرى صدور المعاصي من شيعة اهل البيت عليهم السلام ، والحال انه يرى انهم مستبصرين في معرفة أئمتهم وكاملي الايمان ، والامام عليه السلام قال له من كان بهذه الصفات فهو لا يعصي ، فحصل عنده العجب انذاك ، لانه لايسعه ان يكذب الامام عليه السلام ولا يسعه ان يكذب وجدانه وحسه بان الشيعة يرتكبون المعاصي ، فكيف لا يعجب من ذلك ؟!
فالخلفية التي كان يحملها السائل وارتكز عليها سؤاله هو انه كان يرى ان الشيعة هم مؤمنون مستبصرون بالغون في المعرفة وكاملون ، لذا سائل عمن كان بهذه الاوصاف ، وجاء جواب الامام عليه السلام على هذا الاساس .
يبقى انه لابد ان نعرف رأي الامام عليه السلام في ان الموجودين من الشيعة هل هم بتلك الاوصاف التي توجب لصاحبها عدم ارتكاب الكبيرة او انهم لا يتصفون بها لذا يرتكبون معاصي ؟
ومما لا شك فيه ان هناك طبقة من الشيعة لم تصدر منهم معاصي بل قد لا تخطر ببالهم كخواص الائمة عليهم السلام وابنائهم وحواريهم امثال سلمان وابي ذر والمقداد والاشتر وكميل والتمار وغيرهم فهؤلاء يعرف استقامتهم القاصي والداني وهناك من هم اقل مرتبة من هذه الطبقة الى ان نصل الى الطبقة التي يتحدث عنها السائل وهم اصحاب المعاصي والذنوب وهؤلاء هم محط البحث والسؤال والجواب ، فلا يتوهم ان الشيعة كلهم اصحاب معاصي كما سياتي بحثه بعد ذلك ان شاء الله تعالى .
سيتضح من خلال بيان كلام الامام عليه السلام انه يقره على ما ارتكز عليه في سؤاله وهو ان الشيعة الذين يسأل عنهم هم بتلك الاوصاف ، لذا سيبين له السر في صدور المعاصي منهم ، عندما قال له : فمم ذاك ؟ ولم ذاك ؟ فسره لي يا بن رسول الله وبرهنه وبينه ، فقد - والله - كثر فكري وأسهر ليلي وضاق ذرعي .
قال : فتبسم - صلوات الله عليه - ثم قال : " يا إبراهيم خذ إليك بيانا شافيا فيما سألت وعلما مكنونا من خزائن علم الله وسره .

العلم المكنون

العلم المكنون هو المستور والمحفوظ الذي في الكتاب المكنون الوارد في قوله تعالى (انه لقران كريم في كتاب مكنون لايمسه الا المطهرون) الواقعة٧٧-٧٩
والكتاب المكنون هو ام الكتاب الوارد في قوله تعالى (انا جعلناه قرانا عربيا لعلكم تعقلون وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم) الزخرف ٤
ففي الاية الاولى تذكر ان القران في كتاب مكنون وفي الاية الثانية تقول ان القران في ام الكتاب فيكون الكتاب المكنون هو ام الكتاب .

ويسمى مكنونا لانه مستتر ومحفوظ لا يطلع عليه احد الا ان يكون مطهرا بتطهير الله سبحانه كما قال تعالى (انما يريد الله ان يذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرا) الاحزاب ٣٣

وهو الذي كان لاصف وصي سليمان حظ منه كما قال الله تعالى : قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ النمل ٤٠

وهو الذي كان عند امير المؤمنين عليه السلام كاملا كما قال سبحانه : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ [الرعد : ٤٣]وورثه عنه اوصيائه عليهم السلام ، ولابد ان لايحصل الخلط في لفظ الكتاب فيتصور ان المراد من الكتاب هو القران الكريم بل الكتاب هو اوسع من القران لان القران في الكتاب الكنون كما اشراة اليه الاية السابقة

والاطلاع على ذلك الكتاب لا يكون من قبيل الاطلاع على هذه الكتب المادية أي بالكسب الحصولي وانما بالشهود القلبي وتجليه في القلوب المطهرة فهو مكنون مستور عن العقول والاوهام ان تطلع عليه وليس في مقدورها ادارك ما فيه لانه ليس من سنخ مدركاتها هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء وحصوله يكون بتعليم الله سبحانه وليس هو من العلم بالغيب المختص بالله فان ذاك هو لله بالاصالة وليس بالتعليم وما عند غير الله لا يحصل الا بتعليم الله سبحانه كما قال : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول). الجن ٢٦-٢٧

فلا يقال ان هذه الدعوى مخالفة لكتاب الله حيث يقول : قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأعراف : ١٨٨]

لانه لايصح التمسك ببعض الايات دون بعض فلا بد من الجمع بينها حتى يتضح مقصوده سبحانه فالمنفي هو علم الغيب بالاصاله ومن دون تعليم فهذا لايطلع عليه احد ، واما علم الغيب الذي يحصل بتعليم الله فالقران يثبته ولا ينفيه كما مر في الايات السابقة .

الامام عليه السلام يعطي السائل بيانا يشفيه من الشك ويزيل من نفسه مايجد من حزازة في نفسه ، وجواب الامام عليه السلام ليس هو بأجتهاد منه حتى يكون محتمل الاصابة او الخطئا بل هو من العلم المكنون في خزائن علم الله ، وسياتي ان شاء الله تعالى الكلام في علم الله .
اخبرني يا ابراهيم كيف تجد اعتقادهما قلت : يابن رسول الله اجد محبيكم وشيعتكم على ما هم فيه مما وصفته من افعالهم لو اعطي احدهما ما بين المشرق والمغرب

ذهبا وفضة أن يزول عن ولايتكم ومحبتكم إلى موالاة غيركم وإلى محبتهم ما زال ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيكم ولو قتل فيكم ما ارتدع ولا رجع عن محبتكم وولايتكم ، ورأي الناصب على ما هو عليه مما وصفته من افعالهم لو اعطى احدكم ما بين المشرق والمغرب ذهبا وفضة أن يزول عن محبة الطواغيت وموالاتهم إلى موالاتكم ما فعل ولا زال ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيهم ولو قتل فيهم ما ارتدع ولا رجع وإذا سمع احدهم منقبة لكم وفضلا اشمأز من ذلك وتغير لونه ورأي كراهية ذلك في وجهه بغضا لكم وحبة لهم .

دور العقيدة

العقيدة كيف ما تكون دينية ام لا دينية تمثل الحجر الاساس في شخصية الانسان باعتبار انها هي التي تحدد له اتجاه السير في الحياة وكيف ينبغي له ان يعيش ، فالذي يعتقد ان الانسان هو هذا الموجود المادي يحيا ويفنى في هذا العالم المادي فان قصارى جهده سينصب على طلب هذا العالم والسعادة فيه ، وهذا هو مطلبه الاساسي حتى لو كان على حساب الاخرين ، واذا تمسك في بعض الاحيان ببعض الاخلاق الفاضلة فهذا بسبب انها توفر له بعض المصالح لا لقيمتها المعنوية ، لانه لا يعتقد بعالم المعنى اصلا ، وخير مثال على ذلك الحضارة المادية في هذا الزمان فكم تدعو الى حقوق الانسان وتنادي برفع الظلم والحيف والمرض والفقر عن المستضعفين في العالم وهي بنفس الوقت من جهة اخرى هي التي ظلمتهم واوقعتهم في ما هم فيه بسبب استنزاف خيرات الشعوب واستعبادهم ، فهي في حقيقة الامر تنادى بتلك الشعارات من اجل انها توفر لها مصالحا ولو ادى ذلك الى سحق العالم باسره ، ومن كانت عقيدته عقيدة مادية لا يمكنه الالتزام بالاخلاق الفاضلة لقيمتها المعنوية لانها بعيدة عن نظامه العقائدي ، هذا معنى قولنا ان العقيدة تحدد اتجاه السير للانسان فهي بمثابة البوصلة لسلوكه .

فكل عقيدة تقتضي سلوكا معينا وليس بالضرورة ان يكون ذلك الاقتضاء شاملا لكل جزئيات الحياة ، او ان يكون اقتضائها شامل لكل الجزئيات كما في العقيدة الاسلامية ولكن ترى كثير من المعتقدين بهذه العقيدة لا يلتزمون بأقتضائاتها حرفيا وهذا لايخرجهم عن تلك العقيدة لانهم يلتزمون بخطوطها العامة فهم يسيرون وفقها ، وبالعكس نجد ان بعض الماديين يلتزمون بكثير من الاخلاق الفاضلة التي هي خارجة عن دائرة معتقدهم ولكن مع ذلك هم ماديون .

فالعمل له اهمية ولكن لايرقى الى اهمية العقيدة وهو متفرع عليها ومتأخر عنها رتبة ومعلول لها ، فان مرتبة العقيدة هي الذات الانسانية ومرتبة العمل هي في مرتبة الفعل ، ومرتبة الذات اجل واشرف مما دونها .

لذا نجد ان الشرائع السماوية جائت لبناء الانسان عقائديا من اجل ان تبني ذاته ، حتى انا نلاحظ حسب النقل ان الانبياء الاولين لم تكن لهم شرائع وانما احكام متفرقه ، و كان الاهتمام من قبل الانبياء صلوات الله عليهم بترسيخ العقيدة في نفوس الناس ، فما لم تترسخ العقيدة في النفس الانسانية فانها لاتؤثر اثرها ، ولهذا السبب نجد ان النبي الاكرم (ص) حينما بعث قضى اكثر من نصف زمن البعثة يبنى المسلمين الاوائل

بناءا عقائديا والايات والسور المكية توضح هذا الامر جليا ، ولما اوضح النظام العقائدي الاسلامي ورسخه في ثلة من الناس بدء عصر التشريع فاكثر الاحكام شرعت بعد الهجرة النبوية أي بعد ثلاثة عشر عاما من البعثة .
حينما نأتي الى القران الكريم نجد هناك ايات تفرع العمل على الاعتقاد ، فان كان طيبا يثمر عملا طيبا وان كان الاعتقاد خبيثا يثمر ثمرا خبيثا من قبيل قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ () تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ () وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ () يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) سورة ابراهيم اية ٢٤-٢٧
يقول صاحب الميزان في ذيل هذه الايات المباركة : جعل الإيمان بالله كشجرة لها أصل و هو التوحيد لا محالة و أكل تؤتيه كل حين بإذن ربها" و هو العمل الصالح، و فرع و هو الخلق الكريم كالتقوى و العفة و المعرفة و الشجاعة و العدالة و الرحمة و نظائرها.
و قال تعالى: (إليه يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه) فجعل سعادة الصعود إلى الله و هو القرب منه تعالى للكلم الطيب و هو الاعتقاد الحق و جعل العمل الذي يصلح له و يناسبه هو الذي يرفعه و يمده في صعوده . تفسير الميزان –محمد حسين الطباطبائي – ج١١ ص١٥٥

ونجد مجموعة من الآيات القرانية لا تجعل للعمل قيمة من دون اعتقاد حق ، من قبيل قوله تعالى (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ [المائدة : ٥٣]

وقوله تعالى (وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة : ٢١٧]

وقال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً) [الكهف : ١٠٥]
وقال تعالى (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ [إبراهيم : ١٨]
وقال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً [الفرقان : ٢٣]

فالايات المباركة تبين ان العمل يحبط في حال الارتداد عن الدين والكفر به ويكون هباءا ويكون رمادا ، فالعمل من دون الايمان بالله سبحانه ليس له أي اثر ولا ينفع الانسان في يوم القيامة .

وليس من الضروري ان يكون هذا الكفر او الارتداد ظاهر ، بل قد يكون الشخص ظاهره الاسلام ويلتزم بكثير من احكامه وتعاليمه ولكن هو في الواقع خارج عن الدين .
فالخوارج مع اسلامهم ظاهرا والتزامهم بالعبادات بل تحتقر عبادة بعض اصحاب الرسول (ص) قبال عبادتهم كما في الرواية عنه ينقلها الامام مالك في مدونته الكبرى يقول :
عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبى سعيد الخدرى قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما إذا أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بنى تميم فقال يا رسول الله اعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك من يعدل إذا لم أعدل قد خبت وخسرت ان لم أعدل فقال عمر يا رسول الله أئذن لى فيه أضرب عنقه فقال دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شئ ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شئ ثم ينظر إلى نضيه فلا يوجد فيه شئ ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شئ قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود أحد عضديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدردر ويخرجون على خير فرقة من الناس (قال) أبو سعيد فأشهد أنى سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أن على ابن أبى طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى نعته .
- المدونة الكبرى - الامام مالك ج ٢ ص ٤٨
حتى ان بعض الذين خرجوا مع امير المؤمنين عليه السلام شكك في امر قتالهم هل هو جائز او لا ؟ كما في هذه الرواية عن الخرائج والجرائح انقل منها موضع الحاجة يقول :
روي عن جندب بن زهير الازدي قال : لما فارقت الخوارج عليا عليه السلام ، خرج إليهم وخرجنا معه ، فانتهيت إلى عسكرهم فإذا لهم دوي كدوي النحل في قراءة القرآن ، وفيهم أصحاب البرانس ، وذووا الثفنات . فلما رأيت ذلك دخلني شك ، فتنحيت ونزلت عن فرسي ، وركزت رمحي ووضعت ترسي ، ونثرت عليه درعي ، وقمت اصلي وأنا أقول في دعائي : " اللهم إن كان قتال هؤلاء القوم رضا لك ، فأرني من ذلك ما أعرف به أنه الحق ، وإن كان لك سخطا فاصرف عني " . إذا أقبل علي عليه السلام فنزل عن بغلة رسول الله ، وقام يصلي ، إذ جاء رجل وقال : قطعوا النهر . ثم جاء آخر تشتد به دابته ، وقال : قطعوه وذهبوا .
فقال أمير المؤمنين عليه السلام : ما قطعوه ولا يقطعونه ، وليقتلن دونه ، عهد من الله ورسوله . - الخرائج والجرائح - قطب الدين الراوندي ج ٢ ص ٧٥٥

فهم مع انهم اهل صلاة وصيام وتهجد وقراءة القران وذوي الثفنات من كثرة السجود ، محكومون بالكفر عند اهل الاسلام ، يقول الشيخ المفيد في المقنعة :
والذين يحرم ذبائحهم فهم الخوارج ومن ضارعهم في عداوة أمير المؤمنين عليه السلام وعترته الاطهار عليهم السلام ، لانهم بذلك لا حقون بمن سميناه من الكفار في

تحريم ذبائحهم ، لانهم وإن كانوا يرون التسمية على الذكاة فإنهم بحكم أهل الارتداد عن الاسلام ، لعنادهم لاولياء الله عز وجل ، واستحلالهم منهم المحظورات .
- المقنعة- الشيخ المفيد ص ٥٧٩
ويقول المحقق الحلي في المعتبر :
الخوارج :اما يقدحون في علي عليه السلام ، وقد علم من الدين تحريم ذلك فهم بهذا الاعتبار داخلون في الكفر لخروجهم عن الاجماع . - المعتبر - المحقق الحلي ج ١ ص ٩٨
وينقل ابن حجر في فتح الباري عن الغزالي حكم الخوارج يقول :
وقال الغزالي في الوسيط تبعا لغيره في حكم الخوارج وجهان أحدهما أنه كحكم أهل الردة والثاني أنه كحكم أهل البغي . - فتح الباري - ابن حجر ج ١٢ ص ٢٥٢
فهؤلاء مع ايمانهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر هم على هذه الحال فما بالك بغيرهم ؟!
ان قلت فما السبب انهم مع ايمانهم وعملهم يحكم بكفرهم وبطلان عملهم ؟
قلت ان ايمانهم باطل والذي يكشف عن بطلان ايمانهم خروجهم على الامام المفترض الطاعة ، واذا بطل الايمان لا يكون للعمل قيمة كما بينا ذلك من خلال الايات المباركة ، وسيأتيك مزيد البحث في ذلك ان شاء الله فانتظر .

بيان فلسفي
واذا اردنا ان نأصل هذه الفكرة من الناحية الفلسفية - وهي فكرة دور العقيدة في السلوك - فنقول :
لو جئنا الى أي عمل يقوم به الانسان وحللنا كيفية صدوره منه لوجدنا ان هناك مراحل في نفس الانسان يمر بها العمل قبل ان تتحرك الجوارح ويكون الفعل ظاهرا ، وهذه المراحل سواء التفت اليها الانسان او لم يلتفت اليها هي موجودة وحاصلة ، وعدم العلم بها لا يكون سببا وداعيا الى انكارها ، فأن اكثر اجهزة البدن الباطنة تعمل والانسان غافل عن عملها كالقلب والمعدة والامعاء وآلاف الوضائف التي تقوم بها باقي الاجهزة ونحن غافلون عنها ، ولا يحق لنا ان ننكرها لعدم علمنا بها ، فالامر في مقدمات الفعل كذلك عدم العلم بها لا يلغي اثرها ، وعند تحليل المسألة اكثر يكون التصديق به اشد .
فنقول : عندما يريد الانسان ان يصنع كرسي لابد ان تكون هناك حاجة له ، وهذه الحاجة هي التي تدفعه الى صنعه ولولاها ما صنعه ، وكل مصنوعات الانسان انما صنعها لحاجته اليها، فالحاجة هي التي تسمى بالداعي الذي يدعو الانسان للفعل ، وهذا الداعي يدفع الانسان ان يتصور الكرسي وحاجته اليه ثم يصدق بأنه يرفع الحاجه فيشتد شوقه اليه فيتحرك لصنعه .
اما لماذا يشتاق ويتحرك لصنع هذا الشيء ؟ لان الانسان بفطرته يهرب من النقص ويطلب الكمال ، فعندما يجد في نفسه حاجة يعني ذلك ان هناك فقدان ونقص فيحاول جاهدا الفرار من هذا النقص وتكميله ، وهذا امر فطري ، ولما كان قد تصور وصدق يعني انه علم ان في هذا الشيء الذي يريد صنعه رفع لحاجته فيشتاق اليه ويتحرك نحو صنعه .

فمراتب الفعل هي التصور له والتصديق بفائدته فيحصل الشوق اليه ويشتد الشوق فيجمع عزمه على القيام به فتحصل عنده الارادة للفعل وهذه الارادة هي التي تحرك اعضاء الجسم لانتاج العمل الذي يرفع نقصا وحاجة عند الانسان .
اذن مبدأ الفعل وعلته الاولى هي التصور والتصديق ، وبتعبير اخر هو العلم ، ثم يأتي الشوق والارادة فالتحريك ، فلولا علم الانسان بالحاجة وعلمه بان هذا الشيء يرفعها ماتحرك اليها ولا طلبها اصلا ، لذا يقول الحكماء ان الغاية متقدمة تصورا ومتأخرة وجودا ، يعني الغاية من صنع الكرسي هو الجلوس عليه وانا اتصور هذه الغاية واعلم بها فاشتاق الى تحصيلها حتى ترفع نقصا عندي فاتحرك للصنع وبعد الصنع يتحقق الجلوس عليه، وهذا معنى ان الغاية متقدمة تصورا ومتأخرة وجودا ، ويعنون بهذا ان الغاية من مبادئ الفعل وعلله الاساسية التي لولاها لما صدر فعل ارادي من الانسان ، لانه يفقد الداعي والمحرك نحو ذلك الفعل .
ولا بد من الالتفات الى ان هذا الذي قلناه يجري في الافعال الاختيارية لانسان ولا يجري في الافعال غير الاختيارية كأفعال اجهزة البدن الداخلية فاذن نحن كلامنا ليس في هذا النوع من الافعال التي يقتضيها الطبع بل كلامنا في الافعال الارادية التي تحصل باختيار الانسان فهذا النوع من الافعال يؤثر فيه العلم جدا وعلى اساسه يقع او لايقع ، فالانسان لما يريد ان يقوم بعمل يعمل ميزان ترجيح المصالح على المفاسد التفت الى ذلك او لم يلتفت ، وانما يعمل هذا الميزان لانه يريد المصلحة التي فيها نفع له ويفر من المفسدة التي فيها ضرر عليه ، وهذا معنى انه طالب للكمال هارب من النقص ، وحساب المصالح والمفاسد والترجيح بينها هو الذي يميز الانسان عن باقي الحيوانات فانها لاتحسن استعمال ذلك الميزان وانما تفعل بدافع الغريزة فقط .
والذي يحدد المصلحة والمفسدة للانسان هو العلم او قل هو الاعتقاد والمنظومة الفكرية عنده ورؤيته لهذا الكون وكيفية الحياة فيه ، فالعقيدة هي علم بقضايا خاصة يعقد القلب عليها ، وتكون سببا لتحديد سلوك الانسان .

ايصال الفعل بمقدار الغاية
لابد ان يكون واضحا ان النتائج تكون بمقدار المقدمات ، أي النتيجة اما مساوية للمقدمات او اقل منها ولا يمكن ان تكون النتائج اوسع دائرة من المقدمات ، وحتى يتضح لك هذا نظرب بعض الامثلة لذلك فنقول :
لو فرضنا ان عشرين لتر من الوقود توصل السيارة لمسافة عشرين كيلو متر ، فهذا المقدار من الوقود يمكن السير به خمس او عشر او خمسة عشر اوعشرين كيلو متر اما انك تريد من السيارة توصلك ابعد من ذلك فهذا غير ممكن لان الذي يحرك عجلاتها هو الوقود وقد نفد فبأي شيء تتحرك ؟ اذا اردت ان توصلك الى مسافة اكثر لابد ان تعطيها وقود اكثر ، وهذا امر واضح لا يحتاج تفكير .
وكذا لو اردت ان تقوم باي مشروع من المشاريع لابد اولا ان ترى ماهي امكاناتك حتى تعرف انها هل تنتج لك المشروع الذي تريد او لا ، فاذا كنت تملك الف دينار وانت تريد ان تبني لك بيتا فاخرا لابد ان تعرف هل يكفي ذلك المبلغ من المال او لا يكفي ثم بعد ذلك تقدم على البناء ، فاذا لم يكن بمقدورك ان تضع الاسس للبناء بذلك

المقدار من النقود فكيف تريد ان تبني بيتا مكتمل من جميع جوانبه ، وهذا واضح ايضا .
ولكن كيف نطبق هذا الامر الواضح على محل كلامنا ؟
نقول ذكرنا ان الغاية متقدمة تصورا وعلما على حصولها واقعا ، كما مثلنا لذلك بصنع الكرسي ، فانا اولا اتصور الجلوس قبل صنع الكرسي ثم بعد الصنع يتحقق الجلوس ، فالجلوس في مقام العلم متقدم على الجلوس الخارجي ، لذا قيل ان العلة الغائية هي الغاية بعينها ولكن العلة الغائية هي الوجود الذهني والعلمي للجلوس والغاية هي الوجود خارجي ، يعني صورةالجلوس في الذهن هي الجلوس الخارجي ولكن احدهما في مقام العلم واخرى في مقام العين والتحقق الخارجي .
فاذا كان الامر كذلك يعني ان الغاية بوجودها العلمي والذهني هي نفس الفعل صورة وماهية وغيره وجودا، فلا بد ان يكون الفعل بمقدار تلك الغاية ولا يمكن ان يكون اكبر منها ، فحينما اريد ان اصنع آلة او جهازا ينتفع منه كثير من الناس لابد اولا ان ارى ماهي مصلحتي ونفعي الشخصي وراء ذلك العمل ؟
لان كل فعل له داعي وذلك الداعي هو استحصال كمال مفقود فان الانسان لا يفعل فعلا الا وهو يريد ان يهرب به من نقص الى كمال ، فلا يصدر منه فعل من دون ذلك ، فليس لعاقل ان يقدم على فعل من دون ان يعتقد ان ذلك الفعل ينتفع منه بنحو او باخر ، وليس نفع الناس مقدم على نفعه لان حبه لنفسه لا يوازيه حب لاحد فرفع النقص عن نفسه احب اليه من رفع النقص عن الاخرين ، فما هو النفع الذي سيحصل عليه من وراء صنعه ؟ ونحن عندما نبحث عن ذلك انما نريد ان نعرف الغاية وحدودها ، حتى اذا عرفنا الغاية نعرف أي مقدار من النفع يمكن ان يحصل عليه ، ولا يحق له ان يطلب اكثر من ذلك .
فاذا كانت الغاية هي الحصول على المال او الحصول على الشهرة او حتى يحصل على براءة اختراع فهو اما ان يحصل على هذا المقدار من الغاية او ما هو اقل منه ، فأنه ليس كل من طلب المال حصل عليه ولا كل من سعى للشهرة اصبح مشهورا .
ولا تقل ان غايته هو نفع الاخرين ، لان هذه غاية لا تعود بالنفع عليه هو ولا يستكمل بها فهي غاية عرضية غير مطلوبة لنفسها من اول الامر ، بل الغاية المحركة له هي ما ذكرناه واما ان تكون هناك بعض النتائج تحصل عرضا فهذه ليس داخلة في الغاية التي طلبها وحركته لصنعه .
فهل يحق لهذا الشخص ان يقول لماذا لا يدين لي العالم في الاقرار بالفضل اني صنعت لهم هذه الاجهزة التي انتفعوا بها ؟
مؤكد لا يحق له ذلك فانه يقال له انك تحركت وعملت واجتهدت من اجل ان تحصل على المال او الشهرة وقد حصلت عليها ، وانت لم تفعل ذلك محبة بنا وشفقة علينا وحتى لو كانت غايتك هذه في الحقيقة وليس تلك فانما تحركت من اجل ان ترفع عنك الاحساس بالالم تجاه من رأيتهم محتاجين ومنكسرين ولا يمكنهم نفع انفسهم الا من خلال تلك الالة ، فهذه غاية من الغايات ايضا ، فان الام لما تحنو على ولدها وتدافع عنه حد الموت فانها بالحقيقة تدافع عن نفسها لان الالم الذي ينتابها حينما يصيب

ولدها شيء غير محتمل فتريد ان ترفع المها بدفع المكروه الذي يصيب ولدها ، فهذه غاية وغاية كبيرة .
فالغايات تختلف وقل مايلتفت الى الهدف والدافع الاصلي من وراء تلك الافعال .
ومن خلال هذا يرتفع الاشكال الذي يقول ان هؤلاء المخترعين كل تلك الالات والاجهزة والمواد التي انتفعت بها البشرية وتتنعم بالرفاه بسببها كيف لا يحصلون على الاجر والثواب في يوم القيامة ، فأي عمل اعظم من ذلك حتى يعطى عليه الاجر ولا يعطى لهذا ؟؟

ووجه ارتفاعه نقول اذا كان هدف المخترع والغاية التي حركته للصنع هو الثواب الاخروي اضافة الى الاجر الدنيوي فمن المؤكد سيحصل عليه او على بعضه كما يقول الله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ [الشورى : ٢٠]

فالاية واضحة تمام الوضوح في ذلك فانه من كان يريد حرث الاخرة يعطى زيادة عليها ومن يريد حرث الدنيا يعطى منها وليس له أي نصيب في الاخر ، وليس الامر هو انه يمكنه ان يأخذ الثواب ولكن يمنع منه ولا يعطى بل يقال له لا يمكنك الاخذ اصلا فأن الوقود الذي وضعته في مركبتك لا يوصلك الى الاخرة بل كان طلبك هو الدنيا فحسب واعطيت منها فلا تلوم العربة لماذا لم توصلك الى هناك ، لانها ستقول لك بلسان حالها لم نفسك ، انت لم تضع وقودا كافيا ولا تلمني .

اهمية الاخلاص

ويتضع ببركة هذا الاصل المهم جدا لماذا الاخلاص في العمل مطلوب ، لان من يطلب الله فقط وفقط ولا يطلب معه شيء اخر سيحصل على كل شيء ، لانه سبحانه واجد لكل كمال وكل كمال في عالم الوجود منه سبحانه ولا يحصل مخلوق على شيء الا بارادة منه سبحانه لانه هو المالك الحقيقي لكل شيء ، قال سبحانه : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ [البقرة : ١٠٧]
فمن عمل له سبحانه حصل على كل شيء وهذا المقطع من دعاء يوم عرفة للامام الحسين عليه السلام يبين ذلك بعبارة واضحة حيث يقول :
وأغنني بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبي ، أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجؤا إلى غيرك أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم (((ماذا وجد من فقدك ، وما الذى فقد من وجدك))) لقد خاب من رضي دونك بدلا ، ولقد خسر من بغي عنك متحولا ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الاحسان ، وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان . - بحار الأنوار - العلامة المجلسي ج ٩٥ ص ٢٢٦
فحتى الذي يعمل من اجل النجاة في الاخرة والحصول على الحور والقصور والغلمان وجنات تجري من تحتها الانهار وغير ذلك فانه يحصل عليه ولكنه لا

يحصل على الله سبحانه لانه لم يكن غايته ولم يكن طلبه وانما طلب غيره وغايته هذه لا توصله الا ما طلب واراد وليس من حقه ان يطالب بأكثر منها .
فلذلك يقال ان الاخلاص متعسر ونادر ، وكيف يتيسر الاخلاص له سبحانه ما لم يعرفه كما يستحق ؟ كل اخلاص انما يكون بمقدار المعرفة والمعرفة درجاتها متفاوتة فالاخلاص يكون تابعا لها في تلك الدرجات
فالاخلاص له سبحانه في العمل اقصى غاية الطالبين ، وهذه الغاية او اقصى الغايات هي مقدمة على العمل لانا قلنا ان الغاية متقدمة على العمل ، فبقدر العلم والمعرفة بتلك الغاية يكون عندك وقود يوصلك اليها ؟ فانت ومعرفتك به بأي مقدار، تحصل منه بقدره ، {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف : ٧٦] {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه : ١١٠
لذلك تجد ان الاخلاص اندر من الكبريت الاحمر وقليل منه كثير لايقدر قدره الا الله سبحانه ، لان معرفته سبحانه كما ينبغي لا تنال لكل احد ، لان اكثر الناس وان كانوا يؤمنون بالله سبحانه ولكنهم مشركون به كما تصرح الايات بذلك قال جل مجده :
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ [يوسف : ١٠٦]
وهذا بسبب انهم لا يعرفونه سبحانه لا لانهم يريدون الشرك بالله ، فاكثر معرفتهم به هي من الظن ، قال تعالى :
وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ [يونس : ٣٦]
فحتى لو كان العمل حقيرا ولكن كان عن اخلاص فانه يرتقي بالانسان الى اعالي الدرجات كما وارد في كثير من الروايات فعن إسماعيل بن يسار قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : إن ربكم لرحيم يشكر القليل ، إن العبد ليصلي ركعتين ، يريد بهما وجه الله فيدخله الله الجنة ، وإنه ليتصدق بالدرهم ، يريد به وجه الله فيدخله الله به الجنة . - المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقى ج ١ ص ٢٥٣
فالعقيدة هي جملة من القضايا التي يعقد عليها القلب فتشكل الاطار لشخصية ومنطلقا لسلوكه فيكون لها دور اساسي في السلوك والعمل ، فالعقيدة هي عقد القلب على الايمان بل الايمان هو نفس عقد القلب والتصديق ، كما في معجم لغة الفقهاء ص٩٩
فكل قضية من قضايا الايمان تتشكل من موضوع ومحمول كما في قولنا الله موجود والله حي والله عالم والله قادر وماشاكل ذلك فحتى تتكون عندي قضية من هذه القضايا لابد من ارتباط بين الموضوع والمحمول يعني اربط الموجودية بالله سبحانه وهذا الربط يسمى في لغة اهل المنطق عقد الحمل يعني ربط المحمول بالموضوع ، وحتى نثبت ان هذا المحمول مرتبط بالمحمول تارة يكون الارتباط واضح وبديهي فكل من يتصور القضية بأجزائها يصدق بها ولا يطالب بدليل كما لو قلت الواحد نصف الاثنين ، واخرى ارتباط المحمول بالموضوع ليس بواضح فيحتاج الى اقامة دليل وبرهان ، فاذا قام الدليل يصدق السامع بالقضية .
فحينما يقال ان الايمان تصديق يعني انه جزم بتلك القضايا ، واخرى يقال ان الايمان هو عقد القلب فالمراد ليس فقط ان هناك عقد وتصديق بين المحمول والموضوع عند السامع او العالم بالقضية بل هناك اكثر من ذلك وهو ان يكون هناك عقد وربط اخر

بين القضية المصدق بها وبين القلب ، فيقال هذا مما يعقد عليه القلب أي يربط به ، وبهذا يختلف العلم عن الايمان فان العلم هو الجزم بثبوت القضية والايمان وهو عقد القلب بذلك الثبوت .

اذا كانت العقيدة هي ارتباط القلب بقضايا خاصة يصدق بها المعتقد فهي التي سوف تؤثر في الفعل الذي يصدر من الانسان لانا قلنا ان الانسان اذا اراد ان يفعل فعلا معينا لابد اولا ان يشعر بالحاجة اي بالنقص ويصدق بان مايترتب على الفعل الذي يريد ان يقوم يرفع به نقصه اي ينفعه ولا يضره ، وهذا هو ميزان المصلحة التي يرجح بها فعلا على اخر ، فهناك عوامل كثيرة جدا تدخل في تشخيص الفعل انه ذا مصلحة او ليس ذا مصلحة ، واذا كان ذا مصلحة كم هي درجة تلك المصلحة ، وكذلك في تشخيص المفسدة فاذا تشخصت يحصل الترجيح ويتحدد مسار الطلب .

ومن العوامل المهمة جدا في تشخيص مصلحة الفعل للانسان هو ان تكون منفعة الفعل ليست وقتية آنية ، وليس تخدم جهة من جهات نفسه على حساب باقي جهاته ، كما اذا شعر الانسان برغبة جنسية فان اللذة تكون فيها قصيرة فاذا كان اشباع هذه الرغبة فيه مفسدة له من أي ناحية من النواحي الاخرى من قبل انه يمرض منها او ستسبب تفكيك اسرته او ما شاكل ذلك فهذه الرغبة ليس في مصلحة الانسان حتى وان كان فيها لذة للنفس ، ولذا نرى بعض اهل الامراض يتبعون الحمية عن بعض الملذات بسبب انها تزيد مرضهم والمهم فيمنعون انفسهم منها والحال ان فيها لذة لهم ، فليس كل لذة هي مصحلة ، الان ان تكون غير مضرة من جوانب اخرى .

ويتضح من خلال هذا ان الذي يعتقد بوجود الله وانه خلق العالم والانسان لهدف وذلك الهدف في مصلحة الانسان ، وان تلك المصلحة التي اراد الله للانسان ان يحصل عليها ليست هي مؤقته او عابرة بل هي دائمية حقيقية ، فهذا الاعتقاد يكون اساس في ميزان تشخيص المصلحه في كل فعل من الافعال ، فاذا كان ينسجم مع المصلحة التي اراها الله له فيقدم ويتحرك نحوها واذا كان مخالفا لها يتركه لان مصلحة هذا الفعل لاتعادل تلك المصلحة الحقيقية الدائمه .

وبهذا يتبين لنا بنحو دقيق كيف تؤثر العقيدة في السلوك ، لان العقيدة تصديق والتصديق من مبادئ صدور الفعل التي لايمكن صدوره من دونها ، فالتصديق يكون ناشئا عن حساب المصالح والمفاسد ولا تصل النوبة الى الشوق ما لم يصدق ان في الفعل مصلحة وانها غير مزاحمة بمصلحة اهم او بمفسدة عند ذلك يشتاق الى الفعل ويتحرك في طلبه ، فالافعال لها جذور عقدية تفرعت على اساسها فلا بد .

مرتكز جواب الامام ع

بعدا ن اتضح لنا دور العقيد ناتي الى كلام الامام عليه السلام نجد انه استند الى نقطة هي المرتكز في الجواب وسأل ابراهيم الليثي عنها من اجل ان يوقضه وينبهه للجواب وهذه النقطة هي اهم آثار العقيدة بل في الحقيقة هي جوهر العقيدة وهو الحب والولاء، وهذا هو الذي فهمه ابراهيم من سؤال الامام حينما قال له : أخبرني يا إبراهيم كيف تجد اعتقادهما ؟

فالامام عليه السلام لم يسأل عن اعتقادهما بالله او النبي او اليوم الاخر ، والشاهد على ذلك هو ان السائل فهم انه يريد بيان اعتقاد العاصي والمطيع في اهل البيت عليهم السلام هل يواليهم ويحبهم او يبغضهم ويكن لهم العداء والحسد ؟
لذا كان جواب ابراهيم واضحا في عقيدتهما ، والامام عليه السلام جعل اعتقادهما مركز الجواب عن سؤال ابراهيم وتعجبه ، ولا بد من بسط الكلام في هذا الامر الذي هو علم مكنون من خزائن علم الله وسره كما عبر الامام صلوات الله وسلامه عليه .
وحتى لا ينتظر القارئ الكريم النتيجة في اخر البحث ، نبينها اولا بنحو مجمل ثم نفصل الكلام في ذلك فنقول :
ان الله سبحانه وتعالى علق كل معارف الدين وما جاء به سيد الانبياء والمرسلين عليه افضل صلوات المصلين على تبليغه الولاية حيث قال سبحانه :
{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة : ٦٧]
وهذا ما تواترت به الاخبار عند الطائفة وورد في اخبار الجماعة وتفاسيرهم ففي الدر المنثور في ذيل هذه الاية المباركة قال :
وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري قال : نزلت هذه الآية { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك } على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خم ، في علي بن أبي طالب .
وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك } أن علياً مولى المؤمنين { وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس }- الدر المنثور – جلال الدين السيوطي ج٢ ص٢٩٨
ونفس هذا الكلام ينقله الشوكاني في فتح القدير ج٢ ص٦٠ ، وذكر ذلك الحسكاني في شواهد التنزيل واضاف :
ثم روى حديث رباح بن الحارث وأبي رميلة في ورود أبي أيوب الانصاري وجماعة من أنصار النبي على علي وشهادتهم له بأن النبي قال يوم غدير خم : أيها الناس ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى فقال : إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وعلي مولى من أنا مولاه . . . ثم قال : وعن أبن عباس قال : لما أمر الله رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقوم بعلي فيقول له ما قال فقال : يا رب إن قومي حديثوا عهد بجاهلية ثم مضى بحجه فلما أقبل راجعا و نزل بغدير خم أنزل الله عليه : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إيك من ربك) الاية فأخذ بعضد علي ثم خرج إلى الناس فقال أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأعن من أعانه واخذل من خذله وانصر من نصره ، وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه . قال أبن عباس فوجبت والله في رقاب القوم وقال حسان بن ثابت :

يناديهم يوم الغدير نبيهم * * بخم وأسمع بالرسول مناديا
يقول فمن مولاكم ووليكم * * فقالوا ولم يبدو هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا * * ولم ترمنا في الولاية عاصيا
فقال له قم يا علي فإنني * * رضيتك من بعدي إماما وهاديا

وعن أبي هارون العبدي قال : كنت أرى رأي الخوارج لا رأي لي غيره حتى جلست إلى أبي سعيد الخدري فسمعته يقول : أمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة فقال له رجل : يا با سعيد ما هذه الاربع التي عملوا بها ؟ قال : الصلاة والزكاة والحج والصوم أعني صوم شهر رمضان . قال : فما الواحدة التي تركوها ؟ قال : ولاية علي بن أبي طالب . قال : وإنها مفترضة معهن ؟ قال : نعم . قال : فقد كفر الناس . قال : فما ذنبي ! ! !

وعن زر عن عبد الله قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك أن عليا مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) . - شواهد التنزيل - الحاكم الحسكاني ج ١ ص ٢٥٦

وفي تفسير الكشف والبيان للثعلبي في ذيل الاية المباركة قال :

وقال أبو جعفر محمد بن علي : معناه : بلّغ ما أنزل إليك في فضل علي بن أبي طالب، فلما نزلت الآية أخذ (عليه السلام) بيد علي، فقال : «من كنت مولاه فعلي مولاه».

أبو القاسم يعقوب بن أحمد السري، أبو بكر بن محمد بن عبد اللّه بن محمد،أبو مسلم إبراهيم ابن عبد اللّه الكعبي، الحجاج بن منهال،حماد عن علي بن زيد عن عدي بن ثابت عن البراء قال : لما نزلنا مع رسول اللّه {صلى الله عليه وسلم} في حجة الوداع كنّا بغدير خم فنادى إن الصلاة جامعة وكسح رسول اللّه عليه الصلاة والسلام تحت شجرتين وأخذ بيد علي، فقال : «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم»؟

قالوا : بلى يا رسول اللّه،قال : «ألست أولى بكل مؤمن من نفسه»؟قالوا : بلى يا رسول اللّه، قال : «هذا مولى من أنا مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه».

قال : فلقيه عمر فقال : هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة.

روى أبو محمد عبداللّه بن محمد القايني نا أبو الحسن محمد بن عثمان النصيبي نا : أبو بكر محمد ابن الحسن السبيعي نا علي بن محمد الدّهان، والحسين بن إبراهيم الجصاص قالانا الحسن بن الحكم نا الحسن بن الحسين بن حيان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله {الرَّسُولُ بَلِّغْ} قال : نزلت في علي (رضي الله عنه) أمر النبي {صلى الله عليه وسلم} أن يبلغ فيه فأخذ (عليه السلام) بيد علي، وقال : «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه».

وبلغ ما أنزل إليك في حقوق المسلمين فلما نزلت الآية خطب رسول اللّه {صلى الله عليه وسلم} أي يوم هذا الحديث في خطبة الوداع،ثم قال : هل بلّغت؟ {وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} قرأ ابن محيصن وابن قفال وأبو عمرو والأعمش وشبل : رسالته، على واحدة وهي قراءة أصحاب عبد اللّه. الباقون جمع . –الكشف والبيان – للثعلبي ج٥ ص١٣١

وفي تفسير ابن ابي حاتم في ذيل الاية المباركة قال تحت رقم :

٦٦٤٤- حَدَّثَنَا أَبِي، ثنا عُثْمَانُ بْنُ خُرَّزَادَ، ثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ زَكَرِيَّا، ثنا عَلِيُّ بْنُ عَابِسٍ، عَنِ الأَعْمَشِ ابنى الحجاب، عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ:"نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ " فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ".

وكذلك عن الالوسي في روح المعاني قال :

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : نزلت هذه الآية في علي كرم الله تعالى وجهه حيث أمر سبحانه أن يخبر الناس بولايته فتخوّف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقولوا حابى ابن عمه وأن يطعنوا في ذلك عليه ، فأوحى الله تعالى إليه هذه الآية فقام بولايته يوم غدير خم ، وأخذ بيده فقال عليه الصلاة والسلام : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأخرج الجلال السيوطي في «الدر المنثور» عن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر راوين عن أبي سعيد الخدري قال : نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خم في علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه ، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم { يَعْمَلُونَ ياأيها الرسول بَلّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبّكَ } إن علياً ولي المؤمنين { وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ }
هذا بعض ماورد في تفاسيرهم ولم اتعرض لنقل مافي كتبهم الروائية مخافة التطويل وهذا الامر الذي في الاية هو من الاهمية بحيث انه في قبال الرسالة جميعا ، وعليه فمن لم يلتزم به فهو في الحقيقة لم يلتزم بالرسالة الالهية ، حتى لو فعل ما فعل من الطاعات واتعب نفسه بالعبادات ، لذا الامام عليه السلام يلفت نظر ابراهيم الى ان اعتقادهما يختلف والاعتقاد هو الاصل والعمل دون عقيدة صحيحة وولاء لله واوليائه باطل ومنقطع وانما يرتبط العبد بربه من خلال عقيدته فان كانت العقيدة فاسدة فكل ما فرع عليه يكون فاسد ايضا وان كان ظاهره جميل فهو كمرعى على دمة او كفضة على ملحودة .
فالامام عليه السلام اخذ الاقرار من الليثي على ان الشيعة متمسكون باهل البيت عليهم السلام لايفارقونهم لو قرضوا بالمقاريض ، فاي ايمان هذا الذي يصل بصاحبه على ان يترك الدنيا وما فيها من اجل حب اولياء الله ولا يترك مولاتهم باي ثمن كان ، نعم مايصدر منهم من المعاصي هو بسبب نزعاتهم النفسية واهوائهم ورغباتهم لا انها تصدر منهم عنادا للحق واهله ومحاربة لله ورسوله واهل بيته عليهم السلام .
هنا نريد ان نطرح هذا التسائل وهو ما السر في ان الولاية والمحبة لها هذه الاهمية حتى صارت هي العمدة في النجاة ؟ والجواب عن هذا السؤال نورده تحت العنوان التالي :

ولاء المحبة

الحب ذلك الشعور الذي يغور في اعماق النفس الانسانية فيجعل المحبوب قابعا وماكثا في نفس المحب ، بل لا تكون هناك نفس للمحب الا بمقدار ما هو موجود من حبه لمحبوبه ، فهو في الحقيقة يعيد تركيبة النفس ويجعلها منسجمة تمام الانسجام مع محبوبها وسائرة على نهجه عاشقة كل اثر منه ، طالبة لرضاه باذلة كل شيء من اجل الحصول على القرب منه والزلفى لديه ، الا ترى عجائب العاشقين التي لاتنسجم مع العقل واحكامه ويكونوا في معرض النقد والتوبيخ من سائر الناس ، ولكن للعقل احكام وللحب احكام كما قيل ، وكل له سلطانه :

لا يعرف الوجد الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

فالحب في الحقيقة يعطي نوع من الاتحاد بين المحب والمحبوب ، حتى تسري كل احكام المحبوب للحبيب ، لانه حكم احد المتحدين يسري الى الاخر ، لذا نرى ان بذل النفس التي هي اغلى ما يمتلكه الانسان يكون رخيصا بل لا قيمة له في سبيل المحبوب ، وماقيل (لو قطعتني في الحب اربا لما مال الفؤاد الى سواك) ما هو الا تعبير عن استيلاء الحب وغلبة سلطانه ، بحيث يسلب من الانسان كل ما يملك حتى نفسه التي بين جنبيه ، فيكون متبعا لاثر محبوبه سائرا على خطاه يحاذر ان يأتي باي فعل يسخط به محبوبه .

وهذا ليس كلام للعاشقين من نسج خيالاتهم التي اضر بها العشق والهيام ، بل هو حقيقة واقيعة يجدها كل انسان مر عليه هذا الشعور ، والقران الكريم ركز على هذه القضية كثيرا واولاها اهتماما بالغا والحق قوم بأخرين بسبب حبهم لهم وسحب حكم المحبوب وما اقترفه الى المحب فجعل ما يفعله أي طرف يحكم به على الطرف الاخر ، قال تعالى :

{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة : ٢٢]

هذه الاية المباركة تثبت التنافي بين الايمان بالله تعالى وحب اعدائه فلا يمكن ان يجتمع الاثنان في قلب واحد ، واللطيف فيها انها تجعل الارتباط الحقيقي هو ارتباط ايماني لا ارتباط نسبي فمن كتب الايمان بالله في قلبه لا يحب غير الله واوليائه ويبغض اعداء الله مهما كانت صلة قربتهم به ، فالايمان يربط من جهة ويقطع من جهة اخرى يجعل المؤمن مرتبط بكل من كان له صلة مع الله حتى لو كان اجنبيا عنه من حيث النسب ويقطعه عن كل معاند للحق ومبغض له حتى لو كان اقرب الناس اليه نسبا .

وقال سبحانه :{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران : ٢٨]

وهذه الاية تنفي دعوى الارتباط بالله عن من يدعي انه مؤمن وهو موال للكافرين فهي تقول من يوالي الكافرين لا تقبلوا منه دعوى الايمان وله صلة بالله سبحانه فان واقع حاله يكذب دعواه .

وقال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة : ٥١]

وهذا تؤكد ايضا ان من يوالي الكافرين هو داخل في دائرتهم وهو معهم في كفرهم وخارج عن دائرة المؤمنين والموالين للحق واهله .

وقال : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة : ٢٣]

انظر كيف الايمان بالله يقطع اقوى الروابط النسبية والاسرية ، فاذا كان اتخاذ الاباء والاخوان والابناء اولياء ممنوع منه والحال ان الموالاة لهؤلاء امر طبيعي جدا لانهم

ملاذ الفرد وعنصره ، فكيف يسمح للشخص ان يوالي الابعدين مع معاداتهم لله سبحانه واوليائه .
وقال : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [الممتحنة : ١]
فالولاية في الايات المباركة هي المحبة والمودة كما تصرح بها ، وتعطي احكام بعضهم الى البعض الاخر ، بل هناك ايات كثيرة تنسب قتل الانبياء لاهل الكتاب الذين كانوا معاصرين للنبي الاكرم (ص) والحال انهم لم يقتلوا بل الذي قتل هم اسلافهم ولكن بما ان الخلف موالي ومحب للسلف فنسب فعل السلف الى الخلف ووصفهم بانهم قتلة ، كما قال تعالى : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة : ٩١]
وقال تعالى : {لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ} [المائدة : ٧٠]
ومن المعلوم ان الذي يباشر القتل نفر قليل من بني اسرائيل ولكن الله سبحانه وتعالى ينسبه الى كل من والى واحب اولئك القتلة ولا يكون فرق بين القاتل والموالي للقاتل فان حكم احدهما يسري الى الاخر .
فاذا تبين لنا هذا يكون سؤال الامام عليه السلام لابراهيم واضحا عن اعتقادهما ، لذا اجاب ابراهيم بقوله :
قلت : يا بن رسول الله أجد محبيكم وشيعتكم على ما هم فيه مما وصفته من أفعالهم لو أعطي أحدهم مما بين المشرق والمغرب ذهبا وفضة أن يزول عن ولايتكم ومحبتكم إلى موالاة غيركم وإلى محبتهم ما زال ، ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيكم ، ولو قتل فيكم ما ارتدع ولا رجع عن محبتكم وولايتكم . وأرى الناصب على ما هو عليه مما وصفته من أفعالهم لو أعطي أحدهم ما بين المشرق والمغرب ذهبا وفضة أن يزول عن محبة الطواغيت وموالاتهم إلى موالاتكم ما فعل ولا زال ، ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيهم ، ولو قتل فيهم ما ارتدع ولا رجع ، وإذا سمع أحدهم منقبة لكم وفضلا اشمأز من ذلك وتغير لونه ورئي كراهية ذلك في وجهه ، بغضا لكم ، ومحبة لهم .
فالحب والبغض دين يدان به بل هو حقيقة الدين ، وليس الدين هو تلك الافعال والاقوال التي يقوم بها الانسان ، ففي الخبر الصحيح عن البرقي عن أبيه ، عن حماد بن عيسى ، عن حريز بن عبد الله السجستاني ، عن فضيل بن يسار قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن الحب والبغض ، أمن الايمان هو ؟ - قال : وهل الايمان إلا الحب والبغض ؟ ثم تلا هذه الاية " وحبب إليكم الايمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون " - المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقى ج ١ ص ٢٦٢
وخبر صحيح اخر عن البرقي ، عن أحمد بن أبي نصر ، عن صفوان الجمال ، عن أبي عبيدة الحذا ، عن أبي جعفر (ع) في حديث له قال : يا زياد ويحك وهل الدين

إلا الحب ، ألا ترى إلى قول الله : " إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم " . أو لا ترى قول الله لمحمد صلى الله عليه وآله : " حبب إليكم الايمان وزينه في قلوبكم " . وقال : " يحبون من هاجر إليهم " . فقال : الدين هو الحب ، والحب هو الدين . نفس المصدر

يقول صاحب قوت القلوب :
قد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن ابنه عبد الله رضي الله عنهما: لو أن رجلاً صام النهار لا يفطر، وقام الليل وجاهد، ولم يحب في الله عزّ وجلّ ويبغض في الله ما نفعه ذلك شيئاً . قوت القلوب –ابو طالب المكي- ج٢ ص١٨٤ مرقم اليا غير موافق للمطبوع من موقع الوراق الاليكتروني
وعن البرقي ايضا في خبر صحيح ، عن الحسن بن محبوب ، عن علي بن رئاب ، عن أبي عبيدة الحذاء ، عن أبي عبد الله (ع) قال : من أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فهو ممن كمل إيمانه . نفس المصدر
وهذه الرواية الاخيرة تبين المستند الذي استند اليه ابراهيم في اول السؤال عندما قال : يا بن رسول الله أخبرني عن المؤمن المستبصر إذا بلغ في المعرفة وكمل ، هل يزني ؟ ثم قال اني اجد من شيعتكم الى اخر كلامه ، فهو وصف الشيعة بانهم مستبصرين بالغين في المعرفة كاملين ، لان حبهم لائمتهم انما هو حب في الله ولله وبأمر من الله ، والرواية تقول (فهو ممن كمل ايمانه) والشيعة حينما يدعون المحبة لله ولرسول يثبون ذلك من خلال اتباعهم لاهل بيت نبيهم عليهم السلام ، لان المحبة تستدعي الاتباع للمحبوب واثره كما قال سبحانه : {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران : ٣١]

من المفارقات في الحب
الحب والبغض هو من اوثق عرى الايمان كما ورد ذلك عن النبي (ص) في كتب جمهور المسلمين بطرق متعددة وصحيحة اذكر منها ما استخرجته من الموسوعة الحديثية في موقع الدرر السنية وهو موقع مهم على شبكة الانترنيت يعنى بذكر الحديث ورواته والكتب المذكور فيها ودرجة صحته وهو مرجع علمي عند السلفيين وغيرهم :
عن النبي (ص)
أوثق عرى الإيمان : الموالاة في الله ، و المعاداة في الله ، و الحب في الله ، و البغض في الله عز وجل
الراوي: عبدالله بن عباس و ابن مسعود و البراء بن عازب المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم: ٢٥٣٩
خلاصة حكم المحدث: صحيح
وعنه (ص)

أي عرى الإسلام أوثق قالوا : الصلاة . قال : حسنة ؛ وما هي بها قالوا : صيام رمضان . قال : حسن ؛ وما هو به . قالوا : الجهاد . قال : حسن وما هو به . قال : إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله ، وتبغض في الله .

الراوي: البراء بن عازب المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الترغيب - الصفحة أو الرقم: ٣٠٣٠

خلاصة حكم المحدث: حسن لغيره

وعنه (ص)

أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله ، و المعاداة في الله ، و الحب في الله ، و البغض في الله

الراوي: عبدالله بن عباس المحدث: الألباني - المصدر: السلسلة الصحيحة - الصفحة أو الرقم: ٩٩٨

خلاصة حكم المحدث: قوي بالطرق

وعنه (ص)

أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله ، و المعاداة في الله و الحب في الله ، و البغض في الله

الراوي: عبدالله بن عباس المحدث: الألباني - المصدر: السلسلة الصحيحة - الصفحة أو الرقم: ١٧٢٨

خلاصة حكم المحدث: حسن لشواهده

وعنه (ص)

أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله

الراوي: - المحدث: الألباني - المصدر: النصيحة - الصفحة أو الرقم: ٢٤٠

خلاصة حكم المحدث: قوي بمجموع طرقه، وله إسناد آخر حسن في الشواهد والمتابعات، ورجاله ثقات، وفي بعضهم كلام، ولا يضر فيها

هذه بعض طرق هذا الحديث وهناك طرق اخرى كثيرة له اكتفي بهذا المقدار فهو يبين لنا تأكيد النبي (ص) لهذا الامر المهم ، واذا ضممنا ما ذكرته هذه الروايات الى الروايات التي ذكرت عن النبي (ص) انه لا يحب علي الا مؤمن ولا يبغضه الا منافق ، وهي ايضا وردت بطرق صحيحة اذكر منها طريقين من طرق الجمهور ايضا وهي :

عن امير المؤمنين عليه السلام

عهد إلي النبي الأمي صلى الله عليه وسلم أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق

الراوي: علي بن أبي طالب المحدث: الألباني - المصدر: صحيح ابن ماجه - الصفحة أو الرقم: ٩٢

خلاصة حكم المحدث: صحيح

وبطريق اخر عنه عليه السلام

عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق

الراوي: علي بن أبي طالب المحدث: الألباني - المصدر: صحيح النسائي - الصفحة أو الرقم: ٥٠٣٧

خلاصة حكم المحدث: صحيح

اذا ضممت هذه الى تلك لا ينقضي عجبك من الذين يدعون الايمان وهم اما لا يحبون علي في الله والحال انهم ينقلون ذلك في اصح كتبهم وبطرق هم يشهدون بصحتها وهو ان من اوثق عرى الايمان الحب والبغض في الله ، واما انهم يحبون علي عليه السلام ولكن ليس هو فقط بل يحبون ايضا من قاتله كمعاوية وغيره ، ويقولون كلهم صحابة النبي (ص) .

فهل الذي يسن سب علي عليه السلام على منابر المسلمين ثمانين عاما ويقاتل علي عليه السلام محب له او مبغض اشد البغض ؟
فالذي يبغض علي عليه السلام مع عدم محاربته هو منافق بنص الرواية السابقة ، فما بالك بالذي يؤلب الناس على قتاله ويسوق جيوش جرارة تطحن برحاها آلآف المسلمين من المهاجرين والانصار ، فهل يحكم في مثل هذا بانه مسلم فضلا عن كونه مؤمنا ؟!
الجواب : انه منافق في الدرك الاسفل من النار بنص الروايات الصحيحة المذكورة في كتب القوم ، وهم يحكمون بصحتها ، ولكن على مستوى العمل بها لا نجد كثير منهم يعملون بمقتضاها ، بل يخالفونها اما عن علم واما عن جهل ، فمثل ابن تيمية واتباعه تجد كتبه طافحة ببغض علي عليه السلام ، وحب اعدائه ويترضى على معاوية ويزيد واتباعهم ، وهو بذلك يضرب كلام النبي (ص) بعرض الجدار .

فالامة الاسلامية تنقسم في محبة اهل بيت النبوة الى ثلاثة اقسام :
قسم منها يبغضون اهل البيت وينصبون لهم العداء ويحسدونهم على ما اتاهم الله من فضله ، وهؤلاء وصل بهم الحال انهم حاربوا امير المؤمنين واهل بيته عليهم السلام ولاحقوا اصحابه ومحبيه ومتبعيه بالقتل والتعذيب والتشريد والسجن ، والتاريخ طافح بمثل هذه الاخبار حتى ان سب على على المنابر اصبح سنة تتبع قرابة قرن من الزمان ، بل بعضهم ترك الصلاة على النبي (ص) بغضا بأهل بيته عليهم السلام فهؤلاء خالفوا النبي (ص) جهارا نهارا ، وضربوا بوصاياه عرض الجدار ، وكأن القران اوصى ببغضهم وقتالهم ، بل لو اوصى القران ببغضهم وقتالهم لم يزد هؤلاء على ما فعلوا ، فكيف والقران الكريم ينادي { قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} [الشورى : ٢٣]
وقسم اخر يدعون المحبة لاهل بيت النبي (ص) ويعترفون ان الله سبحانه وتعالى فرض محبتهم ومودتهم بالقران ، ولكن ادعاءا فقط لان القران الكريم لا يريد ادعاء الحب من دون اتباع كيف تدعي ان تحب شخص وانت توالي عدوه وتكون في صف العدو وتدافع عنه ؟!
كيف تكون محبا له وانت تأخذ بكل رأي الا رأيه وتتبع كل من ليس له سابقة بالدين ولا معرفة له بشريعة سيد المرسلين وتترك اهل بيت الوحي والتنزيل ؟! أي محبة هذه ؟! لو جئنا الى كتب العامة كم رواية عن اهل بيت النبي (ص) يذكرونها في كتبهم ؟ وكم من احكام الدين يأخذونها عنهم ؟ واذا نقلوا حكما عن الرسول ونقل غيرهم حكما اخر فاي الحكمين يقدمون ؟ مما لا شك فيه ان احكام غيرهم هي المقدمة ، واتباع غيرهم هو الاولى عندهم ومولاة اعدائم من الامور المسلمة لديهم ، حتى يقول قائلهم ان سيدنا يزيد قتل سيدنا الحسين ، وان سيدنا معاوية حارب سيدنا علي ، فما اعجب من قلب يجتمع به الحبيب والعدو معا .
يا ترى هل كان كل الناس يعرفون الدين اكثر مما يعرفه اهل بيت النبي صلوات الله عليه وعليهم ؟ كما تقول سيدة نساء العالمين صلوات الله عليها : ويحهم أنى

زحزحوها عن رواسي الرسالة ، وقواعد النبوة، ومهبط الوحي الامين، والطبين بأمر الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين.– بحار الانوار – المجلسي ج٤٣ ص١٥٨
فهل مثل هؤلاء يصح ان يقال عنهم انهم محبون ؟ وهل هذا وارد في شريعة الحب؟!
وقسم ثالث من الامة احبوهم واخلصوا لهم المودة وتبرأوا من اعدائهم وتمسكوا بحجزتهم وساروا على نهجم وركبوا سفينتهم ، حتى نالهم من ذلك بلاء لا تحتمله الجبار الرواسي ،على امتداد التاريخ ، ليس ذلك بذنب اقترفوه الا انهم اتبعوا امر الله ورسوله في محبة اهل بيت النبوة ، ومع كل ما حصل لهم ويحصل هم متمسكون اشد التمسك بهم ومقتفون آثارهم ، ولا عبرة عندهم لما بأيدي الناس من احكام منسوبة الى الدين ، وانما يأخذون احكام دينهم من اهل بيت العصمة والطهارة وكل ما خالف قولهم فانهم يرمون به عرض الحائط ولا قيمة له ، لانه ليس من الدين .
ان قلت ان هؤلاء ايضا منهم من يعصي الله والرسول واهل البيت عليهم السلام فما الفرق اذن بين هؤلاء واؤلئك ؟
قلت الفارق كما بين السماء والارض ، فالذي باني عقيدته على التمسك بالنبي (ص) واهل بيته عليهم السلام وباني اخذ كل احكام الدين والشرع المبين منهم عليهم السلام ، وان بدت منه المعصية بين الحين والاخر بسبب من الاسباب فهذا ليس كمن هو مبغض لهم او يدعي محبتهم ويوالي اعدائم ويأخذ دينه من غيرهم .

استعمال لفظ الشيعي والمحب
الشيعة كما يقول الراغب في مفرداته: من يتقوى بهم الإنسان وينتشرون عنه .
والروايات استعملت لفظ الشيعة تارة بمعنى عام واخرى بمعنى خاص ، والمعنى العام هو الشامل لكل متبع للحق سواء منهم العادل والعاصي ، والمعنى الخاص هم المتبعين للحق الملتزمين بكل ما ترتب عليه ، فهم اهل التقوى والورع والزهد وكل فضيلة ، ذكر الصدوق في صفات الشيعة عن ابى جعفر (ع) انه قال : يا ابا المقدام انما شيعة على صلوات الله عليه الشاحبون الناحلون الذابلون ذابله شفاههم من القيام خميصة بطونهم مصفره ألوانهم متغيرة وجوههم إذا جنهم الليل اتخذوا الأرض فراشا واستقبلوها بجباههم باكية عيونهم ، كثيرة دموعهم ، صلاثهم كثيرة ، ودعاؤهم كثير ، تلاوتهم كتاب الله ، يفرحون الناس و هم يحزنون . - صفات الشيعة- الشيخ الصدوق ص ١٠
وعن مسعدة بن صدقه ، قال سئل أبو عبدالله (ع) عن شيعتهم ، فقال شيعتنا من قدم ما استحسن وامسك ما استقبح وأظهر الجميل و سارع بالأمر الجليل رغبة الى رحمة الجليل فذاك منا والينا ومعنا حيث ما كنا . - صفات الشيعة- الشيخ الصدوق ص ١٧
وعن ابى بصير عن ابى عبد الله (ع) قال قلت جعلت فداك صف لى شيعتك ، قال (ع) شيعتنا من لا يعدو صوته سمعه ، ولا شحناؤه بدنه ، و لا يطرح كله غيره ، و لا يسأل غير اخوانه ، و لو مات جوعا ، شيعتنا من لايهر هرير الكلب ، و لا يطمع طمع الغراب شيعتنا الخفيفه عيشهم المنتقلة ديارهم ، شيعتنا الذين فى أموالهم حق معلوم ويتوانسون ، و عند الموت لا يجزعون وفى قبورهم يتزاورون ، قال قلت جعلت فداك فاين اطلبهم قال فى أطراف الأرض و بين الأسواق ، كما قال الله عزوجل فى كتابه . - صفات الشيعة- الشيخ الصدوق ص ١٧

وهذا المعنى الخاص هو الذي تنفيه الروايات عن اشخاص هم من متبعي الحق ولكنهم مقصرين في بعض جوانبه ، فعن البحار قال رجل للحسين بن علي عليهما السلام : يا ابن رسول الله أنا من شيعتكم ، قال : اتق الله ولا تدعين شيئا يقول الله لك كذبت وفجرت في دعواك ، إن شيعتنا من سلمت قلوبهم من كل غش وغل ودغل ، ولكن قل أنا من مواليكم ومحبيكم .
وقال رجل لعلي بن الحسين عليهما السلام : يا ابن رسول الله أنا من شيعتكم الخلص فقال له : يا عبد الله فإذا أنت كإبراهيم الخليل عليه السلام الذي قال الله " وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم " فإن كان قلبك كقلبه فأنت من شيعتنا ، وإن لم يكن قلبك كقلبه وهو طاهر من الغش والغل ، فأنت من محبينا وإلا فإنك إن عرفت أنك بقولك كاذب فيه ، إنه لمبتلى بفالج لا يفارقك إلى الموت أو جذام ليكون كفارة لكذبك هذا . بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٥ - ص ١٥٦
هذه الروايات وغيرها كثير تبين الشيعة بالمعنى الخاص الذين هم مشايعون ومتابعون اهل البيت عليهم السلام قلبا وقالبا مقتفون لاثارهم في كل صغيرة وكبيرة ، فهم الكاملون علما وعملا .
وهناك روايات كثيرة تذكر قوم من الشيعة اصحاب كبائر ومعاصي ، فاطلاق الشيعة عليهم بالمعنى العام كما عن الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : إن الله ليدفع بمن يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا ولو أجمعوا على ترك الصلاة لهلكوا ، وإن الله ليدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي ولو أجمعوا على ترك الزكاة لهلكوا ، وإن الله ليدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج ولو أجمعوا على ترك الحج لهلكوا وهو قول الله عز وجل : " ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين " فوالله ما نزلت إلا فيكم ولا عنى بها غيركم . - الكافي - الشيخ الكليني ج ٢ ص ٤٥١
وعن الكافي ايضا عن عمرو بن يزيد قال : قلت لابي عبد الله (عليه السلام) : إني سمعتك وأنت تقول : كل شيعتنا في الجنة على ما كان فيهم ؟ قال : صدقتك كلهم والله في الجنة ، قال : قلت : جعلت فداك إن الذنوب كثيرة كبار ؟ فقال : أما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعة النبي المطاع أو وصي النبي ولكني والله أتخوف عليكم في البرزخ . قلت : وما البرزخ ؟ قال : القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة .
- الكافي - الشيخ الكليني ج ٣ ص ٢٤٢
وفي الكافي ايضا في رواية طويلة عن ابي عبد الله عليه السلام يبين لابي بصير فضل الشيعة : فقال : يا أبا محمد إن لله عز وجل ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهور شيعتنا كما يسقط الريح الورق في أوان سقوطه وذلك قوله عز وجل : " الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم . . . ويستغفرون للذين آمنوا (٣) " استغفارهم والله لكم دون هذا الخلق ، يا أبا محمد فهل سررتك ؟ الكافي - الشيخ الكليني ج ٨ ص ٣٤
هذه روايات تذكر ان الشيعة عندهم ذنوب وتلك الروايات تذكر انهم ذوي مراتب عالية والجمع بين الطائفتين هو ان نحمل تلك على الفرد الاكمل يعني الكامل في التشيع وهذه الروايات على من هو دون ذلك والائمة عليهم السلام يريدون من اتباعهم ان يصلوا الى اعلى الدرجات في القرب الالهي فنجد انهم يحثونهم على الجد

والاجتهاد في طلب مرضاة الله سبحانه وتعالى فعن أبى عبد الله جعفر بن محمد صلوات الله عليه أنه قال للمفضل :
أي مفضل ، قل لشيعتنا : كونوا دعاة إلينا بالكف عن محارم الله واجتناب معاصيه ، واتباع رضوان الله ، فإنهم إذا كانوا كذلك ، كان الناس إلينا مسارعين .
- دعائم الاسلام - القاضي النعمان المغربي ج ١ ص ٥٨
والروايات تارة عبرت بالشيعي واخرى بالمحب والموالي وبعضها فرقت بين الشيعي والمحب وان الشيعي اعلى مرتبة من المحب فانها تريد ان تقول انك تحب قلبا واما قولا وفعلا قد لايكون متحقق .
ذكر البرقي عن أبي حمزة الثمالي ، عن علي بن الحسين عليهما السلام قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وآله : في الجنة ثلاث درجات ، وفي النار ثلاث دركات ، فأعلى درجات الجنة لمن أحبنا بقلبه ونصرنا بلسانه ويده ، وفي الدرجة الثانية من أحبنا بقلبه ونصرنا بلسانه ، وفي الدرجة الثالثة من أحبنا بقلبه ، وفي أسفل درك من النار من أبغضنا بقلبه وأعان علينا بلسانه و يده ، وفي الدرك الثانية من النار من أبغضنا بقلبه وأعان علينا بلسانه ، وفي الدرك الثالثة من النار من أبغضنا بقلبه . المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقي - ج ١ - ص ١٥٣
فهذا الرواية تفصل بين الحب فقط له درجة في الجنة وبين المحب والمناصر لهم بلسانه له درجة اعلى وبين المحب بقلبه ومناصر بلسانه ويده فهذا في درجة اعلى فالمحبة لاولياء الله سبحانه تورث الجنة اما التفاوت بدرجاتها يكون بحسب الاتباع والنصرة للحق واهله لذا نجد الروايات السابقة تقول لمدعي التشيع انك محب وانك على خير يعني ان مصيره الى السعادة
كما ان البغض لاولياء الله يورث النار ويبقى اختلاف الدركات حسب اعلان العداوة والمحاربة باليد واللسان او باليد فقط .

درجات المحبين

وهناك روايات بينت ان المحبين على درجات والتفاوت بينهم في المحبة ناتج عن التفاوت في معرفة الحق سبحانه كما في هذه الرواية التي هي من غرر الروايات :
دخل على الصادق عليه السلام رجلا فقال عليه السلام له : ممن الرجل ؟ فقال من محبيكم ومواليكم ، فقال له جعفر عليه السلام : لا يحب الله عبد حتى يتولاه . ولا يتولاه حتى يوجب له الجنة . ثم قال له : من أي محبينا أنت ؟ فسكت الرجل فقال له سدير : وكم محبوكم يا ابن رسول الله ؟ فقال : على ثلاث طبقات :
طبقة أحبونا في العلانية ولم يحبونا في السر .
وطبقة يحبونا في السر ولم يحبونا في العلانية .
وطبقة يحبونا في السر والعلانية ، هم النمط الاعلى ، شربوا من العذب الفرات وعلموا تأويل الكتاب وفصل الخطاب وسبب الأسباب ، فهم النمط الاعلى ، الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا وفتنوا ، فمن بين مجروح ومذبوح متفرقين في كل بلاد قاصية ، بهم يشفي الله السقيم ويغني العديم وبهم تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون وهم الأقلون عددا ، الأعظمون عند الله قدرا وخطرا .

والطبقة الثانية النمط الأسفل أحبونا في العلانية وساروا بسيرة الملوك ، فألسنتهم معنا وسيوفهم علينا .
والطبقة الثالثة النمط الأوسط أحبونا في السر ولم يحبونا في العلانية ولعمري لئن كانوا أحبونا في السر دون العلانية فهم الصوامون بالنهار القوامون بالليل ترى أثر الرهبانية في وجوههم ، أهل سلم وانقياد .
قال الرجل : فأنا من محبيكم في السر والعلانية .
قال جعفر عليه السلام : إن لمحبينا في السر والعلانية علامات يعرفون بها .
قال الرجل : وما تلك العلامات ؟
قال عليه السلام : تلك خلال أولها أنهم عرفوا التوحيد حق معرفته وأحكموا علم توحيده . والايمان بعد ذلك بما هو وما صفته ، ثم علموا حدود الايمان وحقائقه وشروطه وتأويله .
قال سدير : يا ابن رسول الله ما سمعتك تصف الايمان بهذه الصفة ؟
قال : نعم يا سدير ليس للسائل أن يسأل عن الايمان ما هو حتى يعلم الايمان بمن .
قال سدير : يا ابن رسول الله إن رأيت أن تفسر ما قلت ؟
قال الصادق عليه السلام : من زعم أنه يعرف الله بتوهم القلوب فهو مشرك . ومن زعم أنه يعرف الله بالاسم دون المعنى فقد أقر بالطعن ، لان الاسم محدث . ومن زعم أنه يعبد الاسم والمعنى فقد جعل مع الله شريكا . ومن زعم أنه يعبد المعنى بالصفة لا بالادراك فقد أحال على غايب . ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لان الصفة غير الموصوف . ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغر بالكبير وما قدروا الله حق قدره .
قيل له : فكيف سبيل التوحيد ؟ قال عليه السلام . باب البحث ممكن وطلب المخرج موجود إن معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه .
قيل : وكيف نعرف عين الشاهد قبل صفته ؟
قال عليه السلام : تعرفه وتعلم علمه وتعرف نفسك به ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك . وتعلم أن ما فيه له وبه كما قالوا ليوسف : " إنك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي " فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهم القلوب أما ترى الله يقول : " ما كان لكم أن تنبتوا شجرها " يقول : ليس لكم أن تنصبوا إماما من قبل أنفسكم تسمونه محقا بهوى أنفسكم وإرادتكم .
ثم قال الصادق عليه السلام : ثلاثة " لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيمة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم " من أنبت شجرة لم ينبته الله يعني من نصب إماما لم ينصبه الله ، أو جحد من نصبه الله . ومن زعم أن لهذين سهما في الاسلام . وقد قال الله : " وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة. " تحف العقول - ابن شعبة الحراني - ص ٣٢٥ – ٣٢٩

وفي ذيل هذه الرواية يوجد كلام للعلامة الطباطبائي من المفيد نقله هنا قال :
اعلم أن حقيقة كل واحد من الأشياء كائنة ما كانت هي عينها الموجود في الخارج فحقيقة زيد مثلا هي العين الانساني الموجود في الخارج وهو الذي يتميز بنفسه عن كل شئ ولا يختلط بغيره ولا يشتبه شئ من أمره هناك مع من سواه . ثم إنا ننتزع منه معاني ناقلين إياها إلى أذهاننا نتعرف بها حال الأشياء ونتفكر بها في أمرهما

كمعاني الانسان وطويل القامة والشاب وأبيض اللون وغير ذلك وهي معان كلية إذا اجتمعت وانضمت أفادت نوعا من التميز الذهني نقنع به وهذه المعاني التي ننالها ونأخذها من العين الخارجية هي آثار الروابط التي بها ترتبط بنا تلك العين الخارجية نوعا من الارتباط والاتصال كما أن زيدا مثلا يرتبط ببصرنا بشكله ولونه ويرتبط بسمعنا بصوته وكلامه ويرتبط بأكفنا ببشرته فنعقل منه صفة طول القامة والتكلم ولين الجلد ونحو ذلك فلزيد مثلا أنواع من الظهور لنا تنتقل بنحو إلينا وهي المسماة بالصفات وأما عين زيد ووجود ذاته فلا تنتقل إلى أفهامنا بوجه ولا تتجافى عن مكانه ولا طريق إلى نيله إلا أن نشهد عينه الخارجية بعينها ولا نعقل منها في أذهاننا إلا الأوصاف الكلية فافهم ذلك وأجد التأمل فيه .

ومن هذا البيان يظهر أنا لو شاهدها عين زيد مثلا في الخارج ووجدناه بعينه بوجه مشهودا فهو المعروف الذي ميزناه حقيقة عن غيره من الأشياء ووحدناه واقعا من غير أن يشتبه بغيره ثم إذا عرفنا صفاته واحدة بعد أخرى استكملنا معرفته والعلم بأحواله .

وأما إذا لم نجده شاهدا و توسلنا إلى معرفته بالصفات لم نعرف منه إلا أمورا كلية لا توجب له تميزا عن غيره ولا توحيد في نفسه كما لو لم نر مثلا زيدا بعينه وإنما عرفناه بأنه انسان أبيض اللون طويل القامة حسن المحاضرة بقي على الاشتراك حتى نجده بعينه ثم نطبق عليه ما نعرفه من صفاته وهذا معنى قوله عليه السلام : " إن معرفة عين الشاهد قبل صفته ، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه " .

ومن هنا يتبين أيضا أن توحيد الله سبحانه حق توحيده أن يعرف بعينه أولا ثم تعرف صفاته لتكميل الايمان به لا أن يعرف بصفاته وأفعاله فلا يستوفى حق توحيده . وهو تعالى هو الغنى عن كل شئ ، القائم به كل شئ فصفاته قائمة به وجميع الأشياء من بركات صفاته من حياة وعلم وقدرة ومن خلق ورزق وإحياء وتقدير وهداية وتوفيق ونحو ذلك فالجميع قائم به مملوك له محتاج إليه من كل جهة .

فالسبيل الحق في المعرفة أن يعرف هو أولا ثم تعرف صفاته ثم يعرف بها ما يعرف من خلقه لا بالعكس . ولو عرفناه بغيره لن نعرفه بالحقيقة ولو عرفنا شيئا من خلقه لا به بل بغيره فذلك المعروف الذي عندنا يكون منفصلا عنه تعالى غير مرتبط به فيكون غير محتاج إليه في هذا المقدار من الوجود فيجب أن يعرف الله سبحانه قبل كل شئ ثم يعرف كل شئ بماله من الحاجة إليه حتى يكون حق المعرفة وهذا معنى قوله عليه السلام : " تعرفه وتعلم علمه . . الخ " أي تعرف الله معرفة إدراك لا معرفة توصيف حتى لا تستوفى حق توحيده وتمييزه وتعرف نفسك بالله لأنك أثر من آثاره لا تستغنى عنه في ذهن ولا خارج ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك حتى تثبت نفسك مستغنيا عنه فتثبت إلها آخر من دون الله من حيث لا تشعر ، وتعلم أن ما في نفسك لله وبالله سبحانه لا غنى عنه في حال (ولعل تذكير الضمير الراجع إلى النفس من جهة كسب التذكير بالإضافة) . وأما قوله : " وتعلم علمه " فمن الممكن أن يكون من القلب أي تعلمه علما . أو من قبيل المفعول المطلق النوعي ، أو المراد العلم الذاتي أو مطلق صفة علمه تعالى .

وأما قوله : " كما قالوا ليوسف الخ " فمثال لمعرفة الشاهد بنفسه لا بغيره من المعاني والصفات و نحوهما .
وكذا قوله : " أما ترى الله يقول : ما كان لكم الخ " مثال آخر ضربه عليه السلام وأوله إلى مسألة نصب الإمام وأن إيجاد عين هذه الشجرة الطيبة إلى الله سبحانه لا إلى غيره .
والحديث مسوق لبيان أن الله سبحانه لا يعرف بغيره حق معرفته بل لو عرف فإنما يعرف بنفسه ويعرف غيره به فهو في مساق ما رواه الصدوق في التوحيد بطريقين عن عبد الاعلى عن الصادق عليه السلام قال : ومن زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك لان الحجاب والصورة والمثال غيره ، وإنما هو واحد موحد فكيف يوحد من زعم أنه عرفه بغيره ، إنما عرف الله من عرفه بالله فمن لم يعرفه به فليس يعرفه إنما يعرف غيره - إلى أن قال - : لا يدرك مخلوق شيئا الا بالله ، و لا تدرك معرفة الله الا بالله . الحديث .
ومن جميع ما تقدم يظهر معنى قوله عليه السلام " ومن زعم - إلى قوله - : حق قدره " فقوله : " ومن زعم أنه يعرف الله بتوهم القلوب فهو مشرك " لأنه يعبد مثالا أثبته في قلبه وليس بالله ، وقوله : " ومن زعم أنه يعرف الله بالاسم الخ " لأنه طعن فيه تعالى بالحدوث ، وقوله : " ومن زعم أنه يعبد الاسم " والمعنى الخ " فان الاسم غير المعنى . وقوله : " ومن زعم أنه يعبد بالصفة لا بالادراك فقد أحال على غائب " أي أثبت وعبد الها غائبا ، وليس تعالى غائبا عن خلقه وقد قال : "(أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد . ألا انهم في مرية من لقاء ربهم ألا أنه بكل شئ محيط)حم السجدة - ٥٤ وقد مر بيان ذلك ، وقوله : " ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد " بناء على دعواه مغايرة الصفة الموصوف . وقوله : " ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغر بالكبير الخ " بأن يزعم أنه يعرف الله سبحانه بما يجد له من الصفات كالخلق والاحياء والإماتة والرزق ، وهذه الصفات لا محالة صفات الافعال فقد صغر بالكبير فان الله سبحانه أكبر وأعظم من فعله المنسوب إليه وما قدروا الله حق قدره . والفرق بين معرفته بإضافة الموصوف إلى الصفة ومعرفته بالصفة لا بالادراك أن الأول يدعى مشاهدته تعالى بمشاهدة صفته والثاني يدعى معرفته بالتوصيف الذي يصفه به فالمراد بالصفة في الفرض الأول صفاته الفعلية القائمة به نحو قيام ، وفى الفرض الثاني البيان والوصف الذي يبينه الزاعم سواء كان من صفاته تعالى أم لا هذا ، ولمغايرة الصفة الموصوف معنى آخر أدق مما مر يقتضى بسطا من الكلام لا يسعه المقام . " تحف العقول - ابن شعبة الحراني - ص ٣٢٥ _ ٣٢٩

تقييم الناس وفق الاعتقاد
هي ان الامام عليه السلام اراد ان يبين لابراهيم ان المدار في الحكم على جماعة من الناس انما يكون وفق ماهم عليه من الاعتقاد ، وان الشيعة الذين سأل عنهم ابراهيم ، بأعترافه هو لو فُعل بهم ما فُعل واعطوا مااعطوا على ان يتركوا اهل بيت النبوة مافعلوا ، وان غيرهم ليس كذلك ، لذا جعل الامام عليه السلام العقيدة أي الولاء والمحبة هي المرتكز ونقطة الانطلاق لجوابه عليهم السلام .

وهذه الفقرة من الرواية قد ذكرنا المؤيد لها في روايات الحب والبغض ، فلا نحتاج لان نأتي لها بشاهد اخر على صحتها ، لانا قلنا بما ان الروية ضعيفة من حيث السند فنأتي بشواهد على صحة فقراتها

اصناف الناس

المؤمنون هم من تبين لهم الحق وقبله وعقد قلبه عليه ، وهم اما يلتزم بكل ما يترتب على ذلك الحق ، واما يلتزم في الاغلب ويعصي في بعض الاحيان لا لانه يعاند الحق وانما لضغط بعض الشهوات والرغبات والاهواء يعصي ، فاهل الايمان اما عادل وهو من لم يعص واما فاسق عاصي ، وكل قسم منهما يتفاوت اصحابه حب معرفتهم والتزامهم بالحق ، والمؤمنون اهل النجاة والسعادة في الاخرة .

والجاحدون هم المبغضون للحق واهله بعد ان تبين لهم باجلى صوره وسطعت لهم حججه وبراهينه ، ايضا يتفاوتون بحجودهم وعنادهم شدة وضعفا ، وهؤلاء اهل الشقاء في الاخرة .

والضالون وهم من لم يتبع الحق ولم يجحد به بسبب الجهل وعدم العلم به ، فهم اهل الضلال ، وهم ايضا يتفاوتون فيما بينهم ، فبعض منهم حصل له الجهل بسبب اهماله لطلب المعرفة وعدم تكبد عناء الطلب فهو بسبب طلبه للراحة لا يسعى لمعرفة الحق وهؤلاء فضلاً عن معاقبتهم على اعمالهم السيئة يعاقبون ايضا على تقصيرهم عن طلب المعرفة .

وبعض لم يطلب لاسباب منعته عن طلب المعرفة وهذه الاسباب اما ان تكون داخلية ترجع الى خلقته من ضعف الادراك الناشئ من البله اوكبر السن او صغره ، او مرض نفسي او عضوي او غير ذلك ، واما ان تكون خارجية كأن يكون في بلد لا تصل اليه المعرفة ولا يستطيع الخروج منه لفقر او منع ظالم او ما شاكل ذلك .

وبعض طلب الحق وسعى للمعرفة ولكنه لم يصل اليه ، اما بسبب قصور ادوات الطلب او المعرفة واما بسبب استحكام بعض الشبهات التي لايقوى على دفعها واما بسبب الخلفية الفكرية والعقائدية التي عند الباحث التي تجعله لا شعوريا يحرف مسير البحث حتى يصل الى نتائج توافق خلفيته الفكرية .

فاهل الضلال يجمعهم الجهل بالحق واهله ، فمن كان منهم قاصرا عن الطلب لاسباب داخلية او خارجية او انه طلب ولم يصل الى الحق لسبب من الاسباب ، فهؤلاء معذورون في جهلهم ، ولكن يحاسبون على معاصيهم ان كانت عندهم معاصي ، ومن كان منهم مقصرا عن الطلب والبحث عن الحق فهم محاسبون عن عدم السعي للمعرفة ومحاسبون ايضا على المعاصي ان كان عندهم معاصي ، ولكن في النتيجة لا يكونوا من اهل الخلود في النار ، لانهم ليس عندهم عناد وبغض للحق واهله .

ورد في الكافي عن حمزة بن الطيار قال :

قال أبو عبد الله (عليه السلام) :

الناس على ست فرق ، يؤولون كلهم إلى ثلاث فرق : الايمان والكفر والضلال ، وهم أهل الوعدين الذين وعدهم الله الجنة والنار : المؤمنون والكافرون والمستضعفون

والمرجون لامر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والمعترفون بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وأهل الاعراف . - الكافي - الشيخ الكليني ج ٢ ص ٣٨١

وايضا عن حمزة بن الطيار قال :
قال لي أبو عبد الله (عليه السلام) : الناس على ستة أصناف . قلت : أتأذن لي أن أكتبها ؟ قال : نعم قلت : ما أكتب ؟ قال : اكتب أهل الوعيد من أهل الجنة وأهل النار واكتب " و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا " قال : قلت : من هؤلاء قال : وحشي منهم قال : واكتب " وآخرون مرجون لامر الله إما يعذبهم و إما يتوب عليهم " قال : واكتب " إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا " لا يستطيعون حيلة إلى الكفر ، ولا يهتدون سبيلا إلي الايمان " فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم " قال : واكتب أصحاب الاعراف قال قلت ؛ وما أصحاب الاعراف ؟ قال : قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فإن أدخلهم النار فبذنوبهم وإن أدخلهم الجنة فبرحمته . - الكافي - الشيخ الكليني ج ٢ ص ٣٨١
وفي المحاسن عن زرارة قال : سئل أبو عبد الله عليه السلام وأنا جالس عن قول الله عز وجل : " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " يجري لهؤلاء ممن لا يعرف منهم هذا الامر ؟ - فقال : إنما هذه للمؤمنين خاصة ، قلت له : أصلحك الله أرأيت من صام وصلى واجتنب المحارم وحسن ورعه ممن لا يعرف ولا ينصب ؟ - فقال : ان الله يدخل أولئك الجنة برحمته . المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقي - ج ١ - ص ١٥٨
وقال صاحب الحدائق رحمه الله :
المستضعفون ، والجاهلون بأمر الامامة ، وهم أكثر الناس في زمان الائمة عليهم السلام كما استفاضت به الاخبار من تقسيم الناس يومئذ إلى الاصناف الثلاثة ، مؤمن ، وضال وهو من لا يعرف ولا ينكر ، وكافر ، وهو من انكر الولاية ، وهذا القسم أعنى أهل الضلال مما صرحت الاخبار بأنهم من المسلمين ، وليسوا بالمؤمنين ، ولا الكافرين ، وأنهم في الدنيا يعاملون بمعاملة المسلمين ، وتجرى عليهم أحكام الاسلام ، وفي الاخرة من المرجئين لامر ا لله ، إما يعذبهم ، وإما يتوب عليهم ، بل ربما دلت بعض الاخبار على دخولهم الجنة بسعة الرحمة الالهية ، وأما المنكرون للامامة وهم المشار إليهم في الاخبار بالنصاب ، فهم من الكفار الحقيقيين ، خلافا للمشهور بين علمائنا المتأخرين . - الحدائق الناضرة - المحقق البحراني ج ٢٢ ص ٥١٠
هل الناس صنفين او ثلاثة ؟
ان قلت ان اخبار الطينة ذكرت ان الناس صنفين خلقوا من طينة طيبة ومن طينة خبيثة وهم اهل الولاية والناصبين العداء للحق واهله ولم تذكر اهل الضلال ، فكيف اصبحت الاقسام ثلاثة ؟ فهم اما خلقوا من الطينة الطيبة فيكونوا من اهل الولاية والحال انهم جاهلون بها ، واما خلقوا من الطينة الخبيثة فيكونوا من الناصبين والحال انهم غير معادين للحق واهله ، فاذا كان اصناف الناس ثلاثة فلا بد من ذكرها في الروايات والحال ان الروايات ذكرت صنفين ، فكيف قلتم انهم ثلاثة اصناف ؟

قلت ان الروايات قسمت الناس الى صنفين باعتبار ان هذين الصنفين هم الابرز وهم الاصل لان الحق عندما تلوح معالمه ويسفر عن وجهه فأما يخضع له ويتبع واما يجحد ويحارب ، فهذا القسمان هما الابرز في التقسيم والروايات لاحظت القسم الابرز ، ومع ذلك فهناك روايات ذكرت ان الاقسام ثلاثة فلم تهمل القسم الثالث ، ففي بصائر الدرجات عن عبد الغفار الجاري عن أبي عبد الله عليه السلام قال :
إن الله خلق المؤمن من طينة الجنة وخلق الناصب من طينة النار وقال إذا أراد الله بعبد خيرا طيب روحه وجسده فلا يسمع شيئا من الخير الا عرفه ولا يسمع شيئا من المنكر الا أنكره قال وسمعته يقول الطينات ثلاثة طينة الأنبياء والمؤمن من تلك الطينة الا ان الأنبياء هم صفوتها وهم الأصل ولهم فضلهم والمؤمنون الفرع من طينة لازب كذلك لا يفرق الله بينهم وبين شيعتهم وقال طينة الناصب من حماء مسنون واما المستضعفون فمن تراب لا يتحول مؤمن عن ايمانه ولا ناصب عن نصبه ولله المشية فيهم جميعا . بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص ٣٦

هل الضال والعاصي عل درجة واحدة ؟
ان قلت اذا كان اهل الضلال ممن تدركهم الرحمة الالهية ويكونوا من اهل السعادة فما هو الفرق بينهم وبين من اعتقد بالحق ولكنه عصى فهو ايضا يعاقب وبعد ذلك يكون من اهل السعادة .
فالنتيجة يكون من اعتقد بالحق ومن لم يعتقد به على حد سواء ، فلا مزية لمن عرف الحق ، فكيف تقولون ان اهل الولاية والتشيع يختلفون عن غيرهم ؟
قلت نجيب نقضا وحلا :
اما نقضا لو قلنا انهم جعلوا من اهل الشقاء الدائم لكانوا هم واهل الجحود والعناد على حد سواء ، ولا مزية هناك لاهل الجحود والعناد للحق واهله ، والحال ان المستضعف لا ينكر ولا يعادي الحق فكيف يكون هو ومن ينكر ويعادي على حد سواء ؟
وحلا انا عندما نقول ان اهل الضلال من الناجين يتصور البعض ان القعاب والنار هو بمستوى واحد ، وان الثواب والجنة بدرجة واحدة ، وليس الامر كما تصور هؤلاء البعض .
فاهل الحق ومتبعيه الذين كانت عندهم معاصي قلنا انهم يطهرون منها في الدنيا ، فان بقي منها شيء فعند الموت والبرزخ ، فان بقي منها شيء ففي القيامة واهوالها فان بقي منها شيء ففي اعلى دركات النار ، أي اضعف مراتبها حتى يطهر مابقي عليه من آثار المعاصي كما ورد في تفسير الإمام العسكري :
قال عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اتقوا الله معاشر الشيعة فان الجنة لن تفوتكم وإن أبطأت بها عنكم قبايح أعمالكم ، فتنافسوا في درجاتها ، قيل : فهل يدخل جهنم أحد من محبيك ومحبي علي عليه السلام ؟
قال من قذر نفسه بمخالفة محمد وعلي وواقع المحرمات ، وظلم المؤمنين والمؤمنات ، وخالف ما رسم له من الشريعات جاء يوم القيامة قذرا طفسا ، يقول محمد وعلي عليهما السلام يا فلان أنت قذر طفس لا تصلح لمرافقة مواليك الأخيار ، ولا لمعانقة

الحور الحسان ، ولا الملائكة المقربين لا تصل إلى ما هناك إلا بأن تطهر عنك ما ههنا ، يعني ما عليك من الذنوب ، فيدخل إلى الطبق الاعلى من جهنم فيعذب ببعض ذنوبه . ومنهم من يصيبه الشدائد في المحشر ببعض ذنوبه ثم يلقطه من هنا ومن هنا من يبعثهم إليه مواليه من خيار شيعتهم ، كما يلقط الطير الحب ، ومنهم من يكون ذنوبه أقل وأخف فيطهر منها بالشدائد والنوائب من السلاطين وغيرهم ، ومن الآفات في الأبدان في الدنيا ليدلي في قبره وهو طاهر ، ومنهم من يقرب موته وقد بقيت عليه سية فيشتد نزعه ويكفر به عنه ، فان بقي شئ وقويت عليه ، يكون له بطر واضطراب في يوم موته فيقل من بحضرته فيلحقه به الذل فيكفر عنه ، فان بقي شئ اتي به ولما يلحد فيوضع فيتفرقون عنه ، فيطهر . فإن كان ذنوبه أعظم وأكثر طهر منها بشدائد عرصات يوم القيامة ، فإن كانت أكثر وأعظم طهر منها في الطبق الاعلى من جهنم وهؤلاء أشد محبينا عذابا وأعظمهم ذنوبا ، ليس هؤلاء يسمون بشيعتنا ، ولكنهم يسمون بمحبينا والموالين لأوليائنا والمعادين لأعدائنا . إن شيعتنا من شيعنا ، واتبع آثارنا ، واقتدى بأعمالنا .

بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٥ - ص ١٥٤ - ١٥٥

اما اهل الضلال لايطهرون عن ذنوبهم في الدنيا او الرزخ ، لان الروايات واردة في ان ذلك خاص بالمؤمن وهي كفارة له اما غير المؤمن فالدليل لايشمله ، لذا يتحمل اوزار اعماله الى الاخرة ويعاقب عليها بدخوله الى النار ولكن ليس في اعلى دركاتها واضعف عذابها ، انما يكون في متوسط الدركات والعذاب ، اما اسفل دركاتها واشد عذابها يكون للجاحدين والمبغضين للحق مع خلودهم فيه ،ففي الكافي ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : إن في جهنم لواديا للمتكبرين يقال له : سقر ، شكا إلى الله عز وجل شدة حره وسأله أن يأذن له أن يتنفس فتنفس فأحرق جهنم .

- الكافي - الشيخ الكليني ج ٢ ص ٣١٠

هذا بالنسبة الى النار والعذاب ، وكذلك الحال في الجنة والثواب ، فان اعلى درجاتها لاهل الحق ومتوسط درجاتها لاهل الايمان من متبعي الحق ، وادنى درجاتها لمن لا يوجد في قلبه ذرة من العناد ، ففي الكافي ايضا عن محمد بن مسلم ، عن أحدهما (عليهما السلام) قال : لا يدخل الجنه من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر ، قال : فاسترجعت . فقال : مالك تسترجع ؟ قلت : لما سمعت منك ، فقال : ليس حيث تذهب ، إنما أعني الجحود ، إنما هو الجحود . - الكافي - الشيخ الكليني ج ٢ ص ٣١٠

وفي الخصال عن أبي عبد الله ، عن أبيه ، عن جده ، عن علي عليهم السلام قال : إن للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيون والصديقون ، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون ، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا ، فلا أزال واقفا على الصراط أدعو وأقول : رب سلم شيعتي ومحبي و أنصاري ومن تولاني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش قد اجيبت دعوتك و شفعت ، في شيعتك ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألف من جيرانه وأقربائه ، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن شهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت . - الخصال- الشيخ الصدوق ص ٤٠٨

وبهذا يتبين الفرق بين اهل الحق والولاية وبين غير المعاند للحق ، فعندما نقول انهما من اهل النجاة فهذا لايعني تساويهم من كل جهة بل هناك فرق بينهما في العقاب وفي الثواب .

ثم قال عليه السلام : يا إبراهيم هاهنا هلكت العاملة الناصبة ، تصلى نارا حامية ، تسقى من عين آنية . ومن أجل ذلك قال عز وجل : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)

قيمة العمل بالايمان

من خلال ما مر اتضح ان الايمان والاعتقاد هو الذي عليه المدار وان العمل لا وزن ولا قيمة له الا اذا كان صادرا عن ايمان ، واما من دون ايمان فهو باطل وهو هباء وهو سراب بقيعة يحسبه الظمئان ماءا ، فمن ليس له ايمان ويعمل فهو بالحقيقة من الذين قال الله فيهم {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف : ١٠٤]

وهذا معنى قول فقهائنا بان صحة العمل او قبوله مشروطة بالايمان يقصدون منه الأيمان بالائمة عليهم السلام ، فان فقهائنا رضوان الله عليهم مجمعون على اشتراط الايمان في العمل ولكن وقع بينهم خلاف هل هو شرط في الصحة او شرط في القبول ، فاذا كان الايمان شرط في صحة العمل فالعمل الذي يأتي به المخالف على وفق مذهبه يحكم ببطلانه على وفق مذهبنا ، وان كان الايمان شرط القبول فان العمل يكون صحيحا ولكن لا يقبل منهم لان شرط القبول هو الايمان ، ومع ذلك اذا استبصر المخالف فانه لا يعيد الاعمال التي اتى بها على وفق مذهبه ، ولكن ماهو سبب عدم الاعادة ؟

ذكر صاحب الموسوعة الميسرة :

هل عدم الإعادة تفضل أو لصحة العمل ؟ اختلف الفقهاء في أن عدم إعادة العمل هل هو تفضل من الله تعالى ، أو لصحة العمل ، أو لغير ذلك ؟ فيه أقوال :

الأول - أن عدم الإعادة إنما هو تفضل منه تعالى ، لأن العمل في نفسه غير صحيح ، لفقده شرط الإيمان بالمعنى الأخص ، أي : الولاية . اختار ذلك الشهيد الثاني وقال : " ظاهر النصوص وأكثر الفتاوى لا يدل إلا على عدم الإعادة ، وهي أعم من الصحة " ، واختاره أيضا سبطه صاحب المدارك ، وصاحب الحدائق ، والمحدث الكاشاني ، والسيد الطباطبائي .

الثاني - أن شرط صحة العمل هو الإسلام لا الإيمان بالمعنى الأخص ، وهو حاصل ، نعم تترتب على الإيمان بالمعنى الأخص آثار اخرى كالثواب . اختار هذا الرأي المحقق والعلامة الحليان ، والشهيد الأول - ونسبه إلى المشهور - والفاضل المقداد.

الثالث - أن الإيمان شرط متأخر في صحة العمل ، بمعنى أن العمل الصادر من المخالف إنما يكون صحيحا إذا تعقبه الإيمان . ذهب إلى هذا الرأي صاحب الجواهر ، ولعل به يمكن الجمع بين القولين الأولين ، كما صرح بذلك المحقق الأردبيلي .

- الموسوعة الفقهية الميسرة - الشيخ محمد علي الأنصاري ج ٢ ص ٢٣٠

والنتيجة ان العمل من دون ولاية لا ينفع سواء كان شرطا في الصحة او شرط في القبول ، والروايات في ذلك تبلغ حد الاستفاضة .

مقدمات الجواب

ثم قال عليه السلام : ويحك يا إبراهيم ! أتدري ما السبب والقصة في ذلك ؟ وما الذي قد خفي على الناس منه ؟ " قلت : يا بن رسول الله فبينه لي واشرحه وبرهنه . قال : " يا إبراهيم ! إن الله تبارك وتعالى لم يزل عالما قديما خلق الأشياء لا من شئ . ومن زعم أن الله - عز وجل - خلق الأشياء من شئ فقد كفر ، لأنه لو كان ذلك الشئ الذي خلق منه الأشياء قديما معه في أزليته وهويته كان ذلك أزليا . بل خلق الله - عز وجل - الأشياء كلها لا من شئ .

من هنا يشرع الامام عليه السلام في بيان المقدمات التي يحتاج اليها في ايضاح الجواب للسائل ، بعد ان ارتكز على نقطة مهمة وهي ان الايمان والاعتقاد بمحبتهم وولايتهم موجود عن شيعتهم ، فيدخل في بيان انه عالما ازلا وانه كيف ابتدء الخلق سبحانه وتعالى .

العلم الالهي

من ادق واعمق المباحث في الالهيات هو البحث في العلم الالهي، وهناك نتائج مهمة جدا تترتب على كيفية تصوير العلم ، ومنها هذا المسألة المبحوث عنها في هذه الرواية المباركة ، فان الامام يجعله مقدمة في الجواب .

فلابد من الوقوف عند مهمات مسائله بمقدار مانحتاج اليه في هذا البحث فاقول :

ان صفة العلم ثابتة للحق سبحانه بالادلة العقلية القطعية ، التي منها ان العلم كمال ، وكل كمال الحق واجد له ، فالله سبحانه واجد للعلم ، وهو من الصفات الذاتية الحقيقية ذات الاضافة ، ومعنى انه صفة ذاتية بمعنى ان الذات متلبسة حقيقة بهذا الوصف ، فهو وصف بحال نفس الشيء لا وصف بحال متعلقه ، واما معنى كونها حقيقية يعني انها غير انتزاعية من قبيل العالمية ، فان صفة العالمية هي صفة انتزاعية غير حقيقة لان الذات لاتتصف بها بل هي نسبة المعلوم الى العالم أي نسبة الصفة الى الموصوف ، والنسبة امر اعتباري وليس حقيقي ، واما معنى كونها ذات اضافة أي ان مفهومها متضمن للمعلوم ، فانه لا يكون العالم عالما الا بمعلوم بخلاف الحياة فانها لا تتضمن شيء ورائها ، لذا صارت صفة ذاتية حقيقة محضة ، يعني لانحتاج في مقام تصورها الى تصور ما ورائها ، اما العلم نحتاج في مقام تصوره الى تصور المعلوم ، وهذا لاخلاف فيه .

ومن تقسيمات العلم انه يكون صفة ذاتية واخرى صفة فعلية ، ونحن الان لا نريد ان نتكلم في العلم بما هو صفة فعل ، وانما نريد ان نبحث في العلم بما هو صفة ذات ، فانها هي التي نحتاج اليها في مقامنا والتي هي معركة الاراء بين الحكماء انفسهم من جهة وبينهم وبين المتكلمين من جهة اخرى .

ومحط الخلاف في انه هل يعلم بالموجودات تفصيلا قبل ايجادها او لا يعلم ذلك ؟

ان قلت لماذا لا نقول انه يعلم بها قبل الايجاد تفصيلا ؟

قلت ان هناك اشكالات عويصة جدا ادت بكثير من الحكام ان يقبلوا انه يعلم بالموجودات تفصيلا قبل الايجاد ، ونحن لا يسعنا الدخول في هذا البحث هنا ، فمن اراد التفصيل فيه فاليراجع الكتب المخصصة لذلك .
ونحن نقول على نحو الفتوى انه يعلم ذلك والروايات عن اهل بيت العصمة تثبت ذلك ، فهو لم يزل عالما قبل الخلق بالاشياء جميعا بل دائرة العلم عنده سبحانه اعم من دائرة الوجود ، يعني لو فرض ان الله سبحانه اوجد جمع ماراد ان يخلقه فكان عددها الفا فهل يعني ذلك انه عالم بهذه الالف فقط قبل ايجادها ام انه يعلم هذه الالف وغيرها مما حد ولا عد له لان علمه غير متناهي ؟
نقول ان علمه غير متناهي لانه عين ذاته وذاته المقدسة غير متناهية ، فهو ليس فقط يعلم بما سيوجده بل يعلم حتى بالذي لا يوجده اصلا ، بل اكثر من ذلك فانه يعلم بالممتنع لو وقع كيف يقع ، كما في الروايات عنهم عليهم السلام .
منها : حدثنا الحسين بن بشار عن أبي الحسن على بن موسى الرضا عليه السلام قال : سألته ايعلم الله الشئ الذي لم يكن لو كان كيف كان يكون ؟ قال : ان الله تعالى هو العالم بالاشياء قبل كون الاشياء قال عز وجل : (انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) وقال لاهل النار : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) فقد علم عز وجل انه لو ردوهم لعادوا لما نهوا عنه وقال للملائكة لما قالت : (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون) فلم يزل الله عز وجل علمه سابقا للاشياء قديما قبل ان يخلقها فتبارك الله ربنا وتعالى علوا كبيرا خلق الاشياء وعلمه بها سابق لها كما شاء كذلك ربنا يزل عالما سميعا بصيرا . - عيون أخبار الرضا (ع) - الشيخ الصدوق ج ٢ ص ١٠٨
ومنها رواية اخرى طولة عن الرضا عليه السلام ايضا يجيب فيها الفتح بن يزيد الجرجاني انقل منها موضع الشاهد قال :
قلت : جعلت فداك قد بقيت مسألة ، قال : هات لله أبوك . قلت : يعلم القديم الشئ الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون ؟
قال : ويحك إن مسائلك لصعبة ، أما سمعت الله يقول : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله :(ولعلا بعضهم على بعض) وقال يحكي قول أهل النار : (أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل) وقال : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) فقد علم الشئ الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون . - التوحيد- الشيخ الصدوق ص ٦٥
فهنا الامام عليه السلام يستدل بالقران الكريم لبيان علم الله بالممتنع ، فان من المبرهن امتناع الشريك له سبحانه ، ومع ذلك يعلم انه لو كان هناك شريك له لفسدت السموات والارض ، فامتنع الفساد بسبب امتناع الشريك هذا من حيث اللم ، ومن حيث الان بما انه لم يتحقق فساد فاذن الشريك غير موجود.
ونفس الكلام في قوله عليه السلام (ولعلا لعضهم فوق بعض) فان هذه اية اخرى وهي {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} [المؤمنون : ٩١]
الى هنا تبين انه عالم بالاشياء قبل ايجادها اكتفي بهذا هنا وللكلام بقية ياتي في فقرة اخرى ان شاء الله تعالى فانتظر .

بدء الوجود وتنزلاته

من الاحكام التي يحكم بها العقل ان كل مافي هذا العالم قد جاء من الله سبحانه وتعالى ، والادلة على ذلك كثيرة تذكر في محلها ، وخلاصتها ان هذه الموجودات كانت معدومة يعني كانت فادة للوجود ثم بعد ذلك وجدت ، فمن المؤكد ان الوجود جائها من غيرها لامن نفسها لانها لم يكن لها نفسية اصلا لانها كانت عدم ، وهذا الغير يختلف عنها ، يعني انه ليس مثلها قد اخذ الوجود من غيره والا جرى نفس الكلام فيه ، فهو مالك وواجد ولم يكن في ظرف من الضروف معدوم بل هو موجود ازلا وابدا ، وهو الله عز اسمه .

اذاً كل موجود غيره سبحانه فهو قد اخذ الوجود منه ، وهو مبدئه وعلته ، وموجودات هذا العالم المادي ينطبق عليها الكلام بل هي من اظهر المصاديق في ذلك لان عدمها قبل وجودها ظاهر جلي .

وهناك ايات كثيرة اشارة الى ذلك.

منها : قال تعالى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [غافر : ٦٢] وقال سبحانه : قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [الرعد : ١٦]

فالله سبحانه هو الخالق لكل شيء يعني هو الذي اعطى لكل شيء وجوده ، ولكن هنا بحث هل ان الله خلق الاشياء من لا شيء او من شيء او لا من شيء ؟

فالاحتمالات ثلاثة بالحصر العقلي ، فالاحتمال الاول باطل جزما لان خلقة الاشياء من لاشيء معناه انها نشئت من العدم فان ال(لاشيء) هو عدم محض ولا يمكن ان يخرج النقيض من نقيضه فانه يستلزم اجتماع النقيضين ، وهذا الشق الامام عليه السلام لم يتعرض له لوضوح بطلانه .

والاحتمال الثاني يستلزم الشرك لانه لو اوجد الاشياء من شيء ونشئت منه ، يلزم ان يكون ذلك الشيء موجودا قديما قبل الخلق مع الله تعالى وتقدس ، حتى ينشئ الاشياء منه ، وهذا شرك وهو يؤدي الى الكفر بالله سبحانه ، لان باثبات الشريك له وان المخلوقات نشئت منه فما وجه الحاجة الى الله سبحانه وتعالى ، وهذا الشق باطلا ايضا .

فينحصر القول بالاحتمال الثالث وهو الله سبحانه اوجد الاشياء لا من شيء وراء ذاته المقدسة بل نشئت الاشياء منه سبحانه وتعالى ، فهو خالقها وموجدها ومبدعها ومخترعها .

هناك اشكال يتعلق بالمقام يذكره الشعراني في تعليقته على شرح اصول الكافي للمازندراني يقول:

قوله : « لا من شيء خلق ما كان » إن قيل هذا مخالف للحس فإنا نرى أنه تعالى خلق كثيرا من الأشياء من شيء فإنه خلق الانسان من النطفة ، والشجر من البذر ، وخلق كل دابة من ماء .

قلنا : ليس المراد أنه تعالى خلق جميع الكائنات ابتداء اختراعا لامن شيء ، بل مراده أنه خلق أول ما خلق كذلك ، وأما ساير ما خلقه بعد الموجود الأول فلا يستحيل أن يخلقه من شيء .
والدليل عليه على ما ذكره صدر المتألهين - قدس الله تربته - أن المخلوق الأول لو كان خلق من شيء فلا يخلو إما أن يكون ذلك الشيء واجب الوجود أو ممكن الوجود فإن كان ذلك الشيء واجب الوجود ثبت الشريك له تعالى في وجوب وجوده ؛ وهو باطل ، وإن كان ممكن الوجود كان مخلوقا له تعالى قبل المخلوق الأول وهذا خلف .
وقال (قدس سره) : كل ما كان في وجوده محتاجا إلى شيء لم يكن أول مخلوق كالمركب المحتاج إلى الأجزاء والصورة المحتاجة إلى المادة والعكس والنفس المتعلقة بالبدن والزمان المحتاج إلى الحركة والحركة المحتاجة إلى الجسم والحادث الزماني المحتاج إلى معنى زمان ، فالمخلوق الأول ليس مركبا ولا صورة ولا مادة ولا نفسا ولا يحتاج إلى مضي زمان قبله وإلا احتاج إلى حركة سابقة واحتاج إلى جسم متحرك فكان ذلك الجسم قبله ولم يكن أول مخلوق .
شرح أصول الكافي - مولي محمد صالح المازندراني - ج ٤ - هامش ص ١٣١
ومن المسائل الاخرى التي يجب التنبه لها هو ان الموجود في هذا العالم مر بعوالم متعدده قبل ان يصل الى هذا العالم المادي - كما اوضحنا ذلك في كتابنا الادراكات الملكوتية – والايات المباركة ذكرت هذا الامر .
منها هذه الاية قال سبحانه : وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ [الحجر : ٢١] وهي صريحة بان جميع الموجودات كانت في عالم الخزائن الالهية ولم يكن لها مقدار هناك بل تقدرت بعد نزولها من الخزائن وامتازت عن غيرها وصبح لها وجودا خاصا بها ، فهذه الاية تقول ما من موجود مخلوق الا ونزل من الخزائن .
وهناك ايات اخرى تتحدث عن نزول اشياء مخصوصة من السماء ، منها ماهو معنوي ومنا ماهو مادي ، والنزول لا يكون الا من علو ، كما يقول الراغب في مفرداته هو انحطاط من علو ، اما الايات التي تتحدث عن نزول امور مادية من السماء فهي قوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد﴾ [الحديد/٢٥]، ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر/٦]، ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا﴾ [الفرقان/ ٤٨]، ﴿وأنزلنا من المعصرات ماءا ثجاجا﴾ [النبأ/١٤]، و ﴿أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم﴾ [الأعراف/٢٦]، ﴿أنزل علينا مائدة من السماء﴾ [المائدة/ ١١٤]،]. { وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [البقرة : ٥٧] {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ} [آل عمران : ١٥٤] {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا} [يونس : ٥٩] {إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [العنكبوت : ٣٤]
والايات التي تتحدث عن نزول امور معنوية كثيرة منها قوله تعالى ﴿أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ [البقرة/٩٠]، ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ [الكهف/١]، ﴿الله الذي أنزل الكتاب﴾ [الشورى/١٧]، ﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾ [الحديد/٢٥]، {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة : ٩٧] {وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} [البقرة : ١٠٢]

{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة : ١٨٥] {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ} [آل عمران : ١٢٤] {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا } [التوبة : ٢٦] {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} [النحل : ١٠٢]

فهذه الايات تذكر نزول بعض الامور مادية او معنوية ، اما قوله تعالى {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} [الحجر : ٢١] في تذكر ان كل شيء نزل من الخزائن وان اصله باق هناك والذي نزل منه انما نزل بمقدار معين والخزائن التي هي عند الله غير قابلة للنفاد والنقص كما قال سبحانه {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [النحل : ٩٦]

هذا بالنسبة الى بدء الخلق ونشأته ، اما بالنسبة الى عوده فالايات المباركة تتحدث انه يرجع الى اصله ، قال تعالى {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف : ٢٩] { ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [السجدة : ١١] {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} [النجم : ٤٢] {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [القيامة : ١٢] {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} [القيامة : ٣٠] {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [الانشقاق : ٦] {إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى} [العلق : ٨]

يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره : وأما ما ورد من نزول قواعد البيت من الجنة ونزول الحجر الاسود من الجنة ، ونزول حجر المقام - ويقال : انه مدفون تحت البناء المعروف اليوم بمقام إبراهيم - من الجنة وما أشبه ذلك ، فذلك كما ذكرنا كثير النظائر ، وقد ورد في عدة من النباتات والفواكه وغيرها : انها من الجنة ، وكذا ما ورد : انها من جهنم ، ومن فورة الجحيم ، ومن هذا الباب أخبار الطينة القائلة : ان طينة السعداء من الجنة ، وان طينة الاشقياء من النار ، أو هما من عليين ، وسجين ، ومن هذا الباب أيضا ما ورد : ان جنة البرزخ في بعض الاماكن الارضية ، ونار البرزخ في بعض آخر ، وان القبر اما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، إلى غير ذلك ، مما يعثر عليه المتتبع البصير في مطاوي الاخبار ، وهي كما ذكرنا بالغة في الكثرة حدا ليس مجموعها من حيث المجموع بالذى يطرح أو يناقش في صدوره أو صحة انتسابه وإنما هو من الهيات المعارف التي سمح بها القرآن الشريف ، وانعطف إلى الجري على مسيرها الاخبار الذي يقضي به كلامه تعالى : ان الاشياء التي في هذه النشأه الطبيعية المشهودة جميعا نازلة إليها من عند الله سبحانه ، فما كانت منها خيرا جميلا ، أو وسيلة خير ، أو وعاء لخير ، فهو من الجنة ، وإليها تعود ، وما كان منها شرا ، أو وسيلة شر ، أو وعاء لشر ، فهو من النار ، وإليها ترجع . - تفسير الميزان - السيد الطباطبائي ج ١ ص ٢٩٠

ويتضح من كلام العلامة قدس الله روحه ان كل ما يصل او يوصل الى الجنة فهو منها والا لو لم يكن منها لما وصل اليها فتعود النهايات الى البدايات .

الرجوع الى الله سبحانه ام الى الجنة او النار ؟
ان قلت كيف يمكن التوفيق بين قولكم الرجوع يكون اليه سبحانه لانه من بدء الخلق واليه يعود وبين قولكم انه يرجع الى الجنة لانه بدء منها ، اليس بين الكلامين تهافت؟
قلت كلا فان بين الكلامين غاية الانسجام ، وبيان ذلك ان الجنة وكل مافيها هي من مظاهر جماله ، وان النار وكل ما فيها هي من مظاهر جلاله وقهره ، والرجوع اليهما هو في الحقيقة رجوع اليه سبحانه ، ولكن هذا الرجوع يكون على مراتب متفاوتة في القرب والبعد منه سبحانه فان المراتب الكلية للجنة ثلاث جنة الذات وجنة الصفات وجنة الافعال وكذلك بالنسبة الى النار ولكل مرتبة من هذه المراتب درجات لايحصيها الا هو سبحانه ، وكل درجة عالية هي واجدة لما دونها وزيادة ، يقول الامام الخميني قدس الله روحه :
أن المقرر في مقاره عقلا ونقلا أن للجنة والنار عوالم ومنازل ومراتب ومراحل ، وتكون تلك المراتب والمنازل على طبق مراتب النفس ومنازلها ، وبوجه كلي يكون لكل منهما ثلاث مراتب :
الأولى : مرتبة جنة الأعمال وجحيمها ، وهي عالم صور الأعمال الصالحة والفاسدة والحسنة والقبيحة ، والأعمال كلها بصورها الملكوتية تتجسم في عالم الملكوت السافل ، وترى كل نفس عين ما عملت ، كما قال عز اسمه : * (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء) * وقال تعالى : * (ووجدوا ما عملوا حاضرا) * وقال : * (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) * .
والثانية : جنة الصفات وجحيمها ، وهما الصور الحاصلة من الملكات ‹ صفحة والأخلاق الحسنة والذميمة ، وكما أن نفسيهما من مراتب الجنة والنار تكون آثارهما وصورهما - أيضا - منهما .
والثالثة : جنة الذات ونارها ، وهما مرتبة تبعات العقائد الحقة والباطلة إلى آخر مراتب جنة اللقاء ونار الفراق . ولكل من المراتب آثار خاصة وثواب وعقاب بلا تداخل وتزاحم أصلا . أنوار الهداية - السيد الخميني - ج ١ - ص ٥٥ - ٥٦
وعلى هذا الاساس يكون الرجوع كل الى درجته ومرتبته التي جاء منها .
ان قلت اليس هذا هو الجبر بعينه وليس للانسان أي اختيار في ذلك ، حيث انه خلق من درجة فلا يعود لغيرها ولو انه خلق من درجة اخرى لكان فيها هذا وليس له فضل في ذلك هذا بالنسبة الى الجنة وكذلك الحال في دركات الجحيم ؟
قلت سيتظح حل هذا الاشكال وغيره ان شاء الله تعالى .

كيفية الخلق
ثم قال عليه السلام :
فكان مما خلق الله - عز وجل - أرضا طيبة ، ثم فجر منها ماء عذبا زلالا ، فعرض عليها ولايتنا أهل البيت ، فقبلتها . فأجرى ذلك الماء عليها سبعة أيام حتى طبقها

وعمها ، ثم نضب ذلك الماء عنها وأخذ من صفوة ذلك الطين طينا ، فجعل طين الأئمة (عليهم السلام) ، ثم أخذ ثفل ذلك الطين فخلق منه شيعتنا .
النظام الخلقي تابع للنظام العلمي حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة ، الموجودات كما ذكرنا سابقا ان لها وجود في علم الله سبحانه وتعالى وهو عالم بها من بدء وجودها الى ختمه ، واذا كان البدء والختم هو واحد كما بينا ، فكل موجود له تصنيف في العلم الالهي ، فبعضها مصنف سعيد او يعين ويوصل للسعادة وبعضها شقي او يوصل ويعين على الشقاوة هذا في العلم .
وليس الله جعلهم سعيد وشقي بل الله سبحانه نظر اليهم في مقام العلم الازلي فرأى ان بعض منهم يسعى جاهدا الى السعادة والفضيلة بكل ما اوتي من طاقة واستعداد ولا يثنيه عن ذلك شيء وبعض يسعى الى الشقاوة بكل ما اوتي من طاقة واستعداد لا يثنيه عن ذلك شيء ، وبعض اخر يحب السعادة ويسعى اليها ولكن عنده توقفات في هذا المسعى والطريق ويخلط في طريقه عملا صالحا واخر سيئا ، وبعض اخر يحب الشقاوة ويسعى اليها متباطئا ويخلط في سعيه عملا صالحا وسيئا ، لازال الكلام في العلم الالهي .
فالله سبحانه علم منهم ذلك ولم يقسرهم عليه ، لانهم لم يخلقوا بعد حتى يقسرون على شيء ، وهنا يأتي الكلام بان العلم تابع للمعلوم ، معناه ان المعلوم سعيد لذا الله علمه على ما هو عليه وكذا الشقي ، فالعلم بالسعادة والشقاوة تابع لما عليه السعيد والشقي في مقام العلم .
هذا الكلام ياتي في الانسان من بين مخلوقات الله سبحانه لان الانسان هو المخلوق المختار ، الذي يحدد مسيره وفق اختياره ، فالله سبحانه علم من كل صاحب اختيار انه ماذا يختار ، يعني انه سواء علم الله ذلك او لم يعلم فان زيد من الناس عندما يخلق سوف يختار هذا الطريق بخصوصه لاغيره ، فالعلم هنا لا يؤثر في اختيار الانسان .
واما غير الانسان من الخلوقات التي ليس لها اختيار فهي اما تفيد الانسان في طريق سعادته واما تفيده في طريق شقائه واما ينفع في الطريقين معا ، ولا شق رابع اصلا .
قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم : ٣٢-٣٤]
واكرر كلامي ان هذا قبل الخلق في علم الله سبحانه وتعالى ، وحينئذ عندما يريد ان يخلق الله السعيد يأخذه من ذلك المقام العلمي الذي لو صح تعبيرنا انه في السعادة العلمية ، ويأخذ تلك الموجودات التي علم منها انها تفيد في طريق السعادة ، ويخلقة من طريقها ، وكذلك بالنسبة الى الشقي .

صفاته سبحانه تحدد كيفية الخلق

ان قلت ولم يفعل ذلك ، أي يخلق السعيد من طريق السعادة ، والشقي من طريق الشقاوة ؟

قلت ان نظام الخلق ليس فقط تابع للعلم الالهي ، فالعلم وان كان سبب رئيسي في الخلق ، ولكن هناك امور اخرى لها تأثير اساسي في كيفية الخلق تحدد أي تلك الموجودات في مقام العلم توجد وايها لا توجد ، والا ليس كل ما يعلمه الله يوجده ، فانا في بحث العلم قلنا ان الله سبحانه وتعالى علمه غير متناهي يعنه معلومه ايضا غير متناهي ، فليس كل ما يعلمه يوجده ، من قبيل لا يخلق الله انسان بستة آلآف رأس وتسعمائة يد وهذا كمثال ، مع انه معلوم له ، فليس العلم هو الذي يحدد من يخلق من تلك الموجودات في العلم ومن لا يخلق .

والقدرة الالهية لها بعض التدخل في الخلق الايجاد ، فانا قلنا ان ممتنع الوجود معلوم لله سبحانه فهو يقع في دائرة العلم ، ولكنه لا يقع في دائرة القدرة خارج عنها ، لا ان الله سبحانه يوصف بالعجز ، وانما لانه ممتنع فهو غير قابل للايجاد والخلق ، من قبيل انك تقول لرسام محترف ارسم لوحة على الماء فيقول لك لايمكن ذلك ، تقول لها انك ليس برسام ، يقول لك الكل يشهد باحترافي في الرسم ولكن هذا المحل غير قابل للرسم ، وهذا معنى قولك امير المؤمنين عليه السلام حينما سأله سائل هل يستطيع الله ان يدخل العالم على كبره في البيضة على صغرها ؟ فقال له عليه السلام ان الله لايوصف بعجز ولكن الذي تقول لايكون .

فاذاً المعلومات عند الله لا يخلق منها الا ما كان داخلا في دائرة القدرة ، فالقدرة لها نحو من التأثير في كيفية الخلق .

والحكمة الالهية ايضا لها دخل في ذلك بمعنى ان الله سبحانه لا يخلق كل ما علمه من دون مرجح ، بل اذا اراد ان يخلق بعض المخلوقات لابد ان تكون راجحة على غيرها وهذا الرجحان معناه انها منسجمة مع حكمة الله .

من قبيل ان تكون هناك مصانع كبيرة لصنع آلآت يمكن ان يستفاد منها ويمكن ان تصنع اشياء لا يمكن الاستفادة منها اصلا ، فهي تصنع طائرات وقاطرات وسيارت ، ولا تصنع تل من حديد او نحاس او بلاستك فهي وان كانت قادرة على ذلك ولكن لا تنتج الا ما كان مفيدا وبجودة عالية ، لان هذا هو الذي ينسجم مع حجم المصنع ومعداته وامكاناته والخبراء الموجودين فيه .

فالحكمة تحدد اي تلك الموجودات في علم الله سبحانه تخلق وايها لا تخلق .

والعدل له دخل في كيفية الخلق ايضا بمعنى ان ماعلمه الله من ان الشيء الفلاني استعداده وقابليته للكمال بمقدار عشرة فلا يخلق له اكثر من ذلك فانه لايحتمله فيكون خلاف العدل ، والذي علم منه انه يختار السعادة لا يلجئه الى الشقاء لانه خلاف العدل ، كما ان من علم منه انه يختار الشقاء لا يلجئه الى السعادة {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [الشعراء : ٤]

فالنتيجة من ذلك ان خلق الله سبحانه وتعالى تابع لنظام ومحكوم بقوانين ذلك النظام ، فالعلم والقدرة والحكمة والعدل لها التأثير في نظام الخلق وليس هذه فقط بل هذه كمثال والا كل الصفات الالهية لها دخل في الخلق والايجاد والاعطاء ، كالرحمة والجود والكرم وغيرها لها دخل ايضا ، وهذا هو المقصود من ان الفاعل يفعل على مقتضى ذاته كما يقول سبحانه {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} [الإسراء : ٨٤]

وعلى هذا الاساس قال الحكماء ان هذا النظام المخلوق هو ابدع نظام وافضل نظام ، لانه لو لم يكن الافضل فلا بد من ان هناك سبب منع الله سبحانه من ايجاد الافضل ، وهذا السبب اما انه يجهله ، او انه يعلم به ولكنه عاجز عن خلقه ، او انه عالم به وقادر عليه ولكنه لم يخلقه وخلق غيره لانه يريد ان يعبث ، او انه بخيل فلم يخلق الاحسن فخلق الاردء ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فمنشئ عدم خلق الاحسن اما هو الجهل او العجز او العبث او البخل ، والكل منتفٍ في حقه سبحانه لانه عالم لا حد لعمه وقادر لاحد لقدرته وهو حكيم وجواد لاحد لحكمته وجوده ، فاذا كان الامر كذلك فهذا النظام هو الافضل على الاطلاق ، لا يتصور ماهو افضل منه .

طريق السعادة وطريق الشقاء

نرجع الى محل الكلام وهو ان الله سبحانه اذا اراد ان يخلق انسان وهو يعلم منه - بعمله الازلي - انه يختار السعادة فيخلقه من الطريق الذي يوصله الى ذلك ، فان مقتضى العدل والرحمة ان ييسر له اسباب الوصول الى السعادة ، قال سبحانه **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)** سورة الليل ، وقال سبحانه {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} [الإسراء : ٢٠]

وهذا المعنى مقبول وعليه سيرة العقلاء فلو قلت ان المعلم علم من بعض تلاميذه انه من المتفوقين قبل ان تبدء الدراسة فانه يوليه عناية خاصة ويعطيه كل ما يساعده في تفوقه ويهيئ له اسباب ذلك ، ومن علم منه انه مهمل سوف يهمله ولا يعتني به كما يعتني بالاخرين ، وليس هذا من الظلم في شيء بل هو عين العدل والحكمة .

ولا تقل لماذا اذاً يدرسون اذا كان من المعلوم ان هذا متفوق وهذا مهمل وكسول ؟ من اول الامر يعطي لهم النتائج ويقول لهم انت ناجح وانت فاشل ؟

لانه يقال لك هذا فهم خاطئ ، فان من علم منه التفوق ليس هو متفوق بالفعل وانما اذا وضع في طريق التحصيل العلمي سوف يتفوق ، لا انه يتفوق على كل حال وضع في طريق التحصيل او لا ، وكذلك بالنسبة الى الفاشل ، فمجرد العلم بكون هذا كذا وهذا كذا لا يجعلهما بالفعل كذلك .

اذا تدبرت في المثال جيدا سيتضح لك الحال في ما نحن فيه ، وهو ان الله سبحانه عندما علم ان بعض الافراد انهم سيختارون السعادة بكل طاقتهم فيما اذا خلقهم ، سوف ييسر لهم طريق السعادة من اول الامر ويخلقهم من اسباب موصلة لما يريدون ، فمعنى ان طينتهم من الجنة او من عليين انه كانوا في مقام العلم الالهي هم من السعداء فخلقهم من الطريق الذي يعينهم ويوصلهم الى ذلك ، وكذا الحال بالنسبة الى الاشقياء .

فهو سبحانه علم منه انه سعيد ، فهذا بدء الوجود له ، وانتهى به الامر الى السعادة ، فهذا ختم الوجود له ، وهذا معنى ما ذكرناه فيما سبق من ان ختم الوجود يعود الى اوله قال تعالى (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) (الاعراف٣٠)

وهذا من تتمت البحث في العلم كما وعدنا سابقا اننا سنذكره .

اذا اتضح ذلك نأتي الى كلام الامام عليه السلام :
قوله : فكان مما خلق الله - عز وجل - أرضا طيبة ، ثم فجر منها ماء عذبا زلالا ، فعرض عليها ولايتنا أهل البيت ، فقبلتها . فأجرى ذلك الماء عليها سبعة أيام حتى طبقها وعمها .
كان في علم الله ما لا حصر له من المعلومات لماذا اوجد هذا المعلوم وهو الارض الطيبة دون غير؟
والجواب على ذلك انه ينسجم مع النظام الاحسن فخلق هذه الارض الطيبة لانها تكون خير معين وسبب على ان يخلق منها من علم منه انه طالب للسعادة باذل اقصى جهده في الوصول اليها ، فخلق هذه الارض الطيبة وفجر منها الماء العذب الزلال ، وعرض عليها ولايتهم عليهم السلام فقبلت الولاية ولاتضاح معنى العرض والقبول ندخل البحث تحت هذا العنوان :

كيفية عرض الولاية وقبولها
العبودية موسومة في جباه الخلائق جميعا وكلها خاضعة لسلطان الله بالملك والطاعة وقائمة له بالتسبيح والتمجيد تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً [الإسراء : ٤٤]
والايات كثيرة في شعور الموجودات حية وغير حية فالجبال تخشع وتتصدع من خشية الله والحجار تهوي وتتفجر بالماء من خشية الله والطير والبهائم والسباع والشجر وكل شيء يدين بالعبودية له سبحانه وتعالى ، هذا ما تفيده الايات القرانية ، والادلة العقلية ثبت الحياة والشعور والادراك في كل شيء ايضا .

وليس ذلك بلسان الحال كما يذهب اليه كثير في حينما يمروا على هذه الايات والسبب في ذلك كما يبينه القران الكريم اننا لا نفقه تسبيحهم ومن فتح الله منافذ قلبه يسمع ويرى فسليمان عليه السلام يكلم الهدد والنمل ويقول يا ايها الناس علمنا منطق الطير، والرسول الاكرم ص يجعل الحصى تسبح بيده المباركة ويسمع ذلك من كان حاظرا عنده والشواهد اكثر من ان تحصى ، فكيف يحق لنا ان نحمل ذلك على لسان الحال ونقول انها لا تسبح حقيقة فنكون خالفنا صريح القران الكريم والعلة في ذلك هو اننا لم نفقه التسبيح لا لان التسبيح مستحيل ان يصدر منها ، فجعلنا عدم الوجدان دليلا على عدم الوجود ، وكذلك الحال بالنسبة الى عرض الامانة على السموات والارض والجبال وابائهن عن حملها واشفاقهن منها ليس كما يذهب اليه اكثر المفسرون على ان ذلك مجازا يريد به عظم هذه المسؤلية التي حتى لو كانت هذه المخلوقات العظيمة مدركة لرفضت حملها وحملها الانسان بسبب ظلمه وجهله ، وليس العرض هو مقايسة الامانة الى هذه الموجودات وانها ليس فيها امكان وشأنية الحمل بخلاف الانسان كما يذهب اليه العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان ج١٦ ص٣٤٩، انما هناك عرض واباء حقيقة ولا يطلب منا الدليل على ذلك لان هذا الكلام موافق لظاهر اللفظ القراني ولا يترك العمل بالظاهر الا لمحذور وهو في المقام غير موجود فلا يصار الى تلك التكلفات في توجيه الظواهر القرانية بمجرد الاستبعاد او عدم فقه كلام

المخلوقات، فالعرض حقيقي والاباء لم يكن عصيانا لامر الله سبحانه وتعالى بل كان اشفاقا من التقصير في حمل تلك المسؤلية العظيمة ، فالله سبحانه يقول عرضنا ولم يقل امرنا ولو كان بحو الامر لايسع هذه المخلوقات العصيان كما حكى الله سبحانه عنها في غير هذا المورد حيث قال جل مجده : ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [فصلت : ١١]

فالعرض كان تخييريا بين قبول حمل الامانة وعدم قبولها ، وليس في ذلك عصيان ، كما اذا اردت ان تودع امانة عند احد ثقاتك ومؤتمنيك فهم بالخيار بين القبول والرد واذا ابوا ذلك لا يتوجه اليهم اللوم خصوصا اذا كان ابائهم اشفاقا من التقصير في حفظها فيستحقون بذلك المدح والثناء لا الذم .
يحق لسائل ان يسأل كيف كان ذلك العرض وذلك الاباء ؟ هل كان بالفاظ او بالقاء المعنى او بالاشارة او التفهيم او باي وسيلة كانت ؟
نقول لايتسنى لنا معرفة الكيفية ولسنا ملزمين بمعرفتها ، ونؤمن بما قاله سبحانه ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، يكفينا ذلك .
ومن حقنا ان نسأل ما هي هذه الامانة التي اشفقت منها السموات والارض والجبال وقبلنا حملها نحن ؟ فان هذا الامر يخصنا ولا نعذر بترك التعرف عليه لان الجهل به يؤدي الى التفريط والتهاون في حمل تلك الامانة .
هناك روايات كثيرة عن اهل بيت العصمة تبين ان تلك الامانة هي الولاية او ولاية علي بن ابي طالب عليه السلام انقل بعضا منها .
عن أبي بصير ، قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا " قال : الأمانة : الولاية ، والانسان : أبو الشرور المنافق . معاني الأخبار - الشيخ الصدوق - ص ١١٠
عن الحسين بن خالد قال : سألت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل : (انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها) فقال : الأمانة الولاية من ادعاها بغير حق فقد كفر . عيون أخبار الرضا (ع) - الشيخ الصدوق - ج ٢ - ص ٢٧٣
عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا " قال : هي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٤١٣
عن جعفر بن محمد عليه السلام قال إن الله يقول انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض و الجبال فابين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا قال هي ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام . بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص ٩٥
المقصود من ولايتهم هي ولاية الله سبحانه وتعالى فان من يتولى الله لابد ان يتولى اوليائه ويتبرء من اعدائه ولا يقبل التفريق بين تولي الله وترك تولي اوليائه فالجاحد لولايتهم جاحد لولاية الله ، ورد :

عن ابي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبيا قط الا بها .
عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبيا قط الا بها .
بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص ٩٥ – ٩٦
فتبين ان خلق الله لهذه الارض الطيبة لان استعداد القبول للولاية فيها دون غيرها ثم عرض عليها الولاية عرضا حقيقيا لا مجازيا وقبلته حقيقة بناءا على ان الحياة والشعور ساريا في كل الموجودات ، فلخلق من خالص هذه الارض هذه الثلة الطيبة من الاولياء ، ونفس الكلام يأتي في الارض الخبيثة وخلق الطغاة منها ، فان مقتضى كرم الله ورحمته ان يعطى كل من كان فيه استعداد ما هو مستعد له ، فمن علم الله منه انه يستفيد من العطاء يعطيه فان الله لم يقطع الاحسان ولم يبدل عادة الامتنان ، واذا علم منه انه لا ينتفع بالعطاء فيجنبه عنه قال سبحانه {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال : ٢٣] فاسماعه سبحانه لهم يترتب على علمه انهم يستفيدون من السمع حتى يكون عطاءا وفق الحكمة اما اذا لم يستفيدوا منه ومع ذلك يعطيهم يكون من وضع الشيء في غير موضعه ، ومن هذا نعرف سر اعطاء الله النبوة لعيسى على نبينا واله وعليه السلام وهو في المهد لانه يعلم ما يريد ان يكون عليه قال تعالى : قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) (سورة مريم) وكذا ليحيى عليه السلام قال سبحانه {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} [مريم : ١٢] فالعطاء يكون على وفق ما علمه منهم كل ذلك قبل الخلق في كتاب العلم الالهي قال سبحانه : {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام : ٥٩]
فعندما يخلق الله سبحانه وتعالى الانبياء والاوصياء والاولياء من آباء وامهات طاهرين حتى يجعلهم اكثر استعدادا وقوة ومعونة في طريق استكمالهم ، لذا ورد في زيارة الحسين عليه السلام(كنت نورا في الاصلاب الشامخة والارحام المطهرة) وكما يذكر القران الكريم ان النبي (ص) كان يتقلب في الساجدين {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} [الشعراء : ٢١٩] بمعنى ان آبائه وامهاته كلهم كانوا يعبدون الله تعالى وفقرة زيارة الحسين تؤيد هذا المعنى لان آباء النبي (ص) هم آباء الحسين عليه السلام فانها تقول كنت نورا في الاصلاب الشامخة والارحام المطهرة .
فاتضح انه لماذا خلق الله هذه الارض الطيبة ، وقبلت ولايتهم عليهم السلام فاستحقت ان تنقى اكثر ويشتد استعدادها ففجر منها الماء الزلال واجراه عليها ، حتى استوعب جميع اجزائها واصبح مطابقا لها وعمها أي وسعها جميعا وغمرها ، حتى تنقي فهو سبحانه اعانها على ما اختارته ويسره لها ، فانه من المعلوم عند اهل الزرع ان الارض يطلق عليها الماء العذب ويبقى فيها فترة حتى تنقى من الاملاح وتصلح اكثر للزراعة ، فأن كل ارض كيف ما تكون فيها قابلية للزراعة ، بخلاف الصخور والاحجار ، لذا اختار الله سبحانه ارض دون غيرها مما يعلمه ، واختار من الارض الطيبة دون الخبيثة ومع كل ذلك فجر منها ماءا عذبا واجراه عليها سبعة ايام حتى

يكمل استعدادها ، وهذا العدد وهو سبعة فيه سر فانه كثيرا ما يرد في القران الكريم والروايات الشريفة وحتى في الديانات الاخرى في الكتب المقدسة وارد ، لذا صار موضع اهتمام كثير من الباحثين عن اسراره وكتب في ذلك بحوث كثيرة ، وهناك بعض الابحاث التي وضحت جانب من الاعجاز الرقمي في القران الكريم استنادا لهذا العدد .

وبعد السبعة نضب الماء أي انه غار وذهب عنها وصارت الارض طينا ، فاخذ سبحانه من صفوتة ذلك الطين أي خالصه وجعل منه الائمة عليهم السلام واخذ الثفل أي الاسفل منه فخلق منه شيعتهم عليهم السلام .

الطين ليس من هذه الارض

الظاهر من الرواية ان الارض المذكورة ليس هي الارض في هذا العالم و لا الماء الذي فيه ايضا ، وانما المراد من الارض الطيبة والماء العذب الذي هو في عالم المثال ومتقدم رتبة عن عالم المادة وهو من علل هذا العالم وفيه كل ماهو موجود في هذا العالم على نحو اعلى فيه مقادير وابعاد واشكال عالم المادة من دون وجود نفس المادة ، ومثاله مايترائى للنائم في المنام فيرى ارضا وسماء وماءا وغذاء وكل شيء كما هو في هذا العالم ولكنه مجرد عن المواد ، فصح ان يطلق على ما هو موجود هناك انه ارض لانه في حال نزوله في هذا العالم يكون ارض ويكون ماءا ، ولا تحمل الارض في الخبر على هذه الارض المادية وكذلك الطينة ، لان هناك قرائن في الرواية تصرف حمل الارض والماء على هذه المادية ، وهذا ليس من المجاز لان الالفاظ لم توضع للمصاديق المادية وانما وضعت لروح المعنى ، والا لو قلنا ان لفظ الارض وضع لهذه الارض المادية واستعماله في غيرها يكون من باب المجاز يلزم ان نقول ان الارض التي يحشر عليها الناس هي ليست بارض حقيقة بل مجازا لانه سبحانه يقول : **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [إبراهيم : ٤٨]**

ويؤيد هذا المعنى روايات اخرى كثيرة تقول انه سبحانه اخذ من طين الجنة او من عليين او من اعلى عليين وخلقهم منها كما في هذه الروايات :

منها : عن أبي - حمزة الثمالي ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : ان الله تبارك وتعالى خلقنا من أعلى عليين ، وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا منه ، وخلق أبدانهم من دون ذلك ، فقلوبهم تهوى إلينا ، لأنها خلقت مما خلقنا منه ، ثم تلا هذه الآية : " كلا ان كتاب الأبرار لفى عليين ، وما أدريك ما عليون ، كتاب مرقوم يشهده المقربون . المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقي - ج ١ - ص ١٣٢

ومنها : عن عبد الله بن كيسان ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك أنا مولاك عبد الله بن كيسان ، فقال : أما النسب فأعرفه ، وأما أنت فلست أعرفك ، قال : فقلت له : انى ولدت بالجبل ، ونشأت بأرض فارس ، وأنا أخالط الناس في التجارات وغير ذلك ، فأرى الرجل حسن السمت وحسن الخلق والأمانة ، ثم أفتشه فأفتشه عن عداوتكم ، وأخالط الرجل فأرى فيه سوء الخلق وقلة أمانة وزعارة ، ثم

أفتشه فأفتشه عن ولايتكم فكيف يكون ذلك ؟ - قال : فقال لي : أما علمت يا بن كيسان ، أن الله تبارك وتعالى أخذ طينة من الجنة وطينة من النار فخلطهما جميعا ثم نزع هذه من هذه ، فما رأيت من أولئك من الأمانة وحسن السمت و حسن الخلق ، فمما مستهم من طينة الجنة ، وهم يعودون إلى ما خلقوا منه ، وما رأيت من هؤلاء من قلة الأمانة وسوء الخلق والزعارة ، فمما مستهم من طينة النار ، وهم يعودون إلى ما خلقوا منه . المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقي - ج ١ - ص ١٣٦ – ١٣٧

ومنها : عن بصائر الدرجات بسند صحيح : عن ربعي عن علي بن الحسين عليه السلام قال إن الله تعالى خلق النبيين من طينة عليين قلوبهم وأبدانهم وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة وخلق أبدان المؤمنين من دون ذلك وخلق الكفار من طينة سجين قلوبهم وأبدانهم فخلط بين الطينتين فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن و من هيهنا يصيب المؤمن السيئة ومن هيهنا يصيب الكافر الحسنة فقلوب المؤمنين تحن إلى ما خلقوا منه وقلوب الكافرين تحن إلى ما خلقوا منه .

بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص ٣٥

فهذه الروايات بعضها يقول من طينة الجنة وبعضها يقول من عليين وبعضها يقول من اعلى عليين ، فالارض والطين المذكور في الرواية ليس هو طين هذه الارض ، وقد بينا كيف خلقوا من طين ذلك الطين قلنا انه ما من شيء الا وهو موجود في خزائن الله قبل خلقه بما في ذلك الجنة ثم بعد ذلك يتنزل الى عالم الخلق ، فالله سبحانه اخذ من طين الجنة الموجودة في خزائنه وخلق انبيائه واوليائها منها ، ونفس الكلام يأتي في طين النار وسجين .

كلام للطباطبائي وماقشته

وللعلامة الطباطبائي قدس الله نفسه كلام قد يفهم منه انه يذهب الى ان الطينة المخلوق منها المؤمن هي من هذه الارض والتي مخلوق منها الناصب هي من هذه الارض ومعنى انه من الجنة انها ستكون من الجنة ويؤول امرها الى الجنة وكذلك طينة الناصب قال :

فكان المراد بطينة الجنة والنار في الروايات الطينة التي ستكون من أجزاء الجنة أو النار ، وخاصة بالنظر إلى بعض تعبيراته كقوله عليه السلام : من طينة عليين ومن طينة سجين ومن طينة الجنة ومن طينة النار .

وعلى هذا فالمراد أن الانسان مأخوذ بحسب تركيب أجزاء بدنه من المادة الأرضية أما مادة طيبة أو مادة خبيثة ، وهي بحسب وصفها البارز فيها مؤثرة في الانسان في إدراكاته وعواطفه الباطنية وقواه ثم إذا شرعت قواه وعواطفه المناسبة لمادته في العمل تأيدت أعمال المادة بأعمال العواطف والقوى وبالعكس ولم يزل على ذلك يشتد أمره حتى يتم إنسانا سعيدا أو شقيا على حسب ما نظمه الله من عمل الأسباب وأراده ولله فيه البداء بتسليط سبب آخر أقوى من الأسباب الموجودة الفعالة يبدل مجرى سير الانسان ويمنع من تأثير الأسباب المخالفة له . تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٨ – ص١٠٠

اقول مما لا شك فيه ان افراد الانسان يخلقون من هذه المادة الارضية فان الارض تنبت ويصبح طعاما والطعام يتحول الى اجزاء في بدن الانسان ومنه تتكون النطفة ،

وايضا مما لاشك فيه ان صنف الارض والمناخ والبيئة له تأثير في نشوء الانسان ، ولكن الروايات غير ناظرة الى هذا الامر ، نعم قد تكون هناك بعض الروايات كما ينقله هو في كيفية خلقة ادم وانه خلق من اديم الارض ومنها السباخ ومنها غير ذلك ، ولكن هذه الروايات التي نحن بصددها غير تلك فهذه صريحة على ان الخلق من طينة الجنة او من عليين او من اعلى عليين ، ولا معنى لحملها على انها ستكون في الجنة فان هذا خلاف الظاهر ، ولا يمكن ان تكون مثل رواية خلق ادم مفسرة لهذه فان تلك تتحدث عن شيء وهذه عن اخر ، فان هذه الرويات تبني عطاء الله للانسان وتيسيره الى مايريد مبني على علم الله سبحانه ، فانه خلقة من الطينة الطيبة حتى ييسره ويعينه على مايريد ، لا لانه نشئ من هذه الطينة الطيبة فيميل الى ماهو حسن فرق بين الامرين .

ويمكن النقض عليه بان هناك اشخاص نشأوا في نفس المكان والبيئة والمناخ والابوين ونفس الطعام والظروف ومع ذلك يكونان مختلفين احدهما من اهل السعادة والاخر من اهل الشقاء كما في ابناء نوح عليه السلام بعضهم مؤمن وبعضهم كافر ، فلو كانت اوصاف الارض المادية تؤثر فيهم حتى لو كان على نحو الاقتضاء لاثرت فيهما معا ، اما كلاهما سعيد او كلاهما شقي .

فهما بلا شك قد خلقا من طينتين مختلفتين احدهما من طينة الجنة والاخر من طينة النار ، وهذه الطينة ليست هي الطينة الارضية بناءا على حمل الروايات على ظاهرها فلا يرد الاشكال على ما ذهبنا اليه .

ولعل العلامة رحمة الله عليه ملتفت الى ذلك حيث انه ذهب الى جواب اخر قال : ويمكن أن توجه هذه الأخبار بوجه آخر أدق يحتاج تعقله إلى صفاء في الذهن وقدم صدق في المعارف الحقيقية . تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٨ - ص ١٠١

خلط الطينتين

قوله عليه السلام : ولو ترك طينتكم يا إبراهيم على حاله - كما ترك طينتنا - لكنتم ونحن شيئا واحدا .

مرداه عليه السلام لو لم تمزج طينتكم بالطينة الاخرى ومائها ، لكنتهم ونحن شيء واحد ، يعني تكونوا من اولياء الله واصفيائه .

ان قلت وما ذنبهم انهم خلط طينتهم مع غيرها فنزلوا عن مرتبة ائمة اهل البيت عليهم السلام ؟

قلت لم يلتفت الى ما قدمنا من الكلام فانا قسمنا الناس الى اقسام اربعة في علم الله سبحانه وتعالى وقلنا قسم يريد السعادة ويسعى لها بكل ما اوتي من طاقة واستعداد ، وهؤلاء هم الانبياء واوصيائهم على اختلاف درجاتهم وهم خلقوا من صفو الطين وخالصه حتى يعينهم على الوصول الى ما ارادوا ، وقسم يريد الكمال ويسعى له ولكن سعي متباطئ فيخلط عملا صالحا واخر سيئا ، وهذا لا يخلقه من صفو الطين وخالصه لانه لايريد اعلى درجات الكمال فلو خلقه من صفو الطين يكون قد وضعه في غير موضعه وهو خلاف حكمته سبحانه ، لذا مزج طينتهم مع الطينة الاخرى .

قوله عليه السلام : قلت : يا بن رسول الله ما فعل بطينتنا ؟ قال : أخبرك يا إبراهيم ، خلق الله - عز وجل - بعد ذلك أرضا سبخة خبيثة منتنة ، ثم فجر منها ماء أجاجا آسنا مالحا ، فعرض عليها ولايتنا أهل البيت ولم تقبلها . فأجرى ذلك الماء عليها سبعة أيام حتى طبقها وعمها ، ثم نضب ذلك الماء عنها ، ثم أخذ من ذلك الطين فخلق منه الطغاة وأئمتهم ، ثم مزجه بثفل طينتكم . ولو ترك طينتهم على حاله ولم يمزج بطينتكم لم يشهدوا الشهادتين ، ولا صلوا ولا صاموا ولا زكوا ولا حجوا ، ولا أدوا أمانة ولا أشبهوكم في الصور ، وليس شئ أكبر على المؤمن من أن يرى صورة عدوه مثل صورته " .
قلت : يا بن رسول الله فما صنع بالطينتين ؟ قال : " مزج بينهما بالماء الأول والماء الثاني ، ثم عركها عرك الأديم ، ثم أخذ من ذلك قبضة فقال : هذه إلى الجنة ولا أبالي ، وأخذ قبضة أخرى وقال : هذه إلى النار ولا أبالي .
والقسمان الاخران من الناس وهم من علم منه انه يسعى للشقاء بكل ما اوتي من طاقة واستعداد ، ومن يسعى نحو الشقاء سعيا متباطئا ، وكلاهما ايضا في علم الله انهم كذلك فهؤلاء حتى يعينهم ويهيئ لهم اسباب وصولهم الى ما ارادوا لابد ان يخلقهم من طريق سهل ، وهو ان يخلق ارض سبخة خبيثة منتنه ويجري عليها الماء الاجاء الآسن ويعرض عليها ولاية اهل البيت عليهم السلام فلا تقبلها لانها لايمكن ان تكون سببا ومعينا على الصلاح والسعادة بل تكون مانعة من ذلك ، لذا فانها لم تقبل ولايتهم عليهم السلام ، فاخذ الله من ذلك الطين ما كان اشد خبثا ونتونة فخلق منه الطغاة وائمتهم ، ثم ما بقي منها وهو الثفل مزجه بثفل الطينة الطيبة ، لان القسم الرابع من الناس لا يسعى حثيثا للشقاء بل سعيه متباطئ يعني انه يخلط عملا سيئا وخر صالحا ، وهذا لايمكن ان يتحقق من الطينة الخبيثة مالم تمزج بالطينة الطيبة ، لذا فلو لم يمزج مابين الطينتين ، لكان عندنا قسمين من الطين فقط طينة طيبة وطينة خبيثة ، وهما لا يفيان بالغرض لان الناس في علم الله على اربعة اقسام فيحتاج اربعة اقسام من الطين وهذا لا يحصل الا من مزج اسفل الطينه الطيبة مع اسفل الطينة الخبيثة ، حتى يخلق منها اهل السعادة المتباطئون في طريقها ، واهل الشقاء المتباطئون في طريقه .

الخلط والمزج لتيسير الطريق

ليس الخلط هو السبب في ان المؤمنون يرتكبون المعاصي ، ولو لم يخلط لما صدر منهم ذلك ، بل ان المؤمنون في علم الله انهم يريدون السعادة ويسعون اليها ولكن يتباطئون ويتثاقلون فهم في علمه سبحانه تصدر منهم المعاصي ، لذا خلقهم من هذه الطينة الطيبة المخلوطة بالخبيثة ، فسبب الخلط انه علم منهم انهم يعصون فيسر لهم سبيل ذلك ، وكذلك الحال بالنسبة الى اتباع الطغاة فلم تصدر منهم الطاعات بسبب الخلط بين الطينتين بل بسبب ضعف سعيهم للشقاء وتثاقلهم لذا سهل الله عليهم هذا الطريق بخلط طينتهم مع الاخرى .
فبعد ان مزجهما وعركهما أي دلكهما فامتزجا واختلطا قبض قبضة قال هذه الى الجنة ولا ابالي واخذ اخرى وقال هذه الى النار ولا ابالي ، ومرداه عليه السلام ان

اهل الجنة هم اهل الطينة الطيبة واهل النار هم اهل الطينة الخبيثة لان انه يدخل الجنة بعض من الخبيث ويدخل النار بعض من الطيب ، ويدلك على ذلك ما جاء في رواية ابن كيسان حيث قال له الامام عليه السلام ، أن الله تبارك وتعالى أخذ طينة من الجنة وطينة من النار فخلطهما جميعا ثم نزع هذه من هذه - الى ان قال - وهم يعودون إلى ما خلقوا منه .

قوله عليه السلام : ثم خلط بينهما فوقع من سنخ المؤمن وطينته على سنخ الكافر وطينته ، ووقع من سنخ الكافر وطينته على سنخ المؤمن وطينته . فما رأيته من شيعتنا من زنا أو لواط أو ترك صلاة أو صيام أو حج أو جهاد أو خيانة أو كبيرة من هذه الكبائر فهو من طينته الناصب وعنصره الذي قد مزج فيه ، لأن من سنخ الناصب وعنصره وطينته اكتساب المآثم والفواحش والكبائر . وما رأيت من الناصب ومواظبته على الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وأبواب البر فهو من طينة المؤمن وسنخه الذي قد مزج فيه ، لأن من سنخ المؤمن وعنصره وطينته اكتساب الحسنات واستعمال الخير واجتناب المآثم .

هنا يبين عليه السلام انه بعد الخلط وقع من سنخ المؤمن أي من اصله يعني من الاصل الذي خلق منه وهو الطينة الطيبة على الكافر ، ووقع من سنخ الكافر أي من اصله وهو الطينة الخبيثة على سنخ المؤمن وطينته ، وهذا الذي وقع هو الذي يعين ويساعد على القسمين على ان يفعل افعال القسم الاخر فتصدر بعض الاعمال القبيحة والمعاصي من المؤمن وتصدر بعض الاعمال الحسنة والصالحة من الكافر .

وهذا واضح على اساس ما بيناه .

شاهد صدق

وقبل الانتقال الى فقرة اخرى ناتي بشاهد من القران الكريم على صحة هذه الفرات التي مرة من الرواية ، حتى لايقال انها ضعيفة السند قال تعالى : {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [الأعراف : ٥٨] وقال تعالى : {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [النور : ٢٦] فالطيب يصدر منه ما هو طيب وكذا الخبيث كما ذكر ذلك في تفسير هذه الاية جامع البيان للطبري ومعاني القران للنحاس حيث قال هذا احسن ما قيل في الاية ، ونقل عنه ذلك الرغب الاصفاني .

فالمؤمن لانه متلبس بالاعتقاد الحق ومتغلل في كيانه يتحول جوهره الى عنصر طيب فيثمر الطيب والصلاح ، وهو الذي يرفع صاحبه الى القرب قال سبحانه :{ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر : ١٠] وقال سبحانه : **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)** (سورة ابراهيم) فالذين امنوا يثبتهم الله

كثبات اصل الشجرة الطيبة وتثمر في كل حين ، والذن كفروا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار بسبب انهم احلوا قومهم دار الهلاك والبوار .
فالمؤمن طيب الذات والخلقة والكافر خبيث الذات والخلقة ، وكل منهما افعالهما من سنخه .

رد الاعمال الى اصحابها الحقيقيين

قوله عليه السلام : فإذا عرضت هذه الأعمال كلها على الله - عز وجل - قال : أنا عدل لا أجور ، ومنصف لا أظلم ، وحكم لا أحيف ولا أميل ولا أشطط ، ألحقوا الأعمال السيئة التي اجترحها المؤمن بسنخ الناصب وطينته ، وألحقوا الأعمال الحسنة التي اكتسبها الناصب بسنخ المؤمن وطينته ، ردوها كلها إلى أصلها ، فإني أنا الله لا إله إلا أنا عالم السر وأخفى ، وأنا المطلع على قلوب عبادي لا أحيف ولا أظلم ولا ألزم أحدا إلا ما عرفته منه قبل أن أخلقه .
هذه من اهم الفقرات التي لابد ان نقف عليها جيدا ، وان كانت قد اتضحت بعض الشيء من خلال ما قدمنا .

بحث في اكتساب العمل

لابد من البحث اولا ان اعمال الغير هل يمكن ان يكون لها ارتباط ما بغير فاعلها ام ان الفعل مربط فقط بفاعله ؟
تارة نتكلم عن الفعل بما هو اعمال للجوارح واخرى نتكلم على النتائج والاثار المترتبة عليه ، والقسم الاول من الواضح للعيان ان جوارح كل انسان مرتبطة به فما تقوم به يكون مرتبط ايضا ، وحركات الجوارح و اعمالها من دون النظر الى ما ورائها من القصد والدافع لا يحكم عليها بالحسن والقبح ، ولا اريد هنا ان ادخل في معترك بحث الحسن والقبح وهل انه يوجد حكم للعقل بهما او لا ، واذا وجد هل الحسن والقبح فعلي او فاعلي وما شاكل ذلك من الابحاث فانه مبحوث في مظانه ، ولكن مقصدي هو لو فرض ان هناك بدن من دون نفس يقوم باعمال الجوارح كالانسان الآلي الروبوت فهل يحكم على افعاله بالحسن والقبح او لا ؟
اقول ان الاعظاء حينما تقوم بوضائفها فهذا امر حسن ، العين حينما تنظر، واللسان حينما يتكلم ، والاذن حينما تسمع ، واليد حينما تتفنن ، والرجل حينما تسعى ، هذا جيد ، وهي بهذا بالضبط كالآلة فان السكين حينما تقطع تؤدي وضيفتها اما حينما تعجز عن اداء الوضيفة بسبب عطب فهي تفقد آليتها ، لا يحق لاحد ان يحساب السكين ويقول لها لم قتلتي فلان ، كما قال الجدار للوتد لم تشقني ؟ قال الوتد له سل من دقني ، واعضاء الانسان انما تتحرك وتنجز عملا ما اذا كان ورائها ارادة من صاحبها لانجاز ذلك العمل والارادة مسبوقة بالشوق والشوق مسبوق بالتصديق والتصديق مسبوق بالتصور ، فالنفس حينما تريد شيئا تستعمل الجوارح لانجازه ، فالجوارح وان كانت هي التي انجزت العمل ولكن لا لوحدها من دون تحرك النفس لها .

فارتباط الفعل بالفاعل امره واضح لا يحتاج الى كثير كلام ، وان كان هناك كلام فانما هو في ارتباط غاية الفعل بالفاعل ، ونحن في بعث سابق بينا معنى الغاية وكيف تكون محركة للفاعل ، فهي متقدمة بوجودها العلمي على وجودها الخارجي العيني ، وما هو المقدار الذي تحققه من الكمال لفاعلها .
ولكن هناك من شكك في ارتباط الغاية بالفعل اولا ، ومن ثم ارتباطها بالفاعل ، نضرب مثال بسيط على ذلك وهو ان الجائع يصدر منه فعل الاكل للطعام فالاكل مرتبط به ، ولكن هل الشبع وهو الغاية للاكل مرتبط بالاكل اولا ومرتبط بالاكل ثانيا اولا ؟
يعني ان الفعل هو الواسطة لربط الغاية بالفاعل الفاعل هو الانسان الجائع والغاية هي الشبع والفعل هو الاكل ، فالاكل هو الذي ربط الشبع بالجائع ، يعني عندما قام الجائع بفعل الاكل تحققت الغاية له وهي الشبع .
قد تقول وهل يمكن ان يشكك احد بهذا ؟ فان امره واضح .
اقول ليس جميع الافعال امرها واضح في ارتباطها بغاياتها ، لذلك اشكل الامر على بعض فانكر الارتباط فانه وجد ان بعض الافعال تعطي غير الغاية المرجوة منها ، من قبل الذي يحفر بئرا لكي يستخرج منه الماء فيجد كنزا ، او الذي يجلس تحت جدار من اجل ان يستظل به فيقع الجدار عليه ويقتله ، والمحقق في محله ان هذا التوهم باطل فان هذه الغايات مترتبطة بالافعال التي سبقتها .
والنتيجة ان الفعل بما هو حركات جوارحية مرتبط بفاعله ، ولا يرتبط بغيره ،.واما الاثر المترتب على الفعل الذي قلنا انه غاية هو مرتبط بصاحب الفعل بواسطة الفعل.
ولكن هل يمكن ان يرتبط بغيره ؟ او يمكن ان ينفك عن صاحب الفعل ام لا يمكن ؟

ارتباط الفعل بغير الفاعل وانفكاكه عن الفاعل

اقول ان اثر الفعل يمكن ان يرتبط بغير فاعله ، وهذا القول على اجماله قد يقال انه غير مقبول ، ولكن اذا فصلنا الكلام فيه تتضح حقانيته .
وتفصيل الكلام فيه هو ان الاثر المترتب على فعل فاعل ما ، مرتبط بذلك الفاعل ولكن نحن بينا في باحاث سابقة ان الفعل حتى يصدر من فاعل لا بد ان يكون مسبوق بعدة مبادئ وهي الارادة والشوق والتصديق والتصور ، وقلنا ما لم تتحقق هذه الامور فان الفعل الاختياري لا يصدر من الانسان ، نعم قد تصدر افعال غريزية من دون هذه المبادئ ولكن هذه الافعال خارجة عن محل الكلام ، فكلمنا في الافعال الارادية للانسان .
فالنتيجة ان العلم - وهو التصور والتصديق - بفائدة الفعل هو الذي يجعل الانسان يشتاق اليه ويريده ثم يتحرك نحوه ، وهذا العلم الذي يحصل لزيد من الناس انما حصل له من غيره ، لان الانسان عندما يخرج من بطن امه لا يمتلك علم كما قال الله سبحانه : {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل : ٧٨] فاذا كان العلم له سببية للفعل ،

وهو مسببٌ عن الغير ، فيكون الغير من اسباب الفعل ، فكما ان الفعل مرتبط باسبابه القريبة هو مرتبط باسبابه البعيدة ايضا .
وحتى يتضح هذا المعنى اكثر نضرب له مثال وهو :
عندما يخبرني شخص ان خدمة الناس وتقديم المساعدة لهم فيه خير لي وانه يوجب لي السعادة في الدنيا والاخرة ، وانا استنادا الى قوله حصل عندي علم بفائدة هذا الفعل لي ، ولذلك اشتقت اليه واردته وفعلته ، فجوارحي هي الفاعل القريب لتقديم المساعدة للاخرين وارادتي وشوقي فاعل متوسط وعلمي فاعل بعيد والذي اخبرني وافادني العلم فاعل ابعد ، فلو انه لم يخبرني بذلك لما فعلت هذا الفعل ، وما قدمت مساعدة لاحد ، وكذلك في الاعمال السيئة حينما يقول لي ان مصلحتي اهم من مصلحة كل الناس فمن حقك ان تسحق كل الناس لاجل مصلحتك ، فهذا العلم اذا صارا سببا ومحركاً لي في ظلم الاخرين ، فان هذا الظلم يرتبط بي مباشرة ويرتبط بمن امرني بذلك لانه سبب من اسباب الفعل وان كان سبب بعيد .
اذا اتضح هذا يكون من الواضح ان الفعل لايرتبط بفاعله المباشر له فقط بل يرتبط بكل سبب دعى الفاعل القريب الى انجاز الفعل ، فلو اشترك الف شخص في ايصال معلومة لي وتلك المعلومة حركتني لافعل فعل من الافعال فان هذا الفعل يرتبط بي وبالاشخاص الذين اوصلوا لي المعلومه فاني بسببهم قمت بذلك الفعل .
فالفعل يرتبط بفاعله وبغير فاعله اذا كان ذلك الغير من الاسباب البعيدة لحصول الفعل ، اما من لم يكن له أي صلة بالفعل لا من قريب ولا من بعيد فلا يمكن ان يكون له ارتباط بهذا الفعل .
اما هل يمكن ان ينفك اثر الفعل عن الفاعل سواء الفاعل القريب او الفاعل البعيد ؟
اقول لابد اولا ان نميز بين الاثر الذي يكون امده محدودا والاثر الذي يكون امده غير محدود ، فانه ليس كل فعل ينتج اثرا دائما او كل فعل ينتج اثرا محدودا ، وهذا شيء واضح فان الاكل وهو فعل من الافعال قد يستغرق عدة دقائق ولكنه يجعل الاكل شبعانا لساعات ، فالاكل محدود واثره وهو الشبع محدود كذلك ، اما لو مسك شخص مسمارا وضرب بها عينه فانه يبقى فاقدا للبصر مهما طال عمره ، فالفعل وان كان محدودا ولكنه انتج اثرا غير محدود .
فالاثر المحدود ينفك عن صاحب الفعل لان امده قد انتهى ، اما الاثر غير المحدود فانه لاينفك عن صاحب الفعل لان امده غير محدودا ، اما لماذا صار هذا الفعل ذا اثر محدود وذاك صار ذا اثر غير محدود ؟ هذه فيه كلام ليس هنا محله .
فالنتيجة التي انتهينا اليها هي :
ان الفعل يرتبط بغير فاعله اذا كان ذلك الغير له دخل بنحو من الانحاء في تحقق الفعل من الفاعل ، وهذا هو الجواب عن السؤال الاول ، وان الاثر الناتج من الفعل قد ينفك عن صاحب الفعل اذا كان امده محدودا ولا ينفك عنه اذا كان امده مطلقا غير محدود ، وهذا هو الجواب عن السؤال الثاني .

مسانخة الفعل للفاعل

في بادئ الامر لابد ان نوضح ماهو المراد من السنخية بين الفعل والفاعل في كلام الحكماء ؟

قالوا ان هناك خصوصية في الفاعل هذه الخصوصية هي التي جعل هذا الفعل يصدر من هذا الفاعل دون غيره ، فان في النار خصوصية هي التي جعلتها تعطي الاحراق والحرارة والضوء ، ولولا تلك الخصوصية لما صدرت هذه الاثار من النار ، ولو كانت هذه الاثار تصدر من دون أي خصوصية لكان أي شيء يمكن ان يقوم بفعل النار ويؤثر اثرها ، فكل شيء حينما يعطي اثرا فذلك بسبب خصوصية فيه ، فتلك الخصوصية التي عند الفاعل هي التي تجعل الفعل منسجما مع هذا الفاعل دون غيره ، وهذا هو معنى السنخية بين الفعل وفاعله في كلام الحكماء والفلاسفة .

يقول السيد الطباطبائي قدس الله نفسه في نهاية الحكمة :

و من الواجب أن يكون بين المعلول و علته سنخية ذاتية هي المخصصة لصدوره عنها و إلا كان كل شيء علة لكل شيء و كل شيء معلولا لكل شيء .نهاية الحكمة – محمد حسين الطباطبائي – ص٢١٥

وهذه السنخية ثابتة عندهم عقلا ، ويثبتونها نقلا ايضا ، من خلال بعض الايات الدالة على ذلك منها قوله تعالى : {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} [الإسراء : ٨٤] وقوله سبحانه : {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا} [الأعراف : ٥٨] فليس أي فعل يصدر من كل فاعل ، فان العطاء يصدر من الجواد الكريم ، ولا يصدر من البخيل ، والاقدام يصدر من الشجاع ولا يصدر من الجبان ، والعدل يصدر من العادل ولا يصدر منه الظلم ، لذا قال سبحانه {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت : ٤٠] ، وقال : { فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [الروم : ٩] يعني ليس من شأنه ذلك ولا يصدر منه الظلم لانه يوجد ما يدعوه الى ذلك .

تطبيق الكلام على محل البحث

النفس الانسانية تقف في مفترق طريقين طريق موصل الى رضا الله وطريق موصل الى سخطه سبحانه ، وكل عمل يساعد الانسان في الوصول الى رضاه فقد بينه ورغب فيه ، وكل عمل فيه سخطه فقد حذر منه ، فكل عمل فيه خير فالله هو الداعي له والمرغب فيه ، وكل عمل شر هو بدعوة من الشيطان ، قال سبحانه : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [النور : ٢١] وقال : {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر : ٦]

فاذا كانت الاعمال الصالحة الله الذي رغب فيها فهو من مبادئها واسبابها ، والاعمال السيئة الشيطان امر بها ورغب فيها فهو من اسبابها وعللها ، كما ذكرنا ذلك في بحث ارتباط العمل بالعامل .

ولابد من الالتفات الى ان هناك من يمثل الله على الارض وهو خليفته والداعي بأسم الله الى كل خير ، وهناك من يمثل الشيطان ويدعو الى كل شر ، وكلا الداعيين من

البشر والعداء قديم بين الداعيين داعي الله وداعي الشيطان كما قال الله سبحانه : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ} [الأنعام : ١١٢] وكل منهما يسانخ من يمثله ويخلفه ، فالله هو محض الخير والكمال ولا يمكن ان يكون من يمثله ويخلفه الا كذلك ، والشيطان هو محض الشر والنقص فمن يمثله يكون كذلك .
فالاعمال الصالحة هي بالحقيقة لانبياء الله واوليائه فانهم خلفاء الله والداعين اليه باسمه ، لانها من سنخهم وحقيقتهم ، والاعمال السيئة هي بالحقيقة للشيطان والممثلين له من اعداء الله واعداء انبيائه واوليائه ، وهي من سنخهم وحقيقتهم ، فأولياء الله هم خالص الطينة الطيبة ، واولياء الشيطان هم خالص الطينة الخبيثة ، وهؤلاء هما القسمان الذين قلنا عنهما ان الله بعلمه الازلي علم منهم انهم يبذلون اقصى ماعندهم من امكانات للسير نحو السعادة والشقاء فيسر لهما ذلك بخلقهم من خالص الطينتين وكل منهما له اتباع ومريدين ، وهم الساعين الى السعادة والشقاء ولكن لا كسعي الاولين ، وقد يسر الله لهم ذلك وخلقهم من باقي الطينتين .
وهؤلاء الاتباع كل منهما يسير على خطى تابعيه قال تعالى : {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [هود : ٥٩] { فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} [هود : ٩٧] {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [لقمان : ٢١] هؤلاء اتباع الشيطان .
واما اتباع الرحمن فقال عنهم سبحانه : {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [غافر : ٧] {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} [محمد : ٣] {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران : ٩٥]

فاذا صدرت فاحشة من اهل الصلاح فهي ليس لهم لانها ليس من سنخهم وهي مرتبطة حقيقة بسنخها وهم اهل الفساد وهم الذين امروا بها وزينوها للمؤمنين ، قال تعالى : {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران : ١٤] {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام : ٤٣] {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر : ٣٩] فلولا تزين الشيطان واتباعه للباطل لما صدر من اهل الصلاح ابدا ، لذا حين يصدر منهم ويلتفتوا بعد ذلك يفرون منه الى الله كما قالله سبحانه : {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف : ٢٠١]

انقطاع اثر العمل
اذاً هذه الفواحش التي تصدر من اهل الايمان ليس لهم .
ان قلت كيف لا تكون لهم وهم من فعلها وصدرت منهم فهي لاتنفك عنهم .

قلت صحيح انها صدرت منهم بتزيين من اصحابها الحقيقين ، أي بحسبان انها لا تضر ايمانهم وانها تسجم معه ، ولو كانوا مؤمنين بانها تضر او لا تنسجم لما صدرت عنهم ، ويدلك على هذا صدر الرواية التي نحن بصددها فانه ذكر فيها :
يا بن رسول الله أخبرني عن المؤمن المستبصر إذا بلغ في المعرفة وكمل ، هل يزني ؟ قال : " اللهم لا " . قلت : فيلوط ؟ قال : " اللهم لا " . قلت : فيسرق ؟ قال : " لا " . قلت : فيشرب الخمر ؟ قال : " لا " . قلت : فيأتي بكبيرة من هذه الكبائر ، أو فاحشة من هذه الفواحش ؟ قال : " لا " .
ولانها صدرت عنهم وهي غير منسجمة مع ايمانهم فيكون امد تأثيرها محدودا ، يعني ان المؤمن يتأثر منها ، ولكن هذا التأثير اما يكون في الدنيا فقط او حتى في البرزخ او يستمر تأثيرها حتى اهوال القيامة ثم ينتهي وينفك عن المؤمنين ، ولكنه يبقى ملازم لاصحابه الحقيقين ، وهم الذين لايؤمنون بالله ولا يتبعون انبيائه واوليائه فهو منسجم مع كفرهم وجحودهم لذلك لا ينفك عنهم ويبقى امده غير محدود .
وبناءا على ما قدمناه في البحوث السابقة يكون واضحا كيف ان العمل السيء الذي صدر من المؤمن هو مرتبط بالكافرين ، فانهم من مبادئ الفعل ، ويتضح ايضا كيف يكون تأثير الفعل محدودا ومنقطعا ، او دائما غير منقطعا .
ذكر البرقي في المحاسن عن محمد بن مسلم قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : والله لا يصف عبد هذا الامر فتطمه النار ، قلت : ان فيهم من يفعل ويفعل ، فقال : انه إذا كان ذلك ابتلى الله تبارك وتعالى أحدهم في جسده فإن كان ذلك كفارة لذنوبه وإلا ضيق الله عليه في رزقه ، فإن كان كفارة لذنوبه وإلا شدد الله عليه موته حتى يأتي الله ولا ذنب له ثم يدخله الجنة .
وذكر عن يعقوب بن شعيب ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : رجل يعمل بكذا وكذا فلم ادع شيئا إلا قلته وهو يعرف هذا الامر ، فقال : هذا يرجى له والناصب لا يرجى له ، وإن كان كما تقول لم يخرج من الدنيا حتى يسلط الله عليه شيئا يكفر الله عنه به ، إما فقرا وإما مرضا . المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقي - ج ١ - ص ١٧٢
وفي تفسير الإمام العسكري : قال عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اتقوا الله معاشر الشيعة فان الجنة لن تفوتكم وإن أبطأت بها عنكم قبايح أعمالكم ، فتنافسوا في درجاتها ، قيل : فهل يدخل جهنم أحد من محبيك ومحبي علي عليه السلام ؟ قال من قذر نفسه بمخالفة محمد وعلي وواقع المحرمات ، وظلم المؤمنين والمؤمنات ، وخالف ما رسم له من الشريعات جاء يوم القيامة قذرا طفسا ، يقول محمد وعلي عليهما السلام يا فلان أنت قذر طفس لا تصلح لمرافقة مواليك الأخيار ، ولا لمعانقة الحور الحسان ، ولا الملائكة المقربين لا تصل إلى ما هناك إلا بأن تطهر عنك ما ههنا ، يعني ما عليك من الذنوب ، فيدخل إلى الطبق الاعلى من جهنم فيعذب ببعض ذنوبه . ومنهم من يصيبه الشدائد في المحشر ببعض ذنوبه ثم يلقطه من هنا ومن هنا من يبعثهم إليه مواليه من خيار شيعتهم ، كما يلقط الطير الحب ، ومنهم من يكون ذنوبه أقل وأخف فيطهر منها بالشدائد والنوائب من السلاطين وغيرهم ، ومن الآفات في الأبدان في الدنيا ليدلي في قبره وهو طاهر ، ومنهم من يقرب موته وقد بقيت عليه سية فيشتد نزعه ويكفر به عنه ، فان بقي شئ وقويت

عليه ، يكون له بطر واضطراب في يوم موته فيقل من بحضرته فيلحقه به الذل فيكفر عنه ، فان بقي شئ اتي به ولما يلحد فيوضع فيتفرقون عنه ، فيطهر . فإن كان ذنوبه أعظم وأكثر طهر منها بشدائد عرصات يوم القيامة ، فإن كانت أكثر وأعظم طهر منها في الطبق الاعلى من جهنم وهؤلاء أشد محبينا عذابا وأعظمهم ذنوبا ، ليس هؤلاء يسمون بشيعتنا ، ولكنهم يسمون بمحبينا والموالين لأوليائنا والمعادين لأعدائنا . إن شيعتنا من شيعنا ، واتبع آثارنا ، واقتدى بأعمالنا . بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٥ - ص ١٥٤ – ١٥٥

فهذه الروايات وامثالها تبين حقيقة انقطاع اثر الذنب عن المؤمنين ، ولا تتكفل بيان لزومه لا صحابه الحقيقين وهم الكافرين والناصبين .

واما صدور العمل الصالح من اعداء الله واوليائه ، فهو في الحقيقة ليس لهم وانما صدر منهم بسبب حث النبي (ص) لفعل الصالحات وبيان بركاتها ومنافعها ، فالاعمال الصالحة هي للنبي (ص) واهل بيته عليهم السلام هم اصحابها الحقيقين ، وهي غير منسجمة مع ذوات الجاحدين والمعادين للحق واهله ، فهي وان كانت صادرة منهم الا ان اثرها ينقطع عنهم ، ويبقى مع اصحابه الحقيقين ملازم لهم غير منفك عنهم وهم اهل الصلاح والداعين اليه ، قال تعالى : {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٧١] وقال سبحانه : {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة : ٦٧] ولانها صدرت منهم يكون لها اثر يعود اليهم وان كان ذلك الاثر منقطعا كما ورد ذلك في الروايات ايضا كما عن الصدوق في علل الشرائع :

قيل للصادق عليه السلام صف لنا الموت ؟ قال : للمؤمن كأطيب ريح يشمه فينعس لطيبه وينقطع التعب والألم كله عنه ، وللكافر كلسع الأفاعي ولذع العقارب أو أشد ، قيل فان قوما يقولون إنه أصعب من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض ورضخ بالأحجار وتدوير قطب الأرحية في الأحداق ، قال : كذلك هو على بعض الكافرين والفاجرين بالله عز وجل ألا ترون منهم من يعاني الشدائد فذلكم الذي هو أشد من هذا ألا ان من عذاب الآخرة فإنه أشد من عذاب الدنيا ، قيل فما بالنا نرى كافرا يسهل عليه النزاع فينطفي وهو يحدث ويضحك ويتكلم ، وفي المؤمنين أيضا من يكون كذلك وفي المؤمنين والكافرين من يقاسي عند سكرات الموت هذه الشدائد فقال : ما كان من راحة للمؤمن هناك فهو عاجل ثوابه وما كان من شديدة فتمحيصه من ذنوبه ليرد الآخرة نقيا نظيفا مستحقا لثواب الأبد لا مانع له دونه وما كان من سهولة هناك على الكافر فليوف أجر حسناته في الدنيا ليرد الآخرة وليس له إلا ما يوجب عليه العذاب وما كان من شدة على الكافر هناك فهو ابتداء عذاب الله له بعد حسناته ذلكم بان الله عدل لا يجور . علل الشرائع - الشيخ الصدوق - ج ١ - ص ٢٩٨

وعن الصدوق ايضا في معاني الاخبار :

دخل موسى بن جعفر (عليهما السلام) على رجل قد غرق في سكرات الموت ، وهو لا يجيب داعيا ، فقالوا له : يا ابن رسول الله ، وددنا لو عرفنا كيف الموت ، وكيف حال صاحبنا ؟ فقال (عليه السلام) : الموت هو المصفاة يصفي المؤمنين من

ذنوبهم ، فيكون آخر ألم يصيبهم كفارة آخر وزر بقي عليهم ، ويصفي الكافرين من حسناتهم ، فيكون آخر لذة أو نعمة أو راحة تلحقهم . وهو آخر ثواب حسنة تكون لهم ، وأما صاحبكم هذا ، فقد نخل من الذنوب نخلا ، وصفي من الآثام تصفية ، وخلص حتى نقي كما ينقى الثوب من الوسخ ، وصلح لمعاشرتنا أهل البيت في دارنا دار الأبد . معاني الاخبار – الشيخ الصدوق – ص٢٨٩

وروى البخاري عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها كالرزق في الدنيا وأما الكافر فيعطى حسناته في الدنيا حتى إذا قضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها .

خلق أفعال العباد - البخاري - ص ٨٦

الى هنا اتضح لدينا لحوق العمل بصاحبه ، أي العمل الذي يلائم ذات العامل هو الذي يلحق به ولا ينفك عنه ، فالناصب المعادي لاولياء الله والموالي لاعدائه هو الذي يامر بالمنكر ويزينه للمؤمنين ، فمبدئية العمل منه ، لذا ينقطع عن المؤمن ويرجع الى اصله وهو الناصب ، والمؤمن هو اصل العمل الصالح وهو الذي يامر به ، لذا ينقطع عن الناصب ويعود الى اصله .

قال عليه السلام : ردوها كلها إلى أصلها ، فإني أنا الله لا إله إلا أنا عالم السر وأخفى ، وأنا المطلع على قلوب عبادي لا أحيف ولا أظلم ولا ألزم أحدا إلا ما عرفته منه قبل أن أخلقه .

انما ردها الى اصولها لانه هو الله الجامع لكل صفات الكمال فهو الاله لا اله غيره ، ومن كماله انه يعلم السر واخفى ، ومطلع على قلوب عباده هل هي متعلقة متعلقة بمحبته ومحبة واوليائه وطالبة للقرب ، او انها مبغضةٌ لاوليائه محبة لاعدائه طالبة للقرب منهم ، فاذا علم منها ذلك الحق كل عمل باصحابه الحقيقيين لانه هم اهله ومنهم صدر ، قال عز اسمه: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة : ٦٧] وقال : {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٧١]

وليس في ذلك أي حيف او ظلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ولماذا يظلم ؟ فهل هناك من سبب يدعوه الى الظلم والحيف ؟

انما يظلم من كان جاهلا بالظلم وهو العالم ، او لانه يعجز عن العدل وهو القادر ، او لانه يريد ان يعبث وهو الحكيم ، او لانه يبخل بالعدل وهو الجواد الكريم ، فهو الكامل الذي لا ينسجم صدور الظلم مع ذاته الكاملة ، وهو معنى الالوهية في قوله (فإني أنا الله لا إله إلا أنا)

وقد عرفت انه عالم بخلقه قبل ايجادهم وما يكونوا عليه بعد ذلك ، وان علمه تابع لما هم عليه لذا يلزمهم بما ارادوا ، وييسره لهم .

شاهد صدق

وفي نهاية هذه الفقرة نستشهد لصحتها بقوله تعالى : {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [المائدة : ٢٩] فان القاتل وفق هذه الاية يحمل اثم المقتول كما عن الطباطبائي في تفسير الميزان قال :

والمراد بقوله : " أن تبوء بإثمي وإثمك " أن ينتقل إثم المقتول ظلما إلى قاتله على إثمه الذي كان له فيجتمع عليه الأثمان ، والمقتول يلقى الله سبحانه ولا إثم عليه ، فهذا ظاهر قوله : " أن تبوء بإثمي وإثمك " وقد ورد بذلك الروايات والاعتبار العقلي يساعد عليه . تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٥ - ص ٣٠٤

وقال في موضع اخر :

من المعاصي ما ينقل حسنات فاعلها إلى غيره كالقتل ، قال تعالى : " انى أريد ان تبوء بإثمي وإثمك " المائدة - ٢٩ ، وقد ورد هذا المعنى في الغيبة والبهتان وغيرهما في الروايات المأثورة عن النبي وأئمة أهل البيت ، وكذا من الطاعات ما ينقل السيئات إلى الغير كما سيجئ . وأيضا : من المعاصي ما ينقل مثل سيئات الغير إلى الانسان لا عينها ، قال تعالى : " ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم " النحل - ٢٥ ، وقال : " وليحملن أثقالا وأثقالا وأثقالهم " العنكبوت – ١٣ تفسير الميزان – السيد الطباطبائي – ج٢ ص١٧٣

فاذا كانت هذه المعاصي القتل والغيبة والبهتان تنقل حسنات صاحبها الى غيره فما بالك بعداوة اولياء الله !!

شبهة معارضة القران

قد يعترض على هذا الحكم الذي بينه الامام عليه السلام بانه خلاف القران الكريم ، فانه يقول : { وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام : ١٦٤] خمس ايات بهذا المضمون وقال : {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} [النجم : ٣٩] فهذه الايات تقول لايتحمل احد وزر وذنب اخر وكل انسان له سعيه ، وهذا لاينسجم مع رد الاعمال الصالحة للمؤمنين والاعمال الفاحشة على الناصبين ، والحال ان كل منهم لم يعملها ولم يكتسبها .

اقول ماذكرناه هو ايضا من القران ايضا ، واتضح وجه دفع هذا الاعتراض مما بيناه ، ولمزيد ايضاح نقول :

اولا : انا قلنا ان صالحات الناصب هي بامر وحث من النبي (ص) وهل بيته عليهم السلام واوليائهم ومتبعيهم ، فلهم سببية في صدورها من الناصب كما قلنا وذكرنا الاية المباركة التي تقول : {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٧١]

والناصب والمعادي لاهل الحق يامرون بالمنكر فالاعمال المنكرة بسببهم وتزينهم كما قال الله تعالى : {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة : ٦٧] ،وورد عن امير المؤمنين عليه السلام قال : قال النبي صلى الله عليه وآله : من

استن بسنة حق كان له اجرها واجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن استن بسنة باطل كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ولهذا القول من النبي صلى الله عليه وآله شاهد من كتاب الله ، وهو قول الله عزوجل في قصة قابيل قاتل اخيه : (من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل) مستدرك الوسائل - الميرزا النوري ج ١٢ ص ٢٣٠

وثانيا : انا قلنا كل من المؤمنين والناصبين قد اعطي جزاء عمله ، الناصب اعطي جزاء صالحاته في الدنيا ، والمؤمن جوزي على سيئاته في الدنيا والبرزخ او في بداية الحشر ، ثم ينقطع اثر العمل كما بينا ذلك مفصلا ، وذكرنا روايات في ذلك ، اذاً هناك اصلا في العمل الصالح ينتقل اثره للمؤمنين ويسلب عن الناصبين لانه بدء من المؤمنين لان ايمانهم منشأ كل خير وصلاح ، فانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهناك فرع في الاعمال الصالحة اعطي جزائه للناصب في حياته الدنيا وانقطع اثره ، وكذا الكلام في الاعمال السيئة التي صدرت من المؤمن فيها اصل يعود الى اصحابه لان بغضهم للحق واهله هو اساس كل شر ، وهناك فرع في الاعمال السيئة جوزي عليها المؤمن في الدنيا او البرزخ او بد الحشر .

فالايات القرانية باقية على حالها من دون ان يتلاعب بظواهرها ، بل ماقلناه يؤيد ماتذكره الايات الكريمة .

ظاهر القران وباطنه

ثم قال الباقر (عليه السلام) : " يا إبراهيم اقرأ هذه الآية " . قلت : يا بن رسول الله أية آية ؟ قال : " قوله تعالى : * (قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون) * هو في الظاهر ما تفهمونه ، وهو والله في الباطن هذا بعينه ، يا إبراهيم ! إن للقرآن ظاهرا وباطنا ومحكما ومتشابها وناسخا ومنسوخا .

الامام عليه السلام يبدأ بالاستدلال على ما ذكره ، واول مايستدل به هو القران الكريم ، حيث ذكر حكم نبي الله يوسف عليه السلام في اخذ اخيه ،حيث وضع صواع الملك في رحل اخيه وظاهر الاية هو انهم اخذوا اخا يوسف لانهم وجدوا في رحله المتاع ، ولم يأخذوا غيره لان فيه ظلم ، ولا يؤخذ البريء بجريرة المذنب .

وهنا نكتة لطيفة جدا في الاستدلال بهذه الاية في هذا المورد على كلام الامام عليه السلام ، والنكتة هي ان الامام عليه السلام يريد ان يقول :

اولا : ان الاعمال الصالحة هي متاع الملك يعني هو صاحبها وهو الله عز اسمه كما بينا ذلك فيما سبق .

وثانيا : ان الناصبين لم يسرقوا الاعمال الصالحة من المؤمنين بل وضعت في رحالهم ، اما كيف وضعت ؟ الجواب انها وضعت حينما مزجت طينتهم بطينة المؤمنين ، فصار عندهم من سنخ المؤمن وطينته كما مر .

وعلى هذا الاساس سوف يعاقب الناصب فقط وهو المأخوذ بالعقوبة ، لانه ليس له اعمال صالحة ، وما وجد عنده فهو ليس ملكه ، بل سيرد الى اهله .

وما الطف هذه النكتة التي لايعلمها الا من هم اهل الذكر وعدله ، لذا يقول عليه السلام ان باطن الاية عين ما قاله عليه السلام ، ويقسم عليه بالله .

ثم يقول عليه السلام ان القران الكريم لا يفهمه الا من نزل عندهم ، لانه يتضمن الظاهر والباطن والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ ، ومن غيرهم يعرف ما يتضمنه الكتاب العزيز ؟! وهل هناك من اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا غيرهم ؟!
فاذا كانوا هم المطهرون ، و (**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)**) (سورة الواقعة) فلا يمسه وينال معارفه سواهم ، لذا قال سبحانه : { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل : ٤٣]

ثم قال عليه السلام : " أخبرني يا إبراهيم عن الشمس إذا طلعت وبدا شعاعها في البلدان ، أهو بائن من القرص ؟ "
قلت : في حال طلوعه بائن . قال : " أليس إذا غابت الشمس اتصل ذلك الشعاع بالقرص حتى يعود إليه ؟ " قلت : نعم .
استعمال الامثال لتقريب فكرة وايجازها امر مفيد ، والقران الكريم بنى بيان كثير من معارف الدين على المثل ، قال سبحانه : {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر : ٢١] والغرض من التمثل هو تقريب فكرة فيها شيء من الغموض بامر واضح عند السامع ، بقطع النظر عن صحة الممثل به ، لان الغرض ليس هو نفس المثال حتى يبحث عن صدقه وكذبه ، لذا يقول اهل العلم (ليس من دأب المحصلين النقاش في المثال) لانه خلاف الغرض من التمثيل ، انما يساق المثل للتقريب والتوضيح ، فيجب التركيز على هذه النقطة فقط ، والسائل في محل كلامنا مرتكز في ذهنه فكرة واضحة ، لذا استند اليها الامام عليه السلام لتوضيح مراده ، ومراد الامام عليه السلام ان الاعمال الصالحة تعود الى المؤمنين والسيئة تعود الى الناصبين ، وكلاهما اصل لهذه الاعمال ومنهم صدرت حتى لو ظهرت للعيان انها منفصلة عنهم ومتعلقة بغيرهم ، ولكنها تعود الى اصلها ، وهذه الفكرة قد لا تكون واضحة في ذهن السائل ، فأتى عليه السلام بأمر واضح عند السائل فيه جهة مشابهة لفكرته ، وهو ان الشمس عندما تشرق تبعث شعاعها وينفصل منها ، فهي في السماء وشعاعها وضيائها في الارض ، وعندما تغيب يرجع اليها الشعاع ، فهو بعد ان انفصل عن اصله ، يرجع اليه ، هكذا العمل ايضا ، لذا يقول عليه السلام : كذلك يعود كل شئ إلى سنخه وجوهره وأصله ، فإذا كان يوم القيامة نزع الله - عز وجل - سنخ الناصب وطينته مع أثقاله وأوزاره من المؤمن ، فيلحقها كلها بالناصب . وينزع سنخ المؤمن وطينته مع حسناته وأبواب بره واجتهاده من الناصب ، فيلحقها كلها بالمؤمن .
ثم قال عليه السلام : أفترى هاهنا ظلما وعدوانا ؟ " قلت : لا يا بن رسول الله .
بعد ان وضح له الامر سأله ان كان يرى ان في رجوع كل شيء الى اصله هل فيه ظلم او عدوان ، او انه كل بضاعة ردت الى اصحابها ؟ فيجيب انه لا ظلم .
ثم قال : " هذا والله القضاء الفاصل والحكم القاطع والعدل البين ، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون .

لا يسأل عما يفعل وهم يسألون
القضاء هو فصل الامر قولا او فعلا ، كما يقول الراغب في مفرداته ، وانما يكون هناك فصل لما يكون هناك نوع من الالتباس والاختلاط في ادعاء لحق ، او في اجمال فعل ، وفي محل كلامنا المراد من القضاء هو فعله تعالى أي ارجاعه كل عمل الى صاحبه ، فهو قضاء فاصل وقاطع ، وعدل بين واضح ، لانه اعطاء كل شخص حسب ما يستحق ، وهذا حسن وليس فيه قبح ، وان كانت افعال الله سبحانه مقدمةُ على هذه الاحكام ، فهو لايسأل عن فعله ، لان كل قانون ماخوذ من فعله سبحانه ولا يوجد هناك قانون لموجود اخر يجب على الله سبحانه ان يطبق فعله عليه ، فكل قانون اكتشفه العقل من خلال نظره لفعل الله سبحانه ، فالقانون متأخر عن فعله لا مقدم عليه حتى يطبق فعله عليه واذا لم يطبقه يقال له لم فعلت هذا ، بخلاف غيره سبحانه ، فان فعله يكون متأخر عن القانون
قال الطباطبائي قدس الله نفسه :
و ليست هذه الوجوه و العلل أعني جهات الحسن و المصلحة إلا معاني أخذناها من سنة التكوين و الوجود الخارجي الذي هو منفصل من أذهاننا مستقل دوننا فأردنا في اختيار الأعمال الحسنة ذوات المصلحة أن لا نخبط في مسيرنا و تنطبق أعمالنا على سنة التكوين و تقع في صراط الحقيقة، فهذه الجهات و المصالح معان منتزعة من خارج الأعيان متفرعة عليه، و أعمالنا متفرعة على هذه الجهات محكومة لها متأثرة عنها، و الكلام في أحكامنا المجعولة لنا نظير الكلام في أعمالنا.
و أما فعله تعالى فهو نفس الكون الخارجي و الوجود العيني الذي كنا ننتزع منه وجوه الحسن و المصلحة و كانت تتفرع عليه بما أنها انتزعت منه فكيف يمكن أن يعد فعله تعالى متفرعا عليها محكوما لها متأثرا عنها، و كذلك أحكامه تعالى المشرعة تستتبع الواقع لا أنها تتبع الواقع فافهم ذلك. تفسير الميزان – محمد حسين الطباطبائي – ج٧ ص ١٢٢
فهو سبحانه لايسأل عما يفعل لا لانه مستبد في رأيه وفعله ، بل لانا انتزعنا جميع قوانيننا من فعله وخلقه فلا تعود هذه القوانين حاكمة عليه ومؤثرة في فعله لانها ستكون متقدمه على الفعل والحال انها متأخرة عليه .
فلا ينبغي الشك والريب والامتراء بهذا ، لانه الحق من ربك ، وما اروع بيان الامام عليه السلام حيث بين ان هذا هو قضاء الله يعني فعله في هؤلاء ومع ان العقل يحكم بعدله فهو لا يسأل عن فعله لان فعله هو الحق فلا ينبغي الشك والريب فيه .

ثم قال : هذا يا إبراهيم الحق من ربك فلا تكن من الممترين ، هذا حكم الملكوت " .
يقول صاحب الميزان :
قوله: الحق من ربك من أبدع البيانات القرآنية حيث قيد الحق بمن الدالة على الابتداء دون غيره بأن يقال: الحق مع ربك لما فيه من شائبة الشرك و نسبة العجز إليه تعالى بحسب الحقيقة.
و ذلك أن هذه الأقاويل الحقة و القضايا النفس الأمرية الثابتة كائنة ما كانت و إن كانت ضرورية غير ممكنة التغير عما هي عليه كقولنا: الأربعة زوج، و الواحد

نصف الاثنين، و نحو ذلك إلا أن الإنسان إنما يقتنصها من الخارج الواقع في الوجود و الوجود كله منه تعالى، فالحق كله منه تعالى كما أن الخير كله منه، و لذلك كان تعالى لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، فإن فعل غيره إنما يصاحب الحق إذا كان حقا، و أما فعله تعالى فهو الوجود الذي ليس الحق إلا صورته العلمية.
تفسير الميزان – محمد حسين الطباطبائي – ج٣ ص٢١٣

قلت :يا بن رسول الله وما حكم الملكوت ؟ قال : " حكم الله وحكم أنبيائه وقصة الخضر وموسى (عليهما السلام) حين استصحبه ، ف *) قال إنك لن تستطيع معي صبرا * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) * .
افهم يا إبراهيم اعقل ! أنكر موسى على الخضر واستفظع أفعاله حتى قال له الخضر : يا موسى ما فعلته عن أمري إنما فعلته عن أمر الله - عز وجل - من هذا .
ويحك يا إبراهيم ! قرآن يتلى وأخبار تؤثر عن الله - عز وجل - من يرد منها حرفا فقد كفر وأشرك ورد على الله عز وجل .
قال الليثي : فكأني لم أعقل الآيات - وأنا أقرؤها أربعين سنة - إلا ذلك اليوم .

حكم الملكوت
المَلَكُوتِ وهو اسمٌ مبنيٌّ من المُلْكِ كالجَبَرُوتِ والرَّهَبُوتِ من الجَبْر والرَّهْبَةِ ، فهو ملك ولكن مختص بالله سبحانه وتعالى يقول صاحب الميزان :
أن الملكوت هو وجود الاشياء من جهة انتسابها إلى الله سبحانه وقيامها به ، وهذا أمر لا يقبل الشركة ويختص به سبحانه وحده ، فالربوبية التى هي الملك والتدبير لا تقبل تفويضا ولا تمليكا انتقاليا . ولذلك كان النظر في ملكوت الاشياء يهدى الانسان إلى التوحيد هداية قطعية كما قال تعالى : (أولم ينظروا في ملكوت السماوات والارض وما خلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) (الاعراف : ١٨٥) تفسير الميزان - السيد الطباطبائي ج ٧ ص ١٧١
فالملكوت هو واقع الاشياء وحقيقتها ، لا ماهو ظاهر منها ، فان ظاهرها انها مملوكة لغير الله ولها الاستقلالية عنه سبحانه ، اما واقعها وحقيقتها فهي عن الفقر والحاجة والتعلق به ، وهذا هو ملكوتها ، فحكم الملكوت هو الحكم الذي يبتني على الواقع لا على الظاهر ، وهو حكم الله سبحانه وحكم انبيائه ، لان نظرهم الى واقع الاشياء فيكون هو الحق الذي لا مرية فيه .
وحكم الملكوت هو لله سبحانه اصالة ولانبيائه بالتبع ، لان واقع الاشياء مملوك له سبحانه خلقا وتدبيرا فهو يحكم فيها ويعطي حسب استعدادتها ، والانبياء يحكمون بأذنه بحكم الملكوت ، وليس ذلك دائما بل في موارد المصلحة ، ومن المعلوم ان النبي الاكرم (ص) والانبياء عليهم السلام يحكمون بحسب الظاهر لا يحكمون على واقع الشيء ، فقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال :
كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يحكم بين الناس بالبينات والايمان في الدعاوي ، فكثرت المطالبات والمظالم فقال : أيها الناس ! إنما أنا بشر ، وأنتم تختصمون ،

ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له من حق أخيه بشئ فلا يأخذنه ، فانما اقطع له قطعة من النار .
- وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي ج ٢٧ ص ٢٣٣
وعن علي عليه السلام أنه قال :
إنما أقضي بينكم بالبينات وإن داود صلى الله عليه وسلم قال :
يا رب إني أقضي بين خلقك بما لعلي لا أقضي فيه بحقيقة علمك ، فأوحى الله عز وجل إليه : يا داود ، اقض بينهم بالايمان والبينات وكلهم إلي فيما غاب عنك ، فأنا أقضي بينهم فيه بالاخرة .
قال داود : يا رب ، فأطلعني على قضايا الاخرة .
فأوحى الله إليه : يا داود إن الذي سألت ، لم أطلع عليه أحدا من خلقي ، ولا ينبغي أن يقضي به أحد غيري من خلقي ، فلم يمنعه ذلك أن عاد ، فسأل الله إياه ، فأوحى الله إليه : يا داود ، سألتني ما لم يسأله نبي قبلك ، وسأطلعك ، وإنك لا تطيق ذلك ، ولا يطيقه أحد من خلقي في الدنيا .
فجاء إلى داود رجل يستعدى على رجل في بقرة يدعيها عليه ، فأنكره وجاء ببينة ، فشهدت أنها له وفي يديه ، فأوحى الله إلى داود : خذ البقرة من الذي هي في يديه فادفعها إلى المدعى عليه ، وأعطه سيفا ، ومره أن يضرب عنق الذي وجد البقرة عنده ، ففعل داود ما أمره الله به ولم يدر السبب فيه ، وعظم ذلك عليه وأنكر بنو إسرائيل ما حكم به .
ثم جاء شيخ قد تعلق بشاب ومع الشاب عنقود من عنب ، فقال الشيخ : يا نبي الله ، إن هذا الشاب دخل بستاني وخرب كرمي ، وأكل منه بغير إذني ، وأخذ منه هذا العنقود بغير أمري .
فقال داود (ع) للشاب : ما تقول ؟ فأقر الشاب أنه قد فعل ذلك .
فأوحى الله إلى داود أن : مر الغلام بأن يضرب عنق الشيخ وادفع إليه بستانه . ومره بأن يحفر في موضع كذا وكذا منه ، فإنه يجد فيه أربعين الف درهم كان الشيخ قد دفنها فيه ، فليأخذها الشاب .
ففعل داود ذلك ، وازداد غما ، وتكلم بنو إسرائيل في ذلك ، فأكثروا الانكار عليه فيه ، واجتمعوا إليه ليكلموه في ذلك ، فهم عنده كذلك ، وقد تهيئوا أن يكلموه إذ أقبل ثور قد ند وهو يجري وهم ينظرون إليه إلى أن نظروا إلى رجل قد خرج من داره فأخذ الثور فربطه ، ثم دخل البيت فاستخرج سكينا فذبحه وسلخه ، وأقبل يقطع اللحم ويدخل إلى داره وهم ينظرون ، فهم على ذلك إذ أقبل رجل يشتد فقال لبعضهم : لعلك رأيت ثورا مر بك ، قال : نعم ، وهو ذاك ، قد ذبحه ذلك الرجل ، فاشتد حتى أتاه ، فقبض عليه وأتى به إلى داود ، فقال يا نبي الله ، أفلت لي ثور فوجدت هذا قد ذبحه وسلخه وهو يقطع لحمه ، ويدخله إلى داره ، وهذا رأس ثوري وجلده .
وأقام بينة ممن حضر ، فشهدوا له أنه له ، فقال للرجل الذي ذبحه : ما تقول ؟
قال : يا نبي الله ، ما أدري ما يقولون ، ولكنني خرجت يوما وما تركت في بيتي شيا لاهلي فأصبت ثورا نادا ، فذبحته وأدخلت لحمه في بيتي كما قال ، فما وجب علي في ذلك ، فامضه .

فأوحى الله إلى داود أن : مر هذا الرجل الذي جاء يطلب الثور أن يضجع وأمر الذي ذبح الثور أن يذبحه كما ذبح الثور ، وملكه جميع ما يملكه ، وما هو في يديه ، ففعل وتضاعف غمه وقام عليه بنو إسرائيل ، فقالوا : يا نبي الله ، ما هذه الاحكام ، بلغنا عنك شئ فجئنا فيه إليك حتى رأينا ما هو أعظم منه ، فقال :
والله ، ما أنا فعلت ذلك ولكن الله فعل وأمرني به ، وقص عليهم ما سأل الله إياه ، ثم دخل المحراب فسأل الله أن يطلعه على معاني ما حكم به ليخرج من ذلك إلى بني إسرائيل فأوحى الله إليه ، يا داود ، أما صاحب البقرة التي كانت في يديه فإنه لقى أبا الاخر فقتله ، وأخذ البقرة منه ، فعرف ابن المقتول البقرة ، ولم يجد ممن يشهد له ولم يعلم أن الذي هي في يديه قتل أباه وقد علمت ذلك فقضيت له بعلمي .
وأما صاحب العنقود فكان الشيخ صاحب البستان قتل أباه وأخذ منه مالا فاشترى منه ذلك البستان ، وبقى ما بقي منه في يديه فدفنه فيه ولم يعلم الشاب بشئ من ذلك وعلمته فقضيت له بعلمي .
وأما صاحب الثور ، فإنه قتل أبا الرجل الذي ذبح الثور وأخذ منه مالا كثيرا فكان أصل كسبه ، ولم يعلم الرجل وعلمته فقضيت له بعلمي . وهذا ، يا داود ، من قضايا الاخرة ، وقد أخرتها إلى يوم الحساب ، فلا تسألني تعجيل ما أخرت واحكم بين خلقي بما أمرت . - دعائم الاسلام - القاضي النعمان المغربي ج ٢ ص ٥١٨
ومن حكم الملكوت هو ما فعله العبد الصالح مع موسى عليه السلام حيث خرق السفينة وقتل الغلام واقام الجدار ، ولم يتضح واقع هذه الافعال لموسى عليه السلام حتى قص العبد الصالح امرها اليه وقال له ما فعلته عن امري ، فحكم الملكوت من مختصات الله سبحانه والانبياء حينما يحكمون به يحكمون بامر الله لمصلحة اوجبت ذلك .
ولابد ان يعلم ان حكم الملكوت هو من مظاهر يوم القيامة والاخرة ، والرواية التي مرت تذكر ذلك ، فان يوم القيامة هو يوم تقطع الاسباب الظاهرية وبروزهم لله سبحانه ، قال عز مجده : {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر : ١٦] وقال سبحانه : {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} [البقرة : ١٦٦]
فهناك يظهر ملك الله وسلطانه وتسقط اقنعة الاسباب الظاهرية ويبرز الواقع على ماهو عليه ، ولايعترض معترض هناك .
اما اذا حكم بحكم الملكوت في عالم الدنيا فلا يقبل عند الناس لان الاسباب الظاهرية لم تسقط بل هي المرئية للناس ولا يعلمون الواقع ، لذا لا يحتملون حكم الواقع اذا ظهر لهم ، والرواية تقول ان عليه السلام لايطيق هذا الحكم ، بل من هو اعلى شأنا من داوود لم يطق ذلك وهو موسى الكليم عليه السلام الذي هو من اولو العزم من الرسل حتى قال له العبد الصالح {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} [الكهف :٦٧-٦٨] فلما تكون الاسباب الواقعية خافية على الناس ويرون منها ما هو ظاهر ويعتادون على ذلك ويستأنسون به ، فانهم لا يطيقون حكم الواقع والملكوت ويستفضعونه ، فالكليم عليه السلام استنكر فعل العبد الصالح كما قال الله سبحانه : {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ

أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [الكهف : ٧١] وقال :{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} [الكهف : ٧٤]
والامام عليه السلام اخبر ابراهيم عن حكم الاخرة والملكوت وهو رد الاعمال لاصحابها الاصليين ، لانها في الظاهر كانت منتسبة لغير اصحابها ، اما في الاخرة بعد ما تتقطع الاسباب الظاهرية وتبرز الحقائق يتضح ان الاعمال الصالحة ليس للناصبين ، بل هي للمؤمنين ، وان الاعمال السيئة ليست هي للمؤمنين ، بل للناصبين ، فيرد كل بضاعة الى اهلها .
فهذه الايات بعد ان اوضحها الامام عليه السلام والاخبار التي ذكرها ، تكشف وجه الحقيقة ، ان هذا هو حكم الله العدل ، لذا قال عليه السلام ، ويحك يا إبراهيم ! قرآن يتلى وأخبار تؤثر عن الله - عز وجل - من يرد منها حرفا فقد كفر وأشرك ورد على الله عز وجل .
ومن حق ابراهيم الليثي ان يقول : فكأني لم أعقل الآيات - وأنا أقرؤها أربعين سنة - إلا ذلك اليوم . وانى له معرفة ذلك ؟! وهل يعرف حكم الاخرة والملكوت الا من اطلع عليه ؟! وهل يعرف القران الا عدله واهله ؟!
ويتعجب من هذا الحكم فانه ليس من احكام عالم الاسباب فيقول : يا بن رسول الله ما أعجب هذا ؟ تؤخذ حسنات أعدائكم فترد على شيعتكم ، وتؤخذ سيئات محبيكم فترد على مبغضيكم ؟
ومع ان المخبر هو الامام المعصوم عليه السلام ، والمفروض ان يتقبل ذلك منه من دون حرج ولا اختلاج الشك في الصدر ، فان الامام عليه السلام يراعي حاله ويعلم ان مثل هذا الحكم لم يحتمله موسى الكليم عليه السلام مع العبد الصالح ، ورد عنهم في روايات كثيرة جدا ان حديثهم صعب مستصعب ، منها :
عن جابر ، عن أبي جعفر عليه السلام قال :
إن حديثنا صعب مستصعب ، أجرد ذكوان ، وعر شريف كريم ، فإذا سمعتم منه شيئا ولانت له قلوبكم فاحتملوه واحمدوا الله عليه ، وإن لم تحتملوه ولم تطيقوه فردوه إلي الإمام العالم من آل محمد عليهم السلام فإنما الشقي الهالك الذي يقول : والله ما كان هذا ، ثم قال : يا جابر إن الإنكار هو الكفر بالله العظيم
- بحار الأنوار - العلامة المجلسي ج ٢ ص ١٩٢
وعن ابى بصير قال قال أبو جعفر عليه السلام حديثنا صعب مستصعب لا يؤمن به الا ملك مقرب أو نبى مرسل أو عبد (٤) امتحن الله قلبه للايمان فما عرفت قلوبكم فخذوه وما انكرت فردوه الينا . - بصائر الدرجات- محمد بن الحسن الصفار ص ٤١
فكيف يتوقع من ابراهيم الليثي ان يقبله من دون حرج ، لذلك اخذ الامام عليه السلام بالقسم بالايمان المغلظة على حقانية هذا الخبر .

معارف الامام عليه السلام من القران

قال عليه السلام : " أي والله الذي لا إله إلا هو ، فالق الحب وبارئ النسمة وفاطر الأرض والسماء ما أخبرتك إلا بالحق ، وما أتيتك إلا بالصدق ، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد ، وإن ما أخبرتك لموجود في القرآن كله " .

قلت : هذا بعينه يوجد في القرآن ؟

قال : نعم ، يوجد في أكثر من ثلاثين موضعا في القرآن . أتحب أن أقرأ ذلك عليك ؟

قلت : بلى يا بن رسول الله .

فقال : قال الله - عز وجل - (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم . . .).

الاية تبين اغراء الكافرين لاهل الايمان بانكم اذا كفرتم واتبعتم سبيلنا وحسبتم ان ذلك خطيئة فنحن سنحمل تلك الخطيئة عنكم ولا يصيبكم أي ضرر من اتباعنا ، والله سبحانه وتعالى يكذب دعواهم في حمل خطاياهم .

ولا يتصور ان هذا الكلام خلاف دعوى الامام عليه السلام حيث ان الاية تقول وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ، ودعوى الامام ان اعداء الحق واهله سيحملون خطايا المؤمنين فهي الى خلاف دعواه اقرب مما تكون دليلا على مدعاه .

لان مثل هذا التصور سطحي وليس له عمق في التدبر بمفاد الاية المباركة ، فان الاية تريد ان تقول ان الكافر هو من يتحمل خطيئة كفره ولا يحمل هذه الخطيئة احد عنه ، لذا قالوا لاهل الايمان اتركوا ايمانكم واتبعوا سبيلنا أي ادخلوا في الكفر معنا، واذا دخلتم في الكفر و حسبتم ان الكفر خطيئة فنحن من سيحملها عنكم ، والله كذب قولهم هذا بقوله (وما هم بحاملين)، والامام عليه السلام لم يقل ان الكافر سيحمل خطيئة الكافر وانما قال ان الكافر سيحمل خطيئة المؤمن ، فما نفته الاية هو حمل الكافر خطيئة الكافر واثبتت حمل الكافر خطيئة المؤمن وان لم تصرح بذلك ، حيث قالت (وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم) فهي اكدت ان الكافر لا يحمل خطيئة الكافر ثم بينت ان اهل الكفر سيحملون اثقالا مع اثقالهم فنعرف من خلال ذلك ان هذه الاثقال التي سيحملونها مع اثقالهم ليست هي خطايا الكافرين بل هي اثقال المؤمنين ، وهذه هي دعوى الامام عليه السلام .

ثم قال عليه السلام :ازيدك يا ابراهيم ؟ قلت بلى يابن رسول الله قال (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون)

الاية المباركة تتحدث عن المستكبرين كما في الايات التي قبل هذه الاية وهم أئمة الجور والضلال فأنهم السبب في ضلال من اتبعهم ، يقول عنهم الله سبحانه ان عاقبة امرهم انهم يحملون اوزارهم أي ثنوبهم التي تثقل ظهورهم كاملة لاتنقص ولا يقل منها شيء بتكفير او بسبب ما يصيبه من مصائب في الدنيا ، بل يحملونها كاملة بل يضاف اليها بعض اوزار غيرهم ، وهؤلاء الغير تنقص اوزارهم بسبب انه اخذ منها وحملت على الغير ، وهذا بحسب المقابلة أي المستكبرون يحملون اوزارهم كاملة

ومن اتبعهم تنقص من اوزارهم ، والاية صريحة في نقل بعض الاوزار من الغير لا انها تريد ان تقول يحملون مثل اوزار الذين يضلونهم فان (من) جائت للتبعيض لا انها جائت للجنس كما يقوله بعض المفسرين ، والشاهد على ذلك هو ان هؤلاء الاتباع الضالون بسبب المستكبرين عندهم اوزار سببها اهل الاستكبار واوزار بسبب غيرهم فليس من العدل ان يحملوا مثل جميع اوزار الضالين لانهم ليس هم من سببها جميعا بل هم سببوا بعضها فما كانوا هم سببه يؤخذ ويحمل عليهم وما لم يكونوا هم سببه يبقى ، فالتعبير القراني دقيق جدا وهو يريد ان يرفع البعض لا انه يريد ان يحمل الغير مثل جميع اوزار الضالين ، فـ (من) جائت للتبعيض لا انها جائت للجنس وهو الظاهر من السياق ، وان قلت انها مشتركة بين التبعيض والجنس وليس احدهما اظهر من الاخر ، قلت هناك قرينة من داخل السياق تمنع من الحمل على الجنس وهي ان الحمل على الجنس يكون خلاف العدل الالهي لان الله يحمل المستكبرين التي تسببوا بها لا جميع ذنوب الغير .
ان قلت ان رفع الاوزار من اصحابها ايضا يكون خلاف العدل فهم من ارتكبها كيف ترفع عنهم وتعطى لغيرهم ؟

قلت ان الاية المباركة اجابت عن هذا الاشكال بقوله تعالى (بغير علم) فهؤلاء وقعوا في الضلال عن جهل أي لم يعلموا ان المستكبرين يدعونهم الى الانحراف عن طريق الحق فالضال يعرف الهدف ولكن يخطئ الطريق ، والله لا يحاسب على ما يقع فيه الانسان عن جهل لذا ورد عن النبي ص (رفع عن امتي تسعة .... ما لا يعلمون) وسائل الشيعة ج١٥ ص٣٦٩ فبما ان ما وقع منهم كان بغير علم فليس من العدل ان يحاسب الجاهل على ما اتى به عن جهل ، لذا يرفع عنه ويحمل على مسببه ، والاية لم تبين حال من كان عالما بالضلال وكان تابعا لؤلئك المستكبرين ، أي انها لم تقل انهم سترفع عنهم بعض الاوزار كما ترفع عن من ضل بغير علم .

وهذه الاية اصرح من الاية السابقة التي ذكرها الامام عليه السلام وان كانت بنفس هذا المضمون وهي قوله تعالى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ [العنكبوت : ١٣] فهذه الاية ايضا تبين انهم يحملون اثقالهم واثقالا مع اثقالهم ، فهذه لم تبين ان الاثقال التي تضاف اليهم من اين تؤخذ ولا تبين سبب الاخذ ولا انه كم يؤخذ كل هذه التفاصيل لم تتعرض له بخلاف الاية التي استدل بها على مدعاه .

ثم قال عليه السلام : اتحب ان أزيدك ؟ قلت : بلى يابن رسول الله ، قال : (فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) يبدل الله سيئات شيعتنا حسنات ، ويبدل الله حسنات اعدائنا سيئات ، وجلال الله ان هذا لمن عدله وانصافه لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه وهو السميع العليم ،
كانت الاية السابقة التي استدل بها الامام عليه السلام في أئمة الضلال وحملهم اوزار الذي يضلونهم بغير واما هذه الاية تتحدث عن من صدر منه سيئات ولكن حصلت منه توبة وايمان واتى بعمل صالح فهؤلاء ليس فقط ترفع عنهم السيئات بل يؤتى لم

مكانها حسنات فان معنى التبديل هو ان تجعل شيء مكان اخر ، الاية السابقة بينة رفع الوزر فقط عمن ضل بغير علم اما هل يوضع مكانه شيء او لا ؟ لم تبين ذلك ، لانه ليس كل من ضل ورفعت عنه اوزاره يستحق ان يعطى مكانها حسنات ، الذي يستحق التبديل لا بد ان تتوفر فيه شروط تذكرها هذه الاية حيث تقول : (الا من تاب وامن وعمل صالحا فأولئك ...) والامام عليه السلام يبين مصداق من يبدل الله سيئاتهم حسنات وهم شيعتهم ، فيكون معنى الايمان في الاية الذي هو شرط التبديل هو الايمان بولايتهم وامامتهم واتباعهم .
ثم ان الامام عليه السلام يقول ويبدل حسنات اعدائنا سيئات ، هذه النتيجة لا يستفيدها الامام عليه السلام من هذه الاية فقط بل من مجموع الايتين فان تلك الاية بينت حمل المستكبرين لأوزار من يضونهم وهذه بينت تبديل سيئات المؤمنين بالحسنات وهذه الحسنات التي اعطيت للمؤمنين جزما لم تؤخذ من مؤمن وأعطيت لمؤمن وانما تؤخذ من غير المؤمنين وتعطى للمؤمنين .

ثم قال عليه السلام : ألم أبين لك أمر المزاج والطينتين من القرآن ؟ قلت : بلى يابن رسول الله ، قال : إقرأ يا ابراهيم : (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم ان ربك واسع المغفرة هو اعلم بكم إذا أنشأكم من الارض) يعنى من الارض الطيبة والارض المنتنة(واذ انتم اجنة في بطون امهاتكم)(فلا تزكوا أنفسكم هو اعلم بمن اتقى) يقول لا يفتخر احدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه لان الله تعالى اعلم من اتقى منكم فان ذلك من قبل اللمم وهو المزاج .
في هذا المقطع يبين الامام عليه السلام ماذكره سابقا وهو الخلق من طين والمزج بين الطينتين من القران الكريم ، فقوله سبحانه (انشأكم من الارض) أي التي منها الطين الطيب ومنها الخبيث ، ونحن سابقا بينا ان هذه الارض ليس المراد منها الارض المادية وبينا القرائن على ذلك .

وهناك ايات اخرى تبين خلق الانسان من طين منها : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ [السجدة : ٧]

ومنها : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ [الأنعام : ٢] ومنها : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ [المؤمنون : ١٢]

والاية تبين ان من يجتنب الكبائر يمكن ان لا يجتنب اللمم ، والامام عليه السلام يفسر اللمم بالامتزاج ، ويمكن ان يكون مراده عليه السلام ان صدور اللمم من هؤلاء بسبب المزج بين الطينتين لا ان اللمم نفس المزج وهو الخلط .

وهناك اية اخرى تبين اختلاط العمل الصالح بالسيئ سواء كان السيئ كبائر او لمم وهي قوله تعالى : وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [التوبة : ١٠٢]

ثم يقول عليه السلام : ازيدك يا ابراهيم ؟ قلت : بلى يا رسول الله قال : (كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله) يعني أئمة الجور دون أئمة الحق (ويحسبون انهم مهتدون)

هنا يبين سلام الله عليه ان النهايات ترج الى البدايات ، أي انه علم قبل الخلق بهذه الفرقة انها سوف تكون صالحة، فخلقها من الارض الطيبة ومن طين الجنة او عليين لذا سوف ترجع الى ماخلقت منه ، وعلم ان تلك الفرقة ستكون طالحة فخلقها من الارض الخبيثة وطينة سجين فترجع الى ما خلقت منه ، يستفيد هذا المطلب سلام اللع عليه من القران الكريم ، فالذين حقت عليهم الضلالة في علمه سبحانه ابتدأ خلقهم من الطينة الخبيثة بسبب انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله ، والمهتدون هم من اتخذوا الله وليا لهم وتولوا اوليائه فان ولاية اولياء الله نابعة من ولاية الله كم قال سبحانه : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ [المائدة : ٥٥]

خذها اليك يا ابا اسحاق فو الله انه لمن غرر أحاديثنا وباطن سرايرنا ومكنون خزائننا ، وانصرف ولا تطلع على سرنا احدا إلا مؤمنا مستبصرا فانك إن أذعت سرنا بليت في نفسك ومالك وأهلك وولدك .
في اخر الحديث يأمر الليثي بالتمسك بها ويقسم له انها من غرر احاديثهم عليهم السلام أي من كرائم الاحاديث ، وان هذه الرواية من باطن السراير ومكنون الخزائن ، ويأمره ان لا يطلع عليها احد ، الا مؤمن مستبصر أي من اوليائهم كما بينا في معنى المؤمن المستبصر ، ولا يذيع هذا السر فاذاعت الاسرار فيه مهلكة كما قال الشاعر : بالسر ان باحوا تباح دمائهم ..... وكذا دماء العاشقين تباح

خاتمة

في هذه الخاتمة اذكر بعض الشبهات التي قد ترد على مثل هذه الاخبار ، منها :

الاغراء بالمعصية

قد يقول قائل ان مثل هذه الرواية تزهد في طاعة الله سبحانه وتشجع على معصيته ، فاذا كانت جميع الذنوب لا يتحمل المؤمن تبعاتها فما الذي يمنعه عن ارتكاب المعاصي ؟

اقول هذا الكلام لا يأتي في روايات الطينة فسحب بل يأتي في كل ما دل على عفو الله سبحانه وتعالى ومغفرته من الايات والروايات ، لانه يقال اذا كان الله يغفر الذنوب والمعاصي فما هو الذي يمنع الناس من ارتكابها ؟

فما يجاب به هناك يجاب به هنا .

ولكن مع ذلك نقول ان كثرة الذنوب والمعاصي قد تنزع الايمان من القلب وتوصل الإنسان إلى بغض الحق واهله ، وكم له مثيل في حياتنا ، واذا اردت ان تتاكد من ذلك خذ اليك اثنين يحب احدهما الاخر ولكن احدهما يفعل كل خير للاخر ويدفع عنه كل سوء ويوفر له كل ما يحتاج إليه ، ولكن الآخر يستعين بكل ما يأخذه من حبيبه على معصيته ومخالفته والإتيان بما يكرهه ، فهل يا ترى يبقى الحب قائما بينهما ؟

بلا شك سوف يضعف ويخفت ذلك الحب حتى يتلاشى ولا يبقى منه شيء ، هذا اذا لم يحل محله البغض والعداوة ، فانظر إلى من حصل بينهم عداء بعد محبة وتفحص سبب ذلك العداء ستجد انه بسبب مخالفة او اختلاف حصل بينهم ، نتج منه انقلاب المحبة الى عداوة .

فاذا وضع المؤمن هذا الهاجس في نفسه وهو انه يمكن ان يعادي الحق ويبغضه ويسخطه بسبب كثرة الذنوب فهل تراه يسرف على نفسه ؟ او انه يجهد على ان يحافظ على ذلك الحب ويزيد فيه ويفعل كل ما بوسعه للحفاظ عليه ؟

ولهذا نجد ان الروايات تحذر المؤمن من غضب الله سبحانه الكامن في بعض معاصيه ورد عن قال الباقر عليه السلام : إن الله خبأ ثلاثة في ثلاثة : خبأ رضاه في طاعته ، فلا تحقرن من الطاعة شيئا ، فلعل رضاه فيه . وخبأ سخطه في معصيته فلا تحقرن من المعصية شيئا ، فلعل سخطه فيه . وخبأ أولياءه في خلقه فلا تحقرن أحدا ، فلعله الولي . - بحار الأنوار - العلامة المجلسي ج ٧٥ ص ١٨٨

شبهة مقالة اليهود

ان قلت اليس الالتزام بمقولة ان العصاة من اهل الولاية لا يدخلون النار او يدخلونها ثم يخرجون منها هي نفس مقالة اهل الكتاب التي يحكيها القران الكريم عنهم حيث قال {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة : ٨٠] وقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [آل عمران : ٢٤]

قلت اذا كانت هذه المقولة من غير علم ، او محض افتراء فالكلام صحيح ، فاليهود قالوا ذلك بغير عهد او علم وهم بذلك يفترون على الله سبحانه ، ونحن لو كنا نقول ذلك من دون عهد او علم فلا يكون هناك فرق بين مقولتنا ومقولتهم ، اما اذا كانت مقولتنا عن علم بالاستناد الى كتاب الله وكلام نبيه (ص) والاوصياء من بعده ، فلا يكون افتراء على الله ولاتقوّل عليه ، وهذه الامة الاسلامية مجمعة على امة النبي امة ناجية ببركة شفاعة النبي (ص) وهذا يعني انهم غير مخلدين في النار فهل يكون هذا القول كقول اليهود ام انه مختلف ؟
لو سألت علماء الامة لقالوا لك نحن نقول ذلك وفق دليل من القران والسنة ، فهو ليس افتراء على الله ، واين مقالتنا من مقالة اليهود .
ونحن نقول نفس هذا القول مع فارق ، وهو ان من كان معاندا ومبغضا للحق واهله يكون هالكا ولا تشمله الرحمة الالهية حتى لو كان ظاهر من اهل الاسلام .

شبهة الجبر والمعاقبة على غير المقدور

بعض الروايات تذكر ان لا مجال للتحول من الولاية الى العداوة ومن العداوة الى الولاية ، فاذا كان غير الموالي لا يمكنه التحول الى محبة اولياء الله واتباعهم فهل من العدل محاسبته ومعاقبته على امر غير مقدور عليه ؟
اقول قد اشتبه على المستشكل الامر فان الروايات تخبر عن علم الله سبحانه بهؤلاء انهم لايتحولون عن بغضهم للحق باختيارهم ، فهو علمٌ واخبارٌ عما هم صائرون اليه ، فهو من قبيل انك تخبر عمن يلقي نفسه من شاهق باختياره تقول انه سوف يسقط على الارض وتتكسر عظامه ولا يمكنه ان يغير مسير سقوطه على الارض ، فهل يعني ذلك انك بالاخبار عنه بذلك قد أغلقت الطريق امامه وسلبت منه الاختيار ؟
واذا اعترض عليك بذلك فأن تستهجن منه هذا القول وتقول له انا اخبر عما يحصل في حال انك اخترت القاء نفسك من شاهق ، ولا دخل لعلمي واخباري في ما يحصل وما انت صائر اليه .
ونفس هذا الجواب يأتي في محل الكلام ، فأهل البغض والعناد انما اختاروا ذلك بمحض ارادتهم فلا يمكنهم التحول عما اختاروه والانتقال الى الطرف الاخر ، فاذا كان هذا الامر حصل باختيارهم لذا يعاقبون عليه .
ان قلت فاذا لم يكن بمقدورهم الرجوع عما اختاروه فما الداعي الى دعوتهم لاتباع الحق واهله ؟
قلت انه لا يمكن ان يتبين للانسان ما دام في هذه الحياة انه الى ما يكون مصيره ، فليس العبرة بما عليه في ايام حياته وانما العبرة بخواتيم حياته ، فترى البعض يكون من محبي الحق ومتبعيه ويقضي في ذلك برهة من عمره ولكن في اخر المطاف تراه يعادي الحق واهله ويحاربهم فتختم حياته بذلك ، وكذا الامر في عكس ذلك ، فكثير ممن يعادي الحق يأتي عليه يوم ينقلب عن ذلك ويكون من المتفانين في حبه والدفاع عنه .

والشواهد على ذلك كثير في كل زمان ومكان اذكر منها هذا الحديث المشهور بين المسلمين انقله عن الموسوعة الحديثية من موقع الدرر السنية الالكتروني الذي هو مرجع علمي في هذا الباب ، عن النبي (ص) :

إني فرطكم على الحوض ، من مر علي شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدا ، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يحال بيني وبينهم . قال أبو حازم : فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال : هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت : نعم ، فقال : أشهد على أبي سعيد الخدري ، لسمعته وهو يزيد فيها : فأقول : إنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سحقا سحقا لمن غير بعدي .

الراوي: سهل بن سعد الساعدي المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٦٥٨٣

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

ومن طريق اخر عنه (ص) :

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يا أيها الناس ، إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا ، ثم قال : { كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين } . إلى آخر الآية ، ثم قال : ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصيحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : { وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد } . فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم) .

الراوي: عبدالله بن عباس المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٤٦٢٥

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

فالرواية تتحدث عمن صحب النبي (ص) وشاركه في تحمل اعباء الدعوة الى الله وجاهد واتبع الحق واهله ، ولكن بعد ذلك حصل منهم الارتداد والانقلاب على الحق واهله ، وقلبوا له ظهر المجن ، وقد رووا باكثر من طريق ان علي مع الحق والحق مع علي ، منه هذا الطريق :

أن فلانا دخل المدينة حاجا فأتاه الناس يسلمون عليه فدخل سعد فسلم فقال وهذا لم يعنا على حقنا على باطل غيرنا قال فسكت عنه [ساعة] فقال ما لك لا تتكلم فقال هاجت فتنة وظلمة فقال لبعيري إخ إخ فأنخت حتى انجلت فقال رجل إني قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره فلم أر فيه إخ إخ [قال فغضب سعد] فقال أما إذ قلت ذاك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول علي مع الحق أو الحق مع علي حيث كان قال من سمع ذلك قال قاله في بيت أم سلمة قال فأرسل إلى أم سلمة فسألها فقالت قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فقال الرجل لسعد ما كنت عندي قط ألوم منك الآن فقال ولم قال لو سمعت هذا من النبي صلى الله عليه وسلم لم أزل خادما لعلي حتى أموت .

الراوي: سعد و أم سلمة المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: ٢٣٨/٧

خلاصة حكم المحدث: فيه سعد بن شعيب ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح

فكم من الناس كانوا متبعين للرسول (ص) ثم بعد ذلك حاربوا علي عليه السلام وهم يعلمون انه مع الحق والحق معه ، فهاهي ام المؤمنين تروي هذه الرواية في ان احب الناس لرسول الله (ص) هو علي بن ابي طالب عليه السلام ومع ذلك تخرج لحربه ويخرج معها طلحة والزبير وهم من اهل بدر ، والرواية هذه :

استأذن أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع صوت عائشة وهي تقول والله لقد عرفت أن عليا وفاطمة أحب إليك مني ومن أبي - مرتين أو ثلاثا – فاستأذن أبو بكر فدخل فأهوى إليها أبو بكر فقال يا بنت فلانة ألا أسمعك ترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الراوي: النعمان بن بشير المحدث: الشوكاني - المصدر: در السحابة - الصفحة أو الرقم: ٢١٦
خلاصة حكم المحدث: إسناده رجاله رجال الصحيح

ومن مصدر اخر :
استأذن أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع صوت عائشة عاليا وهي تقول والله لقد عرفت أن عليا وفاطمة أحب إليك مني ومن أبي مرتين أو ثلاثا فاستأذن أبو بكر فأهوى إليها فقال يا بنت فلانة لا أسمعك ترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الراوي: النعمان بن بشير المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: ٢٠٤/٩
خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح
وكم من رواية ذكرت في فضل علي عليه السلام في كتب القوم وهي حسب ضوابطهم وموازينهم في صحة الرواية بطرق متعددة ومع ذلك يغمضون عنها ، اليس هذا من معاندة الحق الذي جرى على السنتهم ، ومنابذته ومكافحته وحربه ؟
ومن الروايات التي وردت في الصحاح بطرق متعددة هذه الرواية :
حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر فانصرف ولم يفتح له ثم أخذه من الغد عمر فخرج فرجع ولم يفتح له وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني دافع اللواء غدا إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله لا يرجع حتى يفتح له وبتنا طيبة أنفسنا إن الفتح غدا فلما أن أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الغداة ثم قام قائما فدعا باللواء والناس على مصافهم فدعا عليا وهو أرمد فتفل في عينيه ودفع إليه اللواء وفتح له قال بريدة وأنا فيمن تطاول لها .

الراوي: بريدة بن الحصيب الأسلمي المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: ١٥٣/٦
خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح
ومن طريق اخر :
كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر ، وكان رمدا ، فقال : أنا أتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلحق به ، فلما بتنا الليلة التي فتحت ، قال : (لأعطين الراية غدا ، أو : ليأخذن الراية غدا رجل يحبه الله ورسوله ، يفتح الله عليه) . فنحن نرجوها ، فقيل : هذا علي ، فأعطاه ففتح عليه .

الراوي: سلمة بن الأكوع المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٤٢٠٩
خلاصة حكم المحدث: [صحيح]
فكيف حارب رجل هم يشهدون بقول النبي (ص) انه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ؟! وكيف يسب على منابر المسلمين ثمانين عاما ؟! اليس هذا انقلاب على الحق واهله ومعاندته عن علم وعمد {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل : ١٤]

ومن خلال هذا كله يتبين ان لا عبرة بما يكون عليه الانسان في حاضر حياته ولا يعلم ما هو صائر اليه حال خروجه من الدنيا ، وانما العبرة في خواتيم الاعمال وما يكون عليه الشخص عندما تغمض عيناه ، وهذه النتيجة التي يصير اليها العبد الله يعلمها قبل ان يأتي العبد بمقدماتها بل قبل ان يخلق العبد ، وبأختياره يذهب اليها ، وهي غير معلومة له الابعد الخروج من الدنيا ، فلا يرد الاشكال انه لماذا يطلب من الانسان اتباع الحق اذا كان هو من اهل الباطل نقول لانه لا يعلم من أي الفريقين هو ، وحتى تكون الحجة عليه بالغة .

مصادر البحث

١- القران الكريم
٢- نهج البلاغة الشريف الرضي
٣- تفسير الميزان العلامة الطباطبائي
٤- تفسير روح المعاني الالوسي
٥- تفسير القمي علي بن ابراهيم
٦- بصائر الدرجات محمد بن الحسن الصفار
٧- اشراق اللاهوت في نقد شريح الياقوت
٨- قواعد المرام في علم الكلام
٩- وسائل الشيعة الحر العاملي
١٠- بحار الانوار العلامة المجلسي
١١- الكافي محمد بن يعقوب الكليني
١٢- علل الشرائع
١٣- مصابيح الانوار في حل مشكلات الاخبار
١٤- المحلى ابن حزم
١٥- الاقتصاد للطوسي
١٦- مفاتيح الجنان
١٧- مسالك الافهام الشهيد الثاني
١٨- ايضاح الفوائد ابن العلامة
١٩- الحدائق الناضرة المحقق البحراني
٢٠- تكملة العروة الوثقى السيد اليزدي
٢١- جواهر الكلام
٢٢- الفروق اللغوية ابو هلال العسكري
٢٣- المدونة الكبرى الامام مالك
٢٤- الخرائج والجرائح قطب الدين الراوندي
٢٥- المقنعة الشيخ المفيد
٢٦- المعتبر المحقق الحلي
٢٧- فتح الباري ابن حجر
٢٨- المحاسن للبرقي
٢٩- الدر المنثور جلال الدين السيوطي
٣٠- فتح القدير للشوكاني
٣١- شواهد التنزيل الحاكم الحسكاني
٣٢- الكشف والبيان للثعلبي
٣٣- تفسير ابن ابي حاتم
٣٤- قوت القلوب ابي طالب المكي
٣٥- موقع الدرر السنية الكتروني
٣٦- صفات الشيعة الشيخ الصدوق

٣٧- دعائم الاسلام القاضي النعمان المغربي
٣٨- تحف العقول ابن شعبة الحراني
٣٩- الخصال للشيخ الصدوق
٤٠- الموسوعة الفقهية الميسرة الشيخ محمد علي الانصاري
٤١- عيون اخبار الرضا للشيخ الصدوق
٤٢- شرح اصول الكافي مولى محمد صالح المازندراني
٤٣- انوار الهداية السيد الخميني
٤٤- نهاية الحكمة العلامة الطباطبائي
٤٥- خلق افعال العباد البخاري
٤٦- مستدرك الوسائل الميرزا النوري
٤٧-

فهرست المواضيع

١- المقدمة ٣
٢- تمهيد ٦
٣- معنى وجوب النظر والمعرفة والدليل عليهما ٦
٤- معنى اليقين والجزم والاطمئنان والظن ٨
٥- كفاية الجزم في حصول الاعتقاد ٩
٦- تصنيف اخبار الطينة ١١
٧- اقوال العلماء في اخبار الطينة ٢١
٨- كلام في الايمان ٢٧
٩- تمام الايمان وكماله ٣١
١٠- المؤمن المستبصر ٣٣
١١- كلام صاحب الميزان في معنى حقيقة فعله وحكمه ٣٤
١٢- سبب تعجب الليثي من كلام الامام ع ٣٨
١٣- دور العقيدة ٤٠
١٤- بيان فلسفي ٤٣
١٥- ايصال الفعل بمقدار الغاية ٤٤
١٦- اهمية الاخلاص ٤٦
١٧- مرتكز جواب الامام ع ٤٨
١٨- ولاء المحبة ٥١
١٩- من المفارقات في الحب ٥٤
٢٠- انقسام الامة في محبة اهل البيت ع ٥٦
٢١- استعمل لفظ الشيعي والمحب ٥٧
٢٢- درجات المحبين ٥٩
٢٣- تقييم الناس وفق الاعتقاد ٦٢
٢٤- اصناف الناس ٦٣
٢٥- هل الناس صنفين او ثلاثة ؟ ٦٤
٢٦- هل الضال والعاصي على درجة واحدة ؟ ٦٥
٢٧- قيمة العمل بالايمان ٦٧
٢٨- مقدمات الجواب ٦٨
٢٩- العلم الالهي ٦٨
٣٠- بدء الوجود وتنزلاته ٦٩
٣١- هل الرجوع اليه سبحانه ام الى الجنة او النار؟ ٧٣
٣٢- كيفية الخلق ٧٣
٣٣- صفاته سبحانه تحدد كيفية الخلق ٧٤
٣٤- طريق السعادة وطريق الشقاء ٧٦
٣٥- الطين ليس من هذه الارض ٧٨
٣٦- كلام للطباطبائي ومناقشته ٧٩
٣٧- خلط الطينتين ٨٠
٣٨- الخلط والمزج لتيسير الطريق ٨١
٣٩- شاهد صدق ٨٢

٤٠- رد الاعمال الى اصحابها الحقيقيين ٨٣
٤١- بحث في اكتساب العمل ٨٣
٤٢- ارتباط الفعل بغير الفاعل وانفكاكه عن الفاعل ٨٤
٤٣- مسانخة الفعل للفاعل ٨٦
٤٤- تطبيق الكلام على محل البحث ٨٦
٤٥- انقطاع اثر العمل ٨٨
٤٦- شاهد صدق ٩١
٤٧- شبهة معارضة القران ٩١
٤٨- ظاهر القران وباطنه ٩٢
٤٩- لايسأل عما يفعل وهم يسألون ٩٤
٥٠- حكم الملكوت ٩٥
٥١- معارف الامام من القران .....
٥٢- الخاتمة .....
٥٣- اغراء بالمعصية ....
٥٤- شبهة مقالة اليهود .....
٥٥- شبهة الجبر والمعاقبة على غير المقدور .....
٥٦-
٥٧- مصادر البحث .....
٥٨- فهرست الموضوعات .....